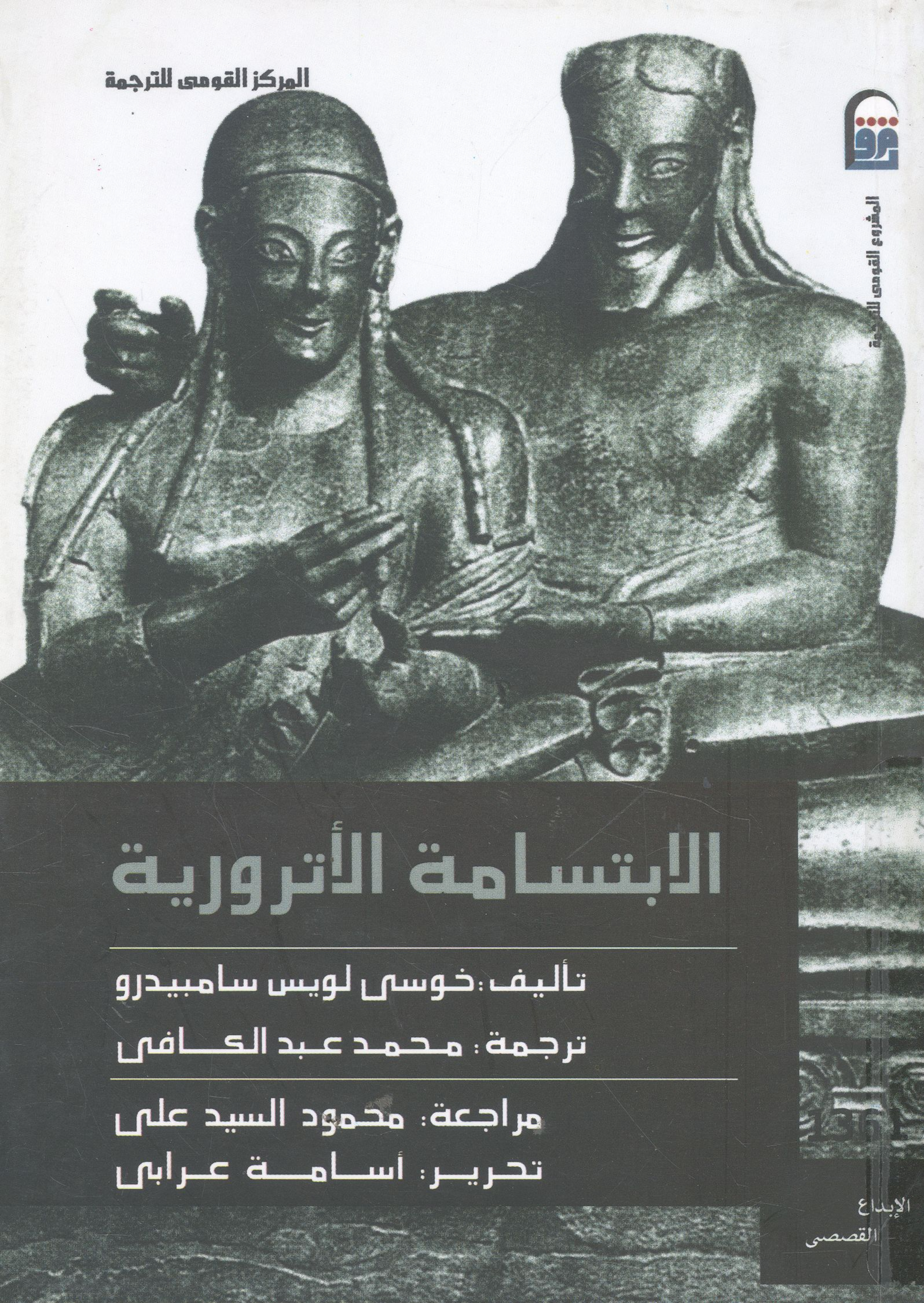

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
الابتسامة الأترورية
تأليف: خوسى لويس سامبيدرو
ترجمة: محمد عبد الكافى
مراجعة: محمود السيد على
تحرير: أسامة عرابى
1361
الإبداع القصصى

الابتسامة الأترورية

(رواية)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة : خيرى دومة

- العدد : ١٣٦١
- الابتسامة الأترورية
- خوسى لويس سامبيدرو
- محمد عبد الكافى
- محمود السيد على
- أسامة عرابى

هذه ترجمة رواية :

La Sonrisa Etrusca

Por: José luis SAMPEDRO

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٢٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya st. Opera House، El Gezira، Cairo

الابتسامة الأترورية

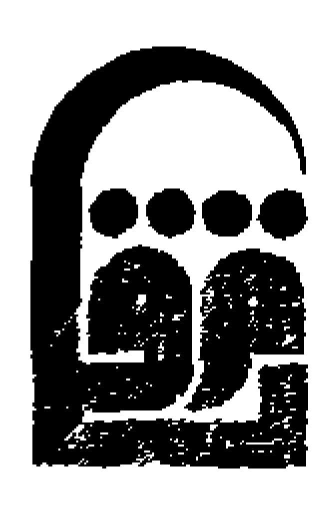
(رواية)

تأليف: خوسى لويس سامبيدرو

ترجمة: محمد عبد الكافى

مراجعة: محمود السيد على

تحرير: أسامة عرابى



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

سامبيدرو ، خوسى لويس
الابتسامة الأترورية (رواية) / تأليف: خوسى لويس سامبيدرو ، ترجمة : محمد عبد الكافى ؛ مراجعة: محمود السيد على؛ تحرير: أسامة عرابى
ط١- القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩
٤٢٤ ص ، ٢٠ سم
١ – القصص الإسبانية
(أ) عبد الكافى ، محمد (مترجم)
(ب) على ، محمود السيد (مراجع)
(جـ) عرابى ، أسامة (محرر)
(د) السلسلة
(هـ) العنوان ٨٦٣

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٤٩٦٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N 978- 977-479-493-4

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

إهداء

إلى ميغال وإلى بيتا بافلو

مقدمة الترجمة

لا أحد يجهل أن نقل نص من لغة إلى لغة أخرى يتم بواحدة من طرق ثلاثة : النقل حرفيًّا كلمة بكلمة؛ وهذا ما أسميه ترجمة. أو نقل الفحوى ودلالاتها مع عدم الإخلال بالنص الأصلى وتركيبه، بقدر ما تسمح به اللغة المنقول إليها؛ وهذا عندى تعريب. والطريقة الثالثة هى فهم النص الأصلى وتحويله إلى اللغة الجديدة من دون تقيد؛ وهذا ما أسميه تعريبًا حرًّا أو بتصرف.

أما اختيار هذه السبيل أو تلك، فوقْفٌ على النص المنقول، وهدف الناقل المرتجى طبعًا.

ولما عثرت على هذه القصة الجميلة، وتمعنت فى جوانبها المتعددة، لم أجد مهربًا من سلوك السبيل الثانية، أى محاذاة النص الأصلى والسير على نهجه فى الحدود التى يقتضيها التحرير عربيًّا؛ وذلك لأسباب منها أسلوب الكاتب بجمالياته واختياراته الفنية، ولغة النص الوفية بضرورات نمو شخصياتها الدرامى، هذا بالإضافة إلى استخدام المؤلف المقولات والتعبيرات الخاصة والأمثال أو ما شابه، وإدراج مفردات وعبارات مستمدة من تراث غير إسبانى يتعلق بلهجة محلية إيطالية، هى لسان أهل كالابريا فى أقصى الجنوب الإيطالى.

أما من حيث الأسلوب، فالمؤلف يكثر من استعمال المضارع ولو تحدث عن الماضى، ويعمد إلى عدم إتمام الجمل أو كلام أحد الأبطال، ويقطع تسلسل كلامه ليشير إلى أن ذلك ما يدور بخلد البطل المعنى إذ ذاك. فبدل أن يكتب مثلاً : وقال مفكرًا، أو راح يفكر ويقول كذا وكذا، بدأ بسرد جزء من الأفكار المعنية ثم يتوقف ليضع – يفكر – وغايته من ذلك إبراز حالة معينة تصور نفسية البطل، فحافظت على ذلك ولم أتدخل فيه بالحذف والتعديل.

غير أن العبارات القليلة التداول أو ما شابه من الأمثال، فإنها لو نقلت حرفيًا لأحارت القارئ أو أضحكته، من ذلك قوله واصفًا امرأة : إنها امرأة قانون. لكن المعنى الذى تدل عليه العبارة، فهو أنها امرأة حقيقية لا مجازًا. أو قول بطله متحدثًا عن قسيس، إنه ميبابيلاس أى يبول فى الأحواض، والمقصود بالحوض هنا، هو ذلك الذى يوجد فى مدخل كل كنيسة وبه ماء يُعدُّ مقدسًا، يرسم به المتدنيون شكل الصليب عند دخولهم المعبد. فكيف بقسيس أن يبول فى مثل هذا الحوض ؟ لكن المعنى المتوخى من العبارة، هو أن الراهب كثير التعبد والخشوع والتقوى، حتى أن بوله أصبح ماء مقدسًا يمكن صبه فى هذه الأحواض. وقوله : كوليرا دى لابرادور لو ترجمت حرفيًا لأدت إلى غضب حارث أو فلاح. لكن كلمة لابرادور لا تشير إلى من يحرث الأرض بل إلى فصيل من الكلاب شديد الغضب والهيجان.

بالإضافة إلى هذا، فقد أتخمت القصة، كما سبق وأن قلت، بالعبارات والمفردات الإيطالية وبلهجة كالابريا فى جنوب إيطاليا؛ مما اضطرنى إلى الاستعانة بزميل إيطالى عجز بدوره فى معظم الأحيان؛ لأنه من الشمال؛ فالتجأنا إلى الحاسوب والإنترنت. بَيْد أننى حافظت على نهج الكاتب الذى أتى بنصها الإيطالى من دون ترجمة، وكتبتها كما هى بأحرف عربية بعد تعريبها؛ لإضاءتها وتيسير فهمها.

أقول كل هذا ليعلم القارئ الكريم أن أمامه قصة مغايرة لما درج عليه؛ وهذا ما جعلنى أختارها وأجازف بتعريبها، خاصة وأن مؤلفها واسع الشهرة وراسخ القدم، وهو من أكبر الكتاب الإسبان المعاصرين.

فعلى القارئ أن يتمعن، ولا يجفل من المفردات غير المتداولة، وأن يتابع بدقة ليتمكن من الإحاطة بخيال البطل الغرائبى أحيانًا.

أرجو أن أكون قد وفقت ولو نسبيًّا، وما توفيقى إلا بالله.

محمد عبد الكافى

(١)

فى المتحف الرومانى "بفيلا دجوليا" كان حارس القسم الخامس يواصل نوبة حراسته. وبانتهاء الصيف ومعه أفواج السياح تصبح الحراسة مملة. أما اليوم فإن زائرًا معينًا قد جلب فضول الحارس وحيرته، عاد بمزيد من حب الفضول إلى القاعة الصغيرة؛ حيث وضع تمثال "لوس إسبوسوس" (الزوجان). "ألا يزال هناك ؟" هكذا تساءل وأسرع الخطى حتى أطل من الباب.

موجود. لا يزال هناك على المقعد أمام الناؤوس[١] الأتروري الكبير المصنوع من الخزف والمتوسط أسفل القبة. هى تحفة المتحف معروضة، كما لو كانت فى قراب، بالقاعة الصغيرة المكسوة بلون أدنى إلى لون القبو الأصلى.

نعم. ها هو هناك، بلا حراك منذ نصف ساعة، كما لو كان هو أيضًا صورة جففتها نار القرون. فالقبعة البنية والوجه المدبوغ يشكلان تمثالاً نصفيًّا من صلصال، بارزًا من القميص الأبيض بلا أربة[٢] كعادة الشيوخ هناك وإلى الأسفل، بجبال الجنوب : أبوليا، أو بالأحرى كالابريا. تساءل الحارس :

"ما عساه يرى فى هذا التمثال ؟ "

---

(١) الناؤوس هو التابوت

(٢) رابطة العنق

ونظرًا إلى أنه لا يفـــهم؛ فهـــو لا يجـــرؤ علــــى الانـــسحاب عسى أن يحدث شئ فجأة. فهذا الصباح قد بدأ كغيره، وها هو يصير مختلفًا كثيرًا. لكن الحارس لا يجرؤ كذلك علـــى الـــدخول، يمنعـــه احترام غامض. ويواصل البقاء بالباب، ناظرًا إلى الشيخ الذى يركز نظره، بلا اكتراث لحضور الحارس، إلى الضريح الذى مـــال فـــوق غطائه الزوجان.

فالمرأة متكئة على مرفقها الأيـــسر، وشـــعرها يتـــدلى فـــى ضفيرتين على نهديها. تقـــوست يدها فى جمال مقربـــة إياهـــا مـــن شفتيـــها الغليظـــتين. وخـــلفها الرجـــل متكئ هـــو الآخـــر بلحيتـــه المدببة تحـــت فمه الفونى (الشبيه بفم فاونون نـــصف الإلـــه) وهـــو يحتوى القوام الأنثوى بذراعه اليمنى. إن لون الطفل المحمـــر فـــى هذين الجسدين يدل على خلفية دموية لا تبلى علـــى مـــر القـــرون. وتحـــت الأعين المستطيلة الزائغة شـــرقيًّا، تزهـــر فـــى الـــوجهين الابتسامة نفسها التى لا توصف : ملهمة.. مبهمة.. وهادئة.. متنعمة. كانت بؤر نور خفية تنير بذكاء متقد ذينك الشكلين معطيـــة إياهمـــا جلاء وحدة وتملأهما بالحياة. وفى تباين من ذلك يبدو الشيخ الـــساكن فى شبه الظل تمثالاً فى عينى الحارس. "كما لو كان الأمر ســـحرًا"، يفكر الحارس من دون مشيئته. وكى يطمئن نفسه قرر إقناعها بـــأن كل شىء طبيعى : "إن الشيخ متعب، وبما أنه دفع ثمن تذكرة الدخول

فقد جلس هناك كى يستغلها. هكذا هم أهل الريف". وبعد فترة وبما أنه لم يحدث شىء، فقد ابتعد الحارس. طال غيابه فى مناخ القبو الخانق حول سكانه الثلاثة : الشيخ والزوجيْن، والوقت يقترب...

يقطع هذا الجو رجل شاب فيقترب من الشيخ : أخيرًا يا أبتاه ! هيا بنا. آسف على تركك منظرًا لكن هذا المدير...ينظر إليه الشيخ : مسكين هذا الطفل ! يسرع دائمًا ويعتذر... ومع هذا فهو ابنى.

- لحظة.. ما هذا ؟

-هذا ؟ الزوجان. ناؤوس أترورى.

- ناؤوس ؟ صندوق للأموات ؟

- نعم.. لكن لنذهب.

- أكانوا يدفنونهم هناك فى داخله ؟ فى هذا الذى يشبه المتكأ ؟

- هو سرير ثلاثى (تركلينيوم). كان الأترور يأكلون متكئين كما يفعل الرومان، ولم يكونوا ليدفنوهم فعلاً. كانوا يضعون الناؤوس فى قبو مغلق مطلى من الداخل كأنه منزل.

- مثل ضريح المركيز مالفاتى هناك فى روكاسيرا.. أليس كذلك؟

- بلى... لكن ستفهمك أندرييا أحسن منى. أنا لست آثاريًا.

– زوجتك ؟ حسن سأسألها.

ينظر الابن إلى أبيه بتعجب ويتساءل : "أله كل هذا الاهتمام ؟" ثم يعود فينظر إلى الساعة.

– إن ميلانو بعيدة يا أبتاه.. أرجوك.

ينهض الأب من المقعد رويدًا من دون أن يحول نظره عن الزوجين.

– كانوا يدفنونهم وهم يأكلون ! يهمس متعجبًا وأخيرًا وبالرغم منه يتبع ابنه.

عند المخرج يطرح الشيخ موضوعًا آخر.

– لم تجرِ الأمور مع المدير كما يجب، أليس كذلك؟

يُصَعِّر الابن فمه استنكارًا ويقول :

– طيب، كالعادة، أنت تعرف. يعدون ويعدون لكن... لكن – والحق يقال – لقد مدح أندريبيا كثيرًا. كان يعرف حتى مقالها الأخير.

يتذكر الشيخ أنه بعد انتهاء الحرب بقليل صعد بصحبة أمبروزيو ومقاوم آخر ("ما اسمه ذلك الألبانى الرامى القدير ؟... ملعونة هذه الذاكرة !") ليطالبوا أحد قادة الحزب بالإصلاح الزراعى فى منطقة سيلا الصغيرة.

– هل رافقك إلى الباب ضاربًا بكفه على كتفك ؟

– بالطبع ! كان عظيم المجاملة واللطف.

يبتسم الابن، ولكن الشيخ يعبس. كما كان الأمر سابقًا، كان من الضرورى موت ثلاثة أشخاص فى مظاهرة قروية بماليسا بالقرب من سنتا سافارينا، كى يفزع سياسيو روما فيقرروا القيام بشىء ما.

يصلان إلى السيارة فى موقف السيارات ويركبان. يهمهم الشيخ وهو يربط حزام الأمان. "عملية مربحة لعدد ما ! كما لو كان الواحد لا يمتلك حق الموت حسب رغبته". ينطلقان ويتجهان إلى مدخل روما. بعد دفع مُكوس الطريق بقليل، وبعد أن سارا فى الطريق السريع "أوتو سترادا دل صولى" يعود الشيخ إلى موضوعه وهو يلف فى بطء سيجارة.

– هل كانوا يدفنون الاثنين معًا ؟

– يدفنون من يا أبى ؟

– الزوجيْن، الأتروزيين.

– لا أدرى، قد يكون.

– وكيف ؟ لا يموتان فى وقت واحد !

أنت يا سيدى على صواب... حقًّا لست أدرى... اضغط هناك، فستخرج لك قداحة. – دعك من القداحات، وماذا عن ملاحة عود الكبريت ؟

- يحك الشيخ العود بقوة، ويشعل سيجارته بمهارة داخل الفراغ الذى كونه بكلتا يديه. يرمى بعود الكبريت إلى الخارج ويدخن على مهل. يسود صمت لا يمزقه إلا أزيز المحرك وهمس العجلات، وصوت بوق سيارة مزعج. ومن حين إلى آخر بدأت السيارة تفوح برائحة التبغ الأسود، مثيرة فى الابن ذكريات الطفولة الغضة. وهو يشرد بذهنه زجاج النافذة قليلاً. عندها ينظر إليه الشيخ : لم يستطع قط التعود على هذه الصورة الجانبية الرقيقة، هى ميراث الأم الذى يزداد إدراكه كل سنة. إنه يقود بجد وبانتباه إلى الطريق... "نعم لقد كان دومًا فتى جادًا."

لماذا يضحكان بهذه الطريقة الكثيرة... حسنًا، هكذا ؟ وفوق قبرهما !

- من هما ؟

- من سيكونان؟ إنها الأتروريان يا رجل، صاحبا الناؤوس. فى من كنت تفكر ؟

يا لله ! الأتروريان !... كيف أستطيع معرفة ذلك؟ ثم إنهما لا يضحكان.

- آه ؟ طبعًا ! ويضحكان من كل شىء ! ألم تر ذلك؟ بطريقة... بشفاه ملتصقة لكن يضحكان... ويا لها من أفواه ! المرأة خصوصًا مثل... ويتوقف كى يخفى اسمًا تذكره بحدة (سالفينيا).

يغتاظ الابن. "يا للهوس ! هل أخذ المرض يؤثر على عقله ؟

- لا يضحكان يا أبى، تلك هى ابتسامة غبطة.

- غبطة ؟ وما هى ؟

- مثل القديسين فى اللوحات عندما يتأملون الإله. تفلت من الشيخ قهقهة.

- قديسون ؟ يتأملون الإله ؟ هم، الأترورويون ؟ أبدًا.

- إن اعتقاده لا يقبل مراجعة. تسبقهم سيارة كبيرة وسريعة يقودها سائق يرتدى زيًا وفى المقعد الخلفى صورة خاطفة لسيدة أنيقة. ويفكر الشيخ : هذا الابن ابنى، ترى متى سيصل إلى فهم الحياة ؟

- الأتروريان يضحكان، أقولها لك. كانا يتمتعان حتى فوق قبرهما. ألم تنتبه إلى ذلك ؟ يا لهم من ناس !

يأخذ نفسًا آخر من السيجارة ويواصل :

- ما الذى جرى لهؤلاء الأتروريين ؟

- احتلهم الرومان.

- الرومان يأتون دومًا بما يزعج.

يغرق الشيخ فى القصة القديمة، ذكريات الدكتاتورية والحرب، وذكريات السياسيين بعد ذلك، بينما السيارة تتجه نحو الشمال.

كانت الشمس تُنهى سباقها، ناشرة الدفء على المزروعات الخريفية، ومازال العنب يجمع فوق إحدى الربى، بينما أخذ العصير فى روكاسيرا يختمر. ولفت انتباه الشيخ عدم تساوى الأخاديد، ففكر قائلاً لنفسه : لو أن أحد فتيانى قام لى بعمل كهذا، لطردته من بيتى ركلاً". إن كل جزء من الأراضى له عنده معنى، ولو كان منظرًا طبيعيًا مختلفًا تمامًا، أكثر خضرة، أكثر طراوة، لكن أهل الشمال هؤلاء...

– كل هذه الأرض كانت أترورية. قالها الابن فجأة راغبًا فى التلطف.

– تبدو هذه الحقول للشيخ أكثر غضاضة، وبعد فترة أجهد نفسه فى طلب شيء.

– متى استطعت ؟ توقف برهة يا بنى. أحتاج إلى إنزال السروال. أنت تعرف، هى الدويبة(١) التى تنتقل فى داخلى.

– وتعاود الحيرة ابنه؛ من مرض أبيه العضال وهو سبب الإتيان به إلى أطباء ميلانو، ويلوم نفسه على نسيان ذلك فترة وهو

---

(١) اسم دابة صغيرة كابن مقرض، ويقصد بها السرطان الذى ينهش جسده.

منشغل بمشكلة الخاصة. فمن المؤكد أن احتمال نقل زوجته إلى روما يهمه كثيرًا، ولكن ما بأبيه هو النهاية. يلتفت نحو الشيخ بحنان :

- سنتوقف فى أول مناسبة؛ وسأغتنم ذلك لتناول قهوة جيـدة كى أصحو وأنا أقود.

- استطيع الانتظار؛ فلا تتعجل خطاك.

يتمعن الابن فى صورة أبيه الجانبية. مـازال الوجـه نحيفًـا طويلاً، ولو أن الجوزة فى رقبته هزلت؛ فبدت كحصاة غص بها، أما العينان فقد غرقتا. كم بقى له من الوقت ليصبح بمقدوره تأمـل هـذا الوجه المنيع، والذى أوحى إليه دومًا بالأمن ؟ لقـد باعـدت بينهمـا الحياة، حاملة إياهما إلى عوالم مختلفة، ومع هذا فهو سيفقد كثيرًا هذا الظل الواقى، ظل شجرة البلوط هذه. طعنة غم : لو تكلـم لظهـرت عليه الكآبة، وهذا لا يعجب الشيخ.

يتوقفان عند محطة بيع الوقود. يأخذ الابن الـسيارة للتزويـد، وعندما دخل المقهى كان الأب قد عاد بعد، وها هو يرشف من فنجان تصاعد بخاره.

- لكن، أبتاه ! ألم يمنعك عنها الطبيب ؟

- وماذا يهم ؟ الحياة ضرورية.

- نعم، وهذا هو سبب المنع.

يسكت الشيخ ويبتسم مستمتعًا بقهوته، ثم أخذ فى لف سيجارة أخرى.

يستأنفان السير، وبعد دقائق وهما فى الطريق السريع يقرءان لافتة المدخل القادم تجاه أرتزو إلى اليمين.

– كانت مدينة أترورية كبيرة. قالها الابن وهما يمران باللافتة، تاركين إياها وراءهما.

أرتزو : يحتفظ الشيخ بالاسم.

(٢)

تعود السيارة إلى الطريق السريع بعد أن خرج المسافران من خان؛ حيث تناولا عشاء خفيفًا. ينتشر الضباب فى سهل نهر "البو" كطلائع أولى لليل اندغمت خيوطه، وتشابكت فى صفوف شجر الحور.

بدأ النوم يداعب الشيخ شيئًا فشيئًا : هذه الأراضى الرتيبة المضجرة الطرية، والبساتين المروضة لا تسترعى انتباهه. "مسكين" يفكر الابن متأملاً هذا الرأس المائل على ظهر المقعد. "إنه متعب.. ترى أله أمل فى الشفاء؟... إن لم يكن كذلك فلم أتى ؟.. لم أصدق أبدًا أنه يقبل ترك روكاسيرا. لا أجد تفسيرًا لذلك". عندما فتح الشيخ عينيه، كان الليل قد جن : ساعة السيارة

المضاءة بنور أخضر ضعيف تشير إلى العاشرة وعشر دقائق. يعود فيغــمض جفنيه كما لو كان يقاوم نفسه، رافــضًا الاطــلاع. تثيــره العودة إلى ميلانو. ففى المرة الأولى، كان حديث الترمل؛ فلم يستطع البقاء ولا خمسة عشر يومًا. أن الإبنيْن قد خططًا له ليمكث شهرين. كل شىء غير محتمل لديه: المدينة الميلانيــون، الــشقة الــصغيرة، الكــنة... ومــع هــذا فهــو الآن فى اتجاه ميلانو!... وهو يفكــر. كم أكون سعيدًا لو مت بمنزلى ! ملعون "كانتانوتى"! لماذا لا يمــوت ويريحنا؟"

– نومة لذيذة أليس كذلك ؟ وقال له الابن لمــا قــرر الــشيخ التحرك : ها نحن على وشك الوصول.

نعم، ها هما قد وصلا إلى الفخ. إن المدن عند الــشيخ، هــى دومًا شَرَك لصيد الرجال، وفيها يتعرض الفقير إلى ترصد الموظفين والشرطة وملاك الأراضى والتجار وغيرهم من الحشرات، وفم الفخ هو المخرج من الطريق السريع حيث البيت الصغير للمراقبة، وحيث يلزم التوقف وتسليم ورقة.

تبدأ ضواحى المدينة والشيخ ينظر مرتابًا إلى جهة وأخــرى، إلى الحظائر والمعامل المغلقة والمــساكن الرخيــصة، والأراضــى الصالحة للبناء والغدائر... دخان وضباب، قذارة وأنقاض، مــصابيح وحيدة وكئيبة. كل شىء غير إنسانى، بذئ وعــادى. عنــدما ينــزل

الزجاج يشعر ببخار رطب موبوء بالقمامة وفضلات كيميائية. يحل حزام الأمان فيشعر بالراحة؛ فيستطيع التصرف أمام أى خطر مهدد.

"الحمد لله أن الدويبة هادئة اليوم." هكذا فكر مسليًا نفسه. إن المرض الذى ينهشه يسميه دويبة، وهو اسم أنثى ابن مقرض أهداها إياه أمبروزيو بعد الحرب : لم يكن قط فى القرية أحسن منها. "تحترمييننى، آه، أيتها الدويبة. تفهمين أن المجئ إلى ميلانو صعب جدًّا فى حد ذاته. بالنسبة إليك أيضًا ؟ أعرف ذلك. لو لم يكن الأمر كما هو، لبقينا معًا هناك فى الجنوب، فى أرضنا. تأكدى من ذلك أتذكرين (؟؟؟؟؟؟) الحنون الجيد لصائد الأرانب تلك والأنياب الشرسة التى تحته؟ قتلها كلب كانتانوتى." هذه الذكرى جعلت الشيخ يبتسم؛ لأنه، انتقامًا لذلك، قطع ذنب الكلب واجترع الآخر الإهانة. وإضافة إلى هذا، فإنه، بعد قليل، فض بكارة كونتشيتا ابنة أخى الخصم.

تضيق البيوت عليهما الآن من كل جانب. جدران من كل الجهات، إلا جهة الأمام؛ وذلك لاصطياد السيارة أكثر فأكثر نحو أعماق الفخ. تصر أنوار المرور على تنظيم حركة تكاد تكون منعدمة فى تلك الساعة، والإعلانات المضاءة بإشارات. ومن حين إلى آخر، هناك مفاجآت مقلقة: صوت صاخب لجرس لا يفزع أحدًا، دوى مفاجئ لقطار مار فوق الجسر الحديدى الذى يسيران تحته، خوار ورائحة روث لا معنى لوجودهما فى قلب مدينة.

– المجزرة – هكذا يوضح الابن مشيرًا إلى الأسوجة على اليمين – هناك نبتاع الأحشاء للمصنع.

"إذن هو فخ للحيوانات أيضًا".

يدخلان شارعًا. "ترى ما هذه الشعلة والنساء اللاتى يتحركن حول لهبها كالساحرات فى القفر ؟"

أوقفتهما إشارة المرور بنورها الأحمر إلى جانب إحدى النساء تحديدًا. تدنو هذه من السيارة، وتفتح جمازتها، وتعرض نهديها عاريين ويصيح فمها المطلى :

– أتتشجعان يا فتيان ؟ عندى ما يكفى الاثنان.. يتغير نور الملوح إلى الأخضر فتنطلق السيارة.

– يهمس الابن كما لو كان هو المذنب : يا للخجل!

– أما الشيخ فهو يفكر مسرورًا : كنهدين أراهما ثنائيًّا حسنًا.. إنهم الآن يضعون طعمًا أحسن فى الفخ.

– تواصل المتاهة الإطباق عليهما. أخيرًا يفرمل الابن، ويوقف السيارة بين أخريات نائمات جنب الرصيف.. ينزلان.. يقرأ الشيخ بتعجب لافتة فى الركن: شارع بيافى.

– هنا ؟ يعلق : لا أذكر شيئًا

- يشرح الابن وهو يفتح حامل الأمتعة : إن المنزل الآخر أصبح صغيرًا بعد ولادة الطفل، وهذا حى أرقى. فإن استطعنا تسديد ثمن شقة فيه ؛ فذلك لأن نوافذها تطل على الخلف، على شارع نينيو بكسيو. إن أندرييا مسرورة.

- "الطفل طبعًا!" يفكر الشيخ معاتبًا نفسه لعدم تذكره. لكن بموت زوجته وبعده مرضه الخاص، فقد شغلت عقله أشياء كثيرة.

- يعبران بهوًا به مقاعد ومرآة، ويتوقفان عند المصعد الذى لا يعجب الشيخ ركوبه، لكنه عدل عن الصعود راجلاً؛ إذ يعرف أنها ثمانية أدوار : "سيصلح ذلك من حال الدويبة".

عندما يصلان إلى أعلى، يفتح الابن الباب بتؤدة ويشعل نورا هادئًا موصيًا الشيخ بالصمت ؛ لأن الطفل نائم. يظهر طيف فى الممر.

- ريناتو ؟

- نعم يا عزيزتى. نحن هنا.

يعرف الشيخ أنها أندرييا : فمها النحيف الجدى بين الوجنتين البارزتين تحت النظرة الشهباء. لكن ألم تكن تحمل نظارات ؟

- أهلاً بك فى بيتك يا أبى.

- أهلاً يا أندرييا.

يعانقها فتلمس تلك الشفاه خده. نعم هى. لا يزال يذكر العظام في ظهرها، ويذكر صدرها الأملس." وما تزال تناديني: أبى على طريقة النبلاء الكريهة!" هكذا يفكر الشيخ مستاء. لا يخطر بباله المجهود الذى بذلته للتفوه بعبارة الترحيب المقدسة.. لقد ألح عليها في ذلك ريناتو.. وهى لا تنسى الأسبوعيْن القاسييْن اللذين قضتهما وهى عروس في كالابريا المتوحشة؛ حيث كانوا يحللونها جميعًا كالحشرة تحت المجهر. فقد بلغت الجرأة بالنساء أيضًا حَدَّ الدخول إلى الفناء بعلل مفتعلة؛ كى يَرَيْن لباس "بنت ميلانو" الداخلى الرقيق منشورًا ليجف.

– كيف تأخرتما هكذا ؟

– يعرف الشيخ أيضًا هذه اللهجة القاطعة. يتهم ريناتو الضباب، ولكن أندرييا لم تعد تسمعه. تبتعد عبر الممر متأكدة أنهما يتبعانها. تشعل النور، وتفسح المجال للشيخ لدخول غرفته، دالةً ريناتو إلى الخزانة الحائطية؛ حيث تحفظ ملاءات الأريكة – السرير.

– لم أجد وقتًا لإعداد الفراش، فالطفل تأخر كثيرًا في نومه... اعذرنى يا أبى؛ فغدًا سأعطى درسى في الحصة الأولى... ليلة سعيدة.

يجيب الشيخ وتنسحب أندرييا، بينما يفتح ريناتو الخزانة. يطوف الشيخ فى هذه الزنزانة بنظره. ستائر صغيرة تحجب النافذة :

منضدة صغيرة عليها مصباح، ومطبوعة غير واضحة بها شىء كالعصافير، وكرسى...

لاشىء يقوله فى كل هذا، ولكنه لا يندهش

يفكر أنه ضم كتفيه ويقول لنفسه : بما أنى لست هناك فى الجنوب، فما الذى يهم ؟

(٣)

يستعصى فتح الأريكة - السرير. الابن يجاهد، والأب لا يعرف كيف يساعده، ولا يريد كذلك أية علاقة بمثل هذه الآلة المختلفة تمامًا عن سريره القديم. سرير الحياة كلها من يوم زواجه : مرتفع، مصمت، مهيمن على غرفة النوم، كأنه جبل قمته أعلى رأس السرير المصنوع من خشب القسطل المصقول، ومروجه النضائد الوثيرة، اثنتان من صوف فوق واحدة محشوة هلبًا، كما فى كل بيت عصرى مجهز... مستدير، حاسم، يصلح للذة وللولادة والاستراحة والموت !... يستحضر أيضًا مضاجع أخرى من حياته المضطربة : حظائر رعوية شيدت على أرض صلدة، مملوءة بالتبن، ألقت الجاف فى جوال التبن، الأعشاب المطروحة فوق الصخر داخل الكهوف لما كان مقاومًا، نضائد القرويين المحشوة بتبن الذرة الذى يخشخش كالجلاجل تحت الطرب الغرامى... عالم كامل أجنبى عن آلة هذه الزنزانة، آلة هجينة ذات نوابض قابعة كفخ الذئبان. وأخيرًا يستسلم

الجهاز، وتنفتح قطعة الأثاث هذه دفعة واحدة تقريبًا، يفرش الابن الملاءات ويضع دثارًا واحدًا، ويتذكر بأن بالمنزل تدفئة. الأمر متساوٍ بالنسبة إلى الشيخ؛ فقد جلب معه دثاره الأبدى الذى تآكل باستعماله نصف قرن. إن تركه ممكن؛ فهو جلده الثانى.لقد حماه من الأمطار وعواصف الثلج، كدح معه فى أبهى ساعات حياته وأبشعها، حتى أنه وسم بثقب رصاصة، وسيكون كفنه.

هل تحتاج إلى شيء آخر ؟ يسأله ريناتو فى النهاية.

أحتاج، أحتاج.. لكل شيء وللاشيء ! بالإضافة إلى كل ما يراه، ومع هذا، فقد يبتغى أشياء كثيرة ! يشتهى، أكثر من كل شيء، جرعة نبيذ طويلة، طويلة، لكن من النبيذ الأحمر، من هناك فى الجنوب، نبيذ قوى حامض يصلح لحناجر الرجال، نبيذ ميلانو سيكون كيمياء خالصة... بماذا يستطيع إزالة هذا الطعم السيئ الذى بفمه؟ بشيء يكون حقيقة... وتقفز له فكرة :

– هل عندك فاكهة ؟

– إجاصات جيدة، من يوغسلافيا.

يخرج الابن ويعود حالاً بإجاصتين جميلتيْن وسكين فى طبق يضعه فوق المنضدة الصغيرة، ثم يجعل أباه يطل على الممر؛ كى يرى باب المطبخ. فى الثلاجة تجد كل شيء، وباب الحمام أبعد منه.

- حاول عدم الإكثار من الضجيج عند الاغتسال، بينما الطفل نائم؛ لأن غرفته ملاصقة... ستراه يا سيدى غدًا أليس كذلك ؟ لا نوقظه الآن.. إنه جميل هكذا ! يشبهك يا سيدى.

- نعم، من الأحسن غدًا. يجيب الشيخ مستاء من هذه الملاحظة الأخيرة التى تبدو إطراء. "ترهات ! حديثو الولادة لا يشبهون أحدًا. فهم ليسوا إلا أطفالاً. لا شىء، سوى حزمة تبكى.

- ليلة سعيدة يا أبى، ومرحبًا بك.

يبقى الشيخ وحده، وحركته الأولى هى فتح الستائر : إنه يكره كل قطعة للزينة. يرى من خلال الزجاج فناء ويرى أمامه جدارًا آخر بنوافذ مغلقة. يفتح ويطل. ينظر إلى أعلى إلى هذه التى تسمى فى ميلانو سماء ليلية : إنها مظلة منخفضة من الضباب، ودخان يعكس ضوء الشوارع البنفسجى الصادر عن مصابيح ونيون. إلى الأسفل بئر سوداء تصدر منها رائحة طعام بارد. ثياب مبللة، مواسير، روائح زيت الوقود...

يغلق النافذة فيشعر أن فتحها كان شيئًا متأصلاً من أيام الحرب : التثبت من أن الفتحة قد تصلح للفرار، فكانت النتيجة سلبية. "كذلك كان الأمر مع الجستابو فى ريمينى... تلك الأيام على حافة الجدار الكبير، حتى نجحت فى خداعهم فأطلقوا سراحى... بفضل تحمل "بترونى " "التعذيب من دون أن يفوه ولو بكلمة. مسكين بترونى."

الإجاصتان فوق المنضدة الصغيرة : لا يوجد من هذا شـــيء في سجن ريميني. يتناول واحدة ويخرج موساه متجـــاهلاً. الـــسكين. يشرع في تقشيرها. "رائحتها ليست رديئة ! " يذوق قطعـــة : بـــاردة كالثلج ولا طعم لها، هذه الإجاصة الرائعة المظهر. "تقتلهـــا البيـــوت المثلجة". يقشر الثانية من دون أن يذوقها، ليرى ريناتو القشور غـــدًا ليس إلا. بعد ذلك يفتح النافذة، ويرمى بالفاكهة إلى البئر؛ فيصل من الأسفل صوت ضربتين على سقف معدنى.

"لا يصدق أحد أنها يوغسلافية !" هكذا يفكر وهو يغلق النافذة؛ لأن اسم البلاد حَرَّك ذكرى "دونكا! كان جسمها حقًّـــا مثـــل فاكهـــة، عذبًا" ولم يكن قط باردًا جلدها الدافئ، فهي ساخنة دائمًا، حية، رفيقة النضال والمتعة... آه يا دونكا، دونكا ! تبخرت صورتها في المـــدة الأخيرة، ولكنها ساكنة قلب الشيخ دومًا، محركة إياه كلما عادت إلـــى الظهور من الماضى...

يلامس الشيخ، ككل ليلة وهو يخلع ثيابه، الصرة المعلقة فـــى عنقه وبها تمائمه ضد العين. يدخل الفـــراش بعـــد أن طـــرح عليـــه دثائره. يطفئ النور وينظم طي الدثار؛ كي يطوق به عنقه كما فـــى أكياس النوم.

"أنا أيضًا حي يا دونكا. حي." وهو يتمطقها. وتضاف ذكـــرى أخرى جديدة إلى ذكرى المرأة. "حي حقًّـــا مثـــل تمثـــال الـــزوجين

بالمتحف، هذا الصباح.. فكرة عظيمة هذا القبر من الطين المطبوخ جدًّا بدل الخشب الذى يتآكل.. الديمومة كالزيت فى الدنانِ..."

تجزر صورة دونكا فى بحره الداخلى :

"فوق ديوان، لا، لكن فوق السرير. نعم تعشينا كذينك الزوجين، أنا وهى، بلا نور غير نور القمر بسبب الطائرات وجولات الجستابو.. القمر ينزلق فوق البحر كدرب مستقيم فى اتجاهنا... ما الفائدة من نور أكثر من هذا ؟ يكفى تلامسنا وتقبيلنا.. ! كم تبادلنا القبل يا دونكا، وكم قبلنا !"

وما زال سعيدًا بالذكرى عندما عانقه النوم.

(٤)

يصحو الشيخ كالعادة قبل طلوع النهار. هناك ينهض مسرعًا ليقوم بجولته الصباحية : يطأ الأرض التى ما تزال مشبعة برطوبة الليل، يتنفس هواء حديث الولادة، ينظر إلى الفجر وهو يعم السماء، يستمع إلى الطيور... هناك؟ نعم، لكن هنا...

فى هذه الساعة تنهض روزتا.. بكت كثيرًا أمس وهى تودع أباها، لكن لعل زوجها قليل الحياء قد تركها. يا له من رجل منقاد نينو هذا ! وهو أكثر غشًّا من الذهب الغجرى. ما الذى قد تراه فيه ابنتى حتى تهيم به كالغبية؟ النساء، النساء ! من حسن الحظ أنهما لم

ينجبا. وإلا لجعلا أبناءهما أشقياء لقد أنجبت لى قليلاً زوجتــى روزا، لم تكن ولاَّدة؛ لأنها من جنس الأثرياء. إجهاض، نعم، كل سنة، لكن المحصول ثلاثة فقط، وفرنشيسكو لا يصلح لشىء، يعيش هناك فــى نيويورك. ليس لى سوى هذا الابن ريناتو. وهــذا الــصغير، كيــف سيسمى ؟ لقد أرسلوا ببطاقة العمادة طبعًا، لكن لم أكن أنــا لأتــذكر، وأنا غارق فى خضم قضية "صوتو غراندى" ضد كانتانوتى... مــن المؤكد أن اسمه ماورتسيو أو جان كارلو أو ما شاكل ذلك من أسماء، اسم من أسماء السادة، حسب ذوق أندرييا.. حسن فهى فــى الأقــل، استطاعت إعطائى حفيدًا بينما نينو.."

وصل إليه من الممر بكاء طفل، كما لو أن أفكــاره أثارتــه. لا يبدو عليه الغضب ولا النواح، بل هو بكاء موقع هادئ. ويفكر الشيخ:

هو تأكيد لوجود "يعجبنى. هكذا أبكى أنا لو بكيت يومًا." وهذه الخطى ؟ أندرييا.. ؟ لا، صوت آخر يترنم، هو ريناتو.. يا للعجب ! كل الشيوخ أصيبوا بالصمم، أما أنا فيستدق سمعى، أصــلح الآن أن أكون ربيئا أكثر مما كنته وأنا طليعة فى الفرقة... ريناتو حاضن، يا للحياء فى ميلانو هذه ليس للرجال ما يجب أن يكون لهم، وأنــدرييا صيرته لى ميلانيًّا"

تهدئه الدويبة متحركة فى جوفه. "أنت محقة يا روسكا، فكــل شىء سواء... أنت جائعة، نعم، صبرًا ! كم كانــت تخــز روســكا الأخرى بأسنانها فى جسم الفقيدة ! لما يعود ريناتو إلــى مــضجعه؛ فسأذهب لأحضر طعامًا لكلينا. لعل الطفل يبكــى مــن الجــوع، ألا

تستطيع أندريا النهوض وإعطاءه ما هو له. بالرضاعة الزجاجية طبعًا، فهذه المرأة ليس لها شيء آخر."

ينقطع البكاء ويسمع ريناتو عائدًا إلى فراشه. ينهض الشيخ ويرتدى سرواله ويذهب إلى المطبخ. لا يشعل النور؛ كي لا يفضح نفسه، فيكفيه نور الشارع المنتشر. يفتح الخزانة : في مستودعه بالقرية تهاجمه هبة من الروائح : بصل وزيت وثوم. هنا لا رائحة. كلها قوارير وعلب وصناديق بملصقات ملونة، بعضها بالإنجليزية. يتناول طردًا يعد عنوانه بأنه أرز ظهرت في داخله حبوب جوفاء نصف محمصة ومسلوقة. الجبن في الثلاجة قطعة مصفرة، طرية وبلا طعم تقريبًا. فمن حسن الحظ أنه يستطيع أن يخلطه ببعض من بصلة وجدها في صندوق من البلاستيك محكم السد..! النبيذ توسكاني وفوق هذا فهو مثلج... ومن نوع الخبز، خبز مصنع : "بانيتو"... آه لو استطاع أن يضع يده على رغيف حقيقي، من مخبز ماريو ! يا له من حساء لبن!... وهذا الأسود في الأسطوانة الشفافة لهذه الآلة هو من دون شك قهوة، لكن كيف العمل لتسخينها ؟ نفير مفاجئ : منبه في غرفة النوم. يتحرك المنزل ويظهر ريناتو قائلاً بصوت خافت: "صباح الخير". يشغل آلة القهوة ويخرج آلة أخرى من الخزانة، يواصلها بالكهرباء ويضع قطعتين مربعتين من البانيتو. يهرب إلى الحمام فيسمع جريان الماء. تظهر أندريا وتصرخ في غير اعتدال :

– لكن، أبتاه ! ماذا تفعل عندما تستيقظ هكذا مبكرًا؟

– تقدم من دون انتظار الجواب، وتصطدم فى الممر بزوجها وقد همس كل منهما للآخر ببعض الكلمات. تتضاعف الأصوات : مبادل مفتوحة، خرير فى البالوعات، ضجيج آلة الحلاقة، مضخة الحمام... ثم الزوجان فى المطبخ وقد ضايق كلاهما الآخر وهما يحضران فطورهما. يقبل الشيخ فنجانًا من القهوة المائية ويذهب إلى الحمام ليغتسل بسرعة. بعد قليل يدخل ريناتو.

– يا أبى، إن لنا ماء ساخنًا للبيت كله !

– لا أريد ماء ساخنًا، إنه لا ينعش.

يعدل عن إفهام ابنه أن الماء البارد يذكره بجداول الجبل، وعن رائحة شعلة حديثة الإيقاد ورؤيا ماعز تأكل أطراف النجم التى ما تزال بيضاء بالجليد. فى هذه الأثناء، ينتقل الابنان جيئة وذهابًا، بين المضجع والمطبخ، ويرتديان ملابسهما وهما يعضان على الخبز المحمص الذى خرج من الآلة.

– تعال لترى الطفل يا أبى؛ فسنغير له قماطه، وتعطيه طعامه.

"أتدر حلمات أندريا حليبًا؟ "يتعجب الشيخ إذ لم يرهما يحضران الرضاعة فيفكر : "أتدر حلمات أندريا حليبًا ؟ "

يمضى خلف ريناتو وهو فى حيرة واضطراب إلى غرفة النوم الصغيرة؛ حيث أندرييا بصدد إنهاء تغيير ثياب الصغيرة فوق منضدة عليها فراش وثير.

يبقى الشيخ مذهولاً.. مشلولاً من المفاجأة.. لا أثـر لحـديث الولادة، بل هو طفل قادر بعدُ على الجلوس. طفـل حـائر بـدوره لظهور هذا الرجل. يرفض ملعقة الحساء التى تقدمها له الأم، ويسمر فى الشيخ عينيْه المستديرتين السوداويْن. ويطلـق همهمـة خفيفـة، ويصارع بيديه برهة، وأخيرًا يتفضل بفتح فمه للأكل. ويصيح الشيخ أخيرًا :

ما أكبره !

أليس كذلك يا أبى ؟ "وتفتخر الأم، وليس له إلا ثلاثـة عـشر شهرًا.

– يفكر الشيخ من دون أن يُفيق من المفاجأة." ثلاثـة عـشر شهرًا... حفيدى، دمى هنا، فجأة.. كيف لم أعلم ذلك قبـل الآن ؟... إنه جميل، أعتقد ذلك!.. لماذا ينظر إلىَّ بهذه الجدية، لمـاذا يحـرك يديه ؟ ماذا يريد أن يقول لـى ؟.. هكـذا كـان أولادى رينـاتو و الآخرون ؟.. هو الآن يبتسم : يا لوجه قليل حياء!"

– انظر إلى جدك يا برونانيينو، لقد جاء ليتعرف عليك.

– بروناتينو ؟ يصرخ الشيخ وقد فاجأته الدهشة، فيرفـع يـده نحو صرة تمائمه فى عنقه؛ إذ هى التفسير الوحيد للمعجزة.. لمـاذا سميتماه بروناتينو، لماذا ؟

ينظر إليه فى تعجب، بينما يطلق الطفل ضحكة. يسئ رينـاتو تأويل ذلك فيعتذر :

– المعذرة يا أبى. أعرف أن المولود الأول يسمى باسم جـده، وأردت تسميته سالفاتورى مثلك يا سيدى، لكن خطرت فكرة لأندرييا تحمس لها العراب، زميلى رنزو؛ لأن برونو أحزم وأكثر جديـة... المعذرة، أنا متأسف.

– يقاطعه الشيخ ويقول باندفاع وصوته مختنق :

– أى أسف وأى عفو؟! فأنا الآن متمتع، لقد سميتماه باسمى !

تلحظه أندرييا مذهولة !

كان عليك أن تعرف ذلك يا ريناتو، فالمقاومون كانو ينادوننى بـ "برونو". ألم يقصه عليك أمبروزيو مرات كثيرة ؟

– نعم، لكن اسمك سالفاتورى.

– ترهات ! فسالفاتورى قد أسمانى به أيًا كان. أما برونو فقد صنعته أنا لنفسى، فهو لى... بروناتينو ! يختم الشيخ هامسًا متمطقًـا التصغير، ومفكرًا فى قوة نجمه السعيد التى ألهمت قرار أندرييا. قـد

يبدو له الطفل الآن، وهو ينظر بعينيه الماكرتين، كما لو أنه يفهم كل شيء. ولم لا ؟ إن كل شيء ممكن؛ إذا ما نفخت فيه ريح الحظ الطيبة !يضع اصبعه بخجل على خد الطفل. لا يذكر أبدًا أنه لمس بشرة طفل فى هذا العمر إن كل ما يتذكره أنه قدَّم أبناءه لأصدقائه فى بعض المرات على عجل.قبضة اليد خفيفة، لكنها أشبه شيء بفرخ النسر فى العش، إذ يقبض على الأصبع الخشن، ويدنو به صوب فمه. يبتسم الشيخ متلذذًا :

– يا لقوة هذا الصعلوك !" يذهله اكتشاف أن للطفل عضلات وأعصابًا. إنها مفاجآت هذه الدنيا؟

صار إصبعه طليقًا والطفل متعلق بالشيخ، يتحاشى اللعقات.

– هيا يا كنزى، زد قليلاً – تطلب الأم ناظرة إلى ساعتها – من أجل جديدك.

اليوم صباح الاندهاش، فأندريا تتحدث بلهجة محببة ! لكن الطفل يُميل رأسه بقوة، وفجأةَ يتقيأ شيئًا أبيض. يقول الشيخ مذعورًا :

– هل هو مريض؟

– يا أبى من فضلك..يضحك ريناتو – إنها غازات تملأ بطنه، وترجُم معدته، ألا ترى؟ ها هو. يستأنف الأكل. كأنك لم ترزق أبناء يا سيدى!

"لا لم أرزقهم – يفهم الشيخ مكتشفًا أنه لم يعش قط ما يحياه الآن فنحن الرجال فى القرية، ليس لنا أبناء لكننا نتباهى بالأطفال لحظة تعميدهم فقط، خاصة إذا كانوا ذكورًا، لكنهم يصبحون مسئولية النساء بعد ذلك، ولا نراهم إلا عند حبوهم فى البيت، ثم يؤكدون وجودهم عندما يأخذون الحمال بالرسن ليسقوه ماء؛ إذا رموّا العلف فى الحظيرة للدجاج، وتغمرنا محبتهم إذا لم يخامرهم الخوف من الحمار والديك... والبنات أسوأ من ذلك، لا يولدن لأحد حتى يشرعن فى الانحراف كل شهر؛ الأمر الذى يتعين معه السهر بمائة عين؛ كى يحافظ على شرفهن... إذن أنت أول ابن يابروناتينو، الكل متوقف عليك، حتى والداك نسيا سرعتهما.."

– أتريد أن تأخذه ؟

– هكذا ؟ فجأة ؟

– قبل أن يستطيع الشيخ إعداد نفسه، كان الطفل بين ذراعيه حملاً خفيفًا، ولكنه صعب الحمل. "مادونا (يا إلهى) كيف يحمل هذا ؟"

– ارفعه أكثر، هكذا (يجهزان له الطفل) أفْرِغ ذراعيك يا رجل ! (يشعر أنه أخرق جدًّا)... الرأس الصغير على كتفك.. (كما

فى الرقص، يلتحمان كخد إلى خد.) هكذا سيخرج الغـــازات، وهــذه المنشفة فوق صدرك كى لا يلوثك.. بلا بكاء يا كنزى. نعم، وجــدك وهو يحبك كثيرًا... تحرك إلى الأمام وإلى الخلف يا أبى.. نعم، هكذا أرأيت كيف سكت ؟ يتأرجح الشيخ فى حذر. أندرييا غابت. رينـــاتو يذهب. عاد إليهما إيقاعهما السريع والشيخ يشعر بنفسه حائرًا كما لم يَحرْ قط، ويتساءل عن العاطفة التى تمتلكه.. من حسن الحــظ أن لا أحد يراه من أهل القرية فلا يستطيعون السخرية منه، لكن ماذا يفعل رجل وحده فى مثل هذه الحالات ؟ يقرب خده من خد الطفــل، لكــن يبعد هذا الأخير خده، وكفت هذه الملامسة للتعرف على بشرة ألــين من بشرة المرأة. وهذا العبير الذى لا يوصف والذى يغمر الشيخ :

– لدن، لبنى، فاتر وبه قليل من الحامض الحلو مــن اختمــار حيوى، كما تفوح المعاصر عن بعد ! رائحة خفيفة، حلوة، ومع هــذا فهى مسكرة تأخذ بجماع النفس.

يفاجئ الشيخ نفسه ضامًّا إلى صدره هــذا الجــسم الــصغير الساخن والخائف، فيرخى ذراعه ؛ خوفًا من خنقه، ليعود إلى ضــمه ثانيةً كى لا يسقط منه... هذا الحمل لا يرتعش، لكنه ثقيــل كالطفــل عيسى فوق القديس كرستوبال، أحد القديسين القلائل الذين يعجبــون الشيخ؛ لأنه كان كبيرًا وقويًّا ويعبر الأنهار.

يركل الطفل بطن الجد ركلة مباغتة، باعثًا فيه ذهولاً خرافيًا؛ إثر ركلة فى مكان عضلة الدويبة. أيفهم الطفل هذا أيضًا ؟ يدير رأسه بسرعة؛ كى يتفحص الوجه الصغير، إلى ملامسة خد الطفل، مثيرًا أنين احتجاج يسهم فى تكدير صفوه.

إنه خدك يا سيدى. هكذا يقول صوت مجهول، بينما تريحه يدان من الثقل الطرى. أنا أنونسياتا المساعدة المنزلية. إن السيد والسيدة قد ذهبا الآن.

تريح المرأة بمهارة الطفل فى مهده.

– يداعبه النوم، سينام حالاً... وبإذنك، سأواصل التنظيف.

– شىء فاجأ الشيخ... هذا هو ! كيف لم يهتد إليه من قبل ؟

– أينام الطفل هنا ؟ وأمام الإنعام الصامت يلح فى أثناء الليل أيضًا... لكن – ينفجر حانقًا – ألا ينام هؤلاء الأطفال الصغار مع والديهم هنا فى ميلانو ؟ من يعتنى بهم إذن ؟

– هكذا كان الأمر سابقًا، لما حاضنة. الآن لا يأمر الأطباء بتركهم ينامون وحدهم.

– يا للوحشية ! وإذا بكوا، أو أصابهم مكروه ؟

– فى هذا العمر، لا ! اسمع، لا أحد يحسن العناية بالطفل خيرًا من السيدة أندريا. فهى تقيسه، تزنه، تأخذه إلى أحسن طبيب.. ولها كتاب مملوء بالصور يشرح كل شىء !

"كتاب؟ يفكر الشيخ باحتقار، بينما تخرج المرأة من الغرفة – إذا كان الأمر يحتاج إلى الكتب، فكيف تكون قد ربت أولادهن كل الأمهات الأميات؟ واضح: لهذا يربينهم أحسن، ولا يرمين بهم بعيدًا قبل الأوان !

تملؤه الآن شفقة الوجه الصغير النائم، ويده الصغيرة متشبثة بطرف المفرش بحركات اضطراب فجائية... "هكذا يتركانه أعزل فاقد الحماية !"

يمرر يده على خده، إنه فعلاً يخدش.

"المسكين يترك وحده طول الليل ! إنه لا يتكلم بعد!... ولا يسمعه أحد إذا بكى، وماذا لو أصابه مغص وليس معه أحد، أو اختنق بالملاءة ؟ وإذا ما عضه جرذ أو حية، كما وقع مع أكبر أبناء بيكوليتى؟ حسنًا، هنا لا توجد الأفاعى؛ فهن لا يحتملن ميلانو، لكن تحدث أشياء كثيرة..! ساحرات، قد يكون هذا المكان ضاجًا بهن، أو ضائقًا بوجودهن. مسكين هذا البرئ المهمل !"

يسمر عينيه فى هذا اللغز الراقد فى هدوء. كل هذه السنين، وثلاثة أبناء فى المنزل و يعلم الله، كم منهم فى أعشاش أجنبية، والآن فقط يولد له أول طفل... ما الذى سيحدث الآن ؟

يفتح فجأة برونانتينو أجفانه، ويرمى بنظرة حادة جــدًا." أهــو قارئ لأفكارى ؟ هذه نزهة ولكن هذا الطفل..." إن الكرتين الدكناويْن تخجلان الشيخ؛ فيتقلص كأنه تحت إصبع القدر. ثم تنغلــق الأجفــان رويدًا، بينما تشرق ابتسامة على الفم الصغير. إن الطفل وقــد أمــن نفسه لدى هذا الرجل، راح يستسلم فى النهاية لنوم هادئ.

يتنفس الشيخ عميقًا. يستعيد يقظته من أن أنــدرييا لــم تكــن تعرف شيئًا، ومع هذا، ومن بين أسماء كثيرة، اختارت هذا الاسم... يهمس :

- إذن اسمك برونانتينو، وستصبح برونو.

(٥)

فى اليوم الموالى يرمى الشيخ بنفسه إلى الشارع.

- أتعرف كيف تعود يا أبى ؟ تذكر ٨٢، شارع بيافى.

لا يهتم بالإجابة. أتحسبه ريفيًّا ؟ تضيع هى قبلى فى الجبل !

يصل إلى نهاية الشارع. ميدان كبير به حركة مرور شــديدة. من الجانب الآخر حدائق. من هناك لا يجد ما يبحــث عنــه. يعــود أدراجه متنقلاً فى شوارع أصغر وواعدة. عاد الرعاة إليــه، لافتاتــه تحصره فى الجزئيات. نوافذ واسعة، أبوا، لافتات. كى يتذكر الطريق

الذى مر منه؛ لأن الشمس فى ميلانو لا تشرق طويلاً فتهدى النـــاس. يجد أخيرًا حلاقًا فى شارع صغير، شارع روسينى. اسم يبشر بخير. لقد أعطت طريقته نتيجتها.

نعم، نعم، بشارة خير، بل بالعكس تمامًا. هــا هى فخامة التجهيزات تضعه فى حذر، وتجعله متشائمًا من كثرة الكــلام الأنيــق الفــارغ، عندما عرضت عليه مواد التجميل، وعلى الرغم من رفضه لها كلها. فعند نهاية الخدمة طلب منه ستة آلاف ليرة لمجرد الحلاقة.

ستة آلاف ليرة، ومن دون ثبات يدى آلدو فى روكاسيرا، الذى يمرر لك أيضًا حجر الشبة بربع القيمة، ويترك لك وجهًا كاليــشب(١) كل أربعاء وكل سبت.

– ها هى خمسة آلاف وزيادة – يقولها بلهجة جافــة طارحًــا الورقة المالية على منضدة المراهم – لا أنتظر الباقى؛ كى لا أبقــى ولا دقيقة أخرى بين لصوص. ليت الأمر كان بين الشياطين، فهناك، فى الأقل، من يقامر بالحياة!... هل من مطالب ؟

– اسمع أيها السيد.. يشرع العريف، ولكنه يسكت عندما يرى الشيخ يدخل يده فى جيبه بحركة حازمة.

---

(١) حجر كريم، مختلف الألوان.

- دعه يا عريف... يهمس شاب متأنق يرتدى طيلساناً أخضر. يسود صمت طويل حول الشيخ الجامد، وهو محط نظرات تصطدم به فترتد. أخيرًا يخرج ببطء، ويتجه نحو منزله.

- يشترى فى طريقه آلة حلاقة بسيطة. عرض عليه ريناتو آلة حلاقة الكهربائية، ولكنه يعرف أن هناك من صعق بهذه الآلة فى غرفة الحمام. ثم إن آلته هذه لا تصدر صوتاً، وهو يريد أن يحلق ذقنه يوميًّا من دون أن يوقظ أحدًا.

يا له من إخفاق فى دكان الحلاقة ! واضح ! فاليوم قد بدأ سيئًا.

كان الشيخ منفردًا بريناتو وهما يتناولان الفطور، وكانت أندريا تستحم فسأله : لماذا لا ينام الطفل معهما، كما ينام الأطفال دائمًا ؟ يبتسم ريناتو متلطفاً:

- الآن يشرع فى تربيتهم مبكرًا. يجب أن يناموا وحدهم عندما يبلغون هذا العمر يا أبى؛ كى لا تتكون لهم مركبات.

- مركبات ؟ وما هذا ؟ شيء معد من الكبار ؟

- يحتفظ ريناتو فى شفقة بجديته، ويشرح بكلمات بسيطة، تمشى مع عقلية الريفيين. الخلاصة هى وجوب النأى عن وصاية الوالديْن.

ينظر الشيخ مركز النظر

لمن تبعيتهم إذن؟ فهو لا يمـشى بعُـد، ولا يـتكلم، ولا يستطيع القيام بنفسه.

للأبوين طبعًا، لكن من دون مغالاة.. هيا لا تشغل بالك يا أبى. الطفل معنى به كما يجب، لقد درسنا الأمر جيدًا أنا وأندرييا.

– نعم، فى ذلك الكتاب طبعًا.

– وهو كذلك، وفوق هذا فالطبيب يوجهنا.. هكذا الأمـور يـا أبى، يجب عدم إثارة الكثير من العطف فى هذا العمر.

يسكت الشيخ. نصف عطـف ؟ وأى عطـف يكـون هـذا ؟ مراقب، متحفظ ؟ لا ينفجر؛ لأنه يرى أنهما على الرغم مـن شـىء الأبوان. ولكن هكذا بدأ هذا اليوم سيئًا، فجعله غاضبًا طوال صباحه، ولو أنه أفرج عن نفسه طبعًا إزاء السرقة فى دكان الحلاقـة. لكـن ومن حسن الحظ، فقد صالح محل آخر بينه وبين الحـى. إنـه فـى شارع سالفينى، شويرع آخر تجذبه إليه لافتة دكان بقـال متواضـع، دخلته امرأة ينم مظهرها عن ذكائها فى الشراء. كل شىء ينبىء بأنه محل كما يجب.

فعلاً، فما إن دخل حتى غمرته روائح البلاد : ألوان من الجبن الرائع، زيتون فى جرار، أعشاب وأفاويه، فواكه عارية بـلا أغلفـة شفافة ولا عناوين ولا ورق مقوى مُعد جيدًا كى يطفف الميـزان...

وكما لو لم يكن هذا كافيًا، فامرأة، ويالها من امـــرأة وراء واجهـــات السلع، يا لها من امرأة !

فى الأربعين. أنضج عمر.. طرية كتفاحاتها. تعتذر لزبائنهـــا الواصلين للتو، أمينة من دون شك، وتبتسم للمشترى الجديد بعينـــين متقدتيْن بالذكاء أكثر مما تفعله بفمها الشره.

– ماذا يريد السيد ؟

– وصوتها ؟ أعجوبة حقًّا لمهرة جيدة.

– أريد ؟ كل شيء يبتسم بدوره مشيرًا حوله.

– لأن المتجر كنز : به كل ما يبحث عنه وأكثر بكثير. ما لم تره واجهات عرض أخرى. فيه حتى الخبـــز الحقيقـــى : مـــستدير، عصى، حلقات وحتى الخاص الذى يمـــلأ بمقلـــى مـــرق الطمـــاطم المتقاطر والذى يفيض عند عض الخبز. كمـــا يقـــول المثـــل فـــى كاتنزارو: بالمورزدهو تأكل وتشرب وتغسل وجهك".[1]

---

(١) المورزدهو أكلة شعبية مكونة من لحم بقر وبصل وفلفل لاذع وجبن غنم مطحون.

إن العبارات الكالابرية فى قصتى مأخوذة من كتاب catanzaro dăltiri tempi الذى يسرنى أن أعبر لمؤلفه Dominico pitelli عن شكرى عنها وعن متعتى كأحد قرائه. فالكتاب يحتفظ فى صفحاته لا بأريج مدينة نبيله، بعادتها حية ؛ فلتمنح آلهة كالابريا القدامى جزيل الثواب للسيد "بيتالى"

تخرج السيدة من وراء واجهات السلع لتخدمه. ردفان حسنان بلا سمنة. ربلات متناسقة، لكن الكعب نحيف. وهذه اللهجة المؤثرة التى تدفعه إلى السؤال :

– أنت يا سيدتى من الجنوب، أليس كذلك ؟

– مثلك أنت يا سيدى ومن تارنتو.

– طيب، أنا من ناحية كاتنزارو، من روكاسيرا فى الجبل.

– تساوى الأمر ! تضحك. أبوليا وكالابريا ؟ مثل هذا وهذا.

تجمع، بحركة تعبيرية، بين سبابتيها وهى تغمز. هذه الحركة التى تجمع بين منطقتين تبدو كأنها تجمع بينهما أيضًا فى مشاركة ملتبسة.

يختار الشيخ مؤونته فى هدوء. يناقش الأنواع والأثمان. وهى تعتنى به وتجاريه فى مزاحه، لكن من دون أن تمنحه ثقة بالغة، وتنظر إليه محتارة حتى لم تعد تستطيع السكوت :

– كيف تقتنى بنفسك المشتريات ؟ أتعيش وحدك؟

– لا، أعيش مع حفيدى !... أعنى مع أبويْه.

– أضاف الجملة الثانية فى خفة، وعاد يفكر فى تلك الكلمات الثلاث : "أعيش مع حفيدى". من المؤكد أنه لم ينطق بها أبدًا قبل الآن. "فيدهش – هو حفيدى وأنا جده nonnu...

- لا شك وأن الطفل جميل جدًّا - تقول مادحة وناظرة إليه تعايره.

"جميل ؟ هل هو جميل بروناتينو ؟ حيرة امرأة. بروناتينو شيء آخر. بروناتينو هو... الطفل وكفى."

- عجبًا... - يجيب مراوغًا وهو يفكر، هذه تعرف كيف تتبع. لو غفلت لأعطتني ما تريده، ولكني سأعطيها ما يتعبها. فأنا لا يخدعني أحد بالتودد. طبعًا، هذا ما عليها، فهي تعيش بالناس."

يتذكر زوجة بيبو في المقهى وهي تقدم المشروبات متباهية بصدرها الحسن."أنت تبيع بنهدى زوجتك"، يقول الأصدقاء المقربون للزوج وهو يفتعل الغضب كي يساير المزاح؛ لأن دجولياتا شريفة جدًّا والكل يعرف ذلك : فالجملة تقال من دون سوء قصد. علاوة على ذلك فهذه حقيقة. فالرجل قد سعد حظه في هذا، كما سعد حظ آخرين في شيء آخر. لكن هذه المرأة في المتجر أكثر رقة. رقيقة نعم. يا لهما من يدين تلفان البضاعة وترجعان الباقي. !

"هل هي شريفة كما هي رقيقة ؟ يشك الشيخ الذي يصيب دائمًا في مثل هذا الموقف. هنا في المدينة حياة أخرى.." لكن يطفو في ذهنه موضوع آخر متسلط فيسأل فجأة :

- اعذريني عن سؤالي، يا سيدتي، لكن من أجل حفيدي : إلى أي عمر نام معكما أبناؤكما الصغار ؟

– آى، لم نرزق أبناء !.. لم يهَبنا الله منهم أحدًا.

"فى أى شىء يفكر الله وأمامه هذه الأنثى ؟" يتأمل الشيخ وهو يعتذر مرتبكًا. تزيل هى الأهمية... ولكى تقطع الصمت، تغير الموضوع :

– أنا آسف لعدم تمكنى من إرسال الطرد إلى بيتك. عندنا صبى لهذا الغرض، لكنه اليوم مريض وزوجى خرج ليأتى بالبضاعة. امرأة تهتم بالجزئيات : فهى تعرف أنه من غير الجدير بالرجل حمل الطرود فى الشارع. يودعها الشيخ :

– فى رعاية الله يا سيدتى.... سيدتى...

– ماداليبنا فى خدمتك، لكن لا وداع، بل إلى اللقاء arivederci لأنك ستعود يا سيدى، أليس كذلك ؟

– بكل تأكيد، ومن لا يعود لكى يراك arivederci؟

وصل الشيخ إلى الشارع، والابتسامة لا تزال على فمه. "لكن كيف لا تتجب هذه المرأة وهى بهذا اللحم، ومن الجنوب ؟.. فى النهاية، ليس الأمر من شأنى وحُسن العلاقات بيننا، ثم إن لى فى المتجر من كل شىء، وبأثمان مناسبة. من الآن فصاعدًا سيكون إصباحى على ما يرام.

لقد اتخذ قرارًا منذ أن أخرجت أندريا من الخزانة جبنة، الماعزى وبصلة اللذين يفطر بهما – "يا إلهى، يا أبى، الغرفة موبوءة." صاحت هكذا وهى تزعم دفنهما فى صناديق كالتابوت داخل الثلاجة. فكان قراره، إذن، إخفاء مؤونته تحت السرير، بين حديد الدرع المعقد، بعد أن يضعها فى أكياس من البلاستيك؛ كى لا تخرج الرائحة، وهذا يساعد أيضًا على إخفاء السيجارة؛ إذ إن أندريا تتحمل تدخينه عندما لا يكون الطفل موجودًا من حسن الحظ. حاسة الشم ضعيفة عند كنته وعند المساعدة : حياة ميلانو تقتل الحواس.

بهذه الطريقة، ومن الآن ستعدو الروائح والطعوم مادة لفنائهم، ومستخدمًا موساه فى قطع الخبز والمغمس بنبيذ أحمر يسد الحلق. لم تجد أندريا عذرًا كى تطرده من المطبخ.

أتحرر فى الصباح، فى الأقل، من البنيتو، ومن عجينهم المجهز للتسخين ومن مجمداتهم ومن كل مخلفات المصنع..." ! أنا وأنت يا روسكا سنأكل طيبات الأرض، ولو مرة واحدة فى اليوم. !"

يجلس على مقعد بالميدان الكبير، ويشرع فى لف سيجارة؛ كى يدخن خارج المنزل. بعض المارين ينظرون إليه متطلعين. ولما أراد تمرير لسانه على حافة الورق المصمغة أربك حركة يده فى الهواء :

"إذن قد تكون أندريا على حق فى هذا، فالدخان يضر بالطفل... ماذا ترين أنت يا روسكا ؟ الحال هى أن الدخان يهدئك،

ولكن الطبيب يقول إنه لا يصلح لى. والآن علاوة على الكانتانوتى، فإننى أحتاج إلى البقاء من أجل برونـاتينو...! اعترفى بذلك يا روسكا، الدخان مضر له، ولو أننا لا ندخن إلا فى حجرتى فقط."

يبل الورق، يلف السيجارة، ويشعلها بعود كبريت. يتنفس بعمق، لكن طعمه ليس معتادًا. يشعر بأنه يقترف ذنبًا إذا دخن : إنها خيانة لبرناتينو.

(٦)

إن التخلى عن التدخين شيئًا فشيئًا تضحية، لكن هناك مقابل ذلك، متعة الفطور السرى، وخاصة الفطور بعد ثلاثة أيام من التوقف عن الأكل. سيأخذون بعضًا من دمه على الساعة التاسعة للتحليل الذى وصفه الطبيب الشهير، الذى رافقته أندريا البارحة إلى عيادته. لقد وصفته فى الحقيقة تلك المساعدة أو تلك السمينة، مقارنة بنحافة أندريا، لكن حديثهما واحد؛ إذ بعد استقبال كبير منظم وممرات وطقوس أخرى تمهيدية لم يصلوا إلى دخول معبد الطبيب. الشيخ يضحك مفكرًا فى أندريا، وكيف سيعجبها عندما تنهض، وتظهر فى المطبخ فتلاحظ بأية وداعة يمتنع عن الأكل.

"إن فكرة عدم الفطور قبل التحاليل - يفكر وهو يتناول جبنة مع البصل والزيتون - ما هى إلا ترهات الأطباء. مسرحية كى

يجنوا مالاً أكثر. تحاليل، لماذا ؟ ففى كل الحالات، ستكون النتيجة سيئة، أليس كذلك يا روسكا ؟ ستتكفلين أنت بذلك !"

إنهم لا يستخرجون الدم فى العيادة الشهيرة، لكن فى المستشفى الكبير. يأخذه إلى هناك ريناتو فى سيارته؛ فالمستشفى فى طريقه نحو المصنع فى منطقة بوفيزا الصناعية. يوقف السيارة، يدخلان، ويدله عبر الممرات وشبابيك موظفى المستشفى حتى قاعة الانتظار نفسها؛ حيث يعيد عليه مرة أخرى تعليماته :

– تذكر يا أبى، عند الخروج، خذ عربة أجرة عند الباب نفسه لتوصلك إلى المنزل.

يستمع الأب بانتباه، لكن ابتسامته تصير هازئة عندما يبتعد ريناتو. "كم كنت أتمنى أن أرى هؤلاء فى الفتيان أثناء الحرب، هاربين من الألمان خلال مدينة مجهولة أستقل عربة أجرة ! وفى هذا أفكر، عشرة آلاف ليرة فى الأقل!"

لقد شرحت له السيدة مادالينا بالأمس – تلك المراة التى تحل كل المشكلات – أن الحافلة رقم ٥١ تمر أمام المستشفى، ولها موقف فى ميدان بيانكامانو، ومن هناك مرورًا بشارع موسكوفا والحدائق يصل رأسًا إلى منزله. لهذا صم أذنيه عن ريناتو، وجعل مريضًا آخر فى سنة قد اطلع على كل شىء؛ فينظر إليه بعد ذلك بعينيْن متواطئتيْن.

إن الشيخ، لو ترك حسب إرادته لذهب فى الحال مــن دون أن يتعرض للوخز، لكن الطبيب الشهير سيطالب بالتحاليــل كــى يتبــع قواعد عمله المعهودة. رتابة ومهزلة، هذا ما يغضبنى... أيظنــوننى شيخًا خرفًا؟ أيظنون أنى جئت للتداوى ؟ ملعون ! لو لم يكن من أجل ابن العاهرة كاتانوتى الذى ما يزال يتنفس، يا للعنة، لم أكن لأوافــق على الخروج يومًا ما من القرية؛ حتى أقضى نحبى فى متعة فــوق فراشى، بين الأصدقاء، وجبلى أمام ناظرى، "لافيميناموريا" الهــادئ تحت الشمس والسحاب."

لأن الكانتانوتى ما يزال يتنفس، ولو أنه لا يقف على رجليــه؛ فهو مقعد مشلول حتى الحزام. لكنه ما يزال يلهث، وهــو بنظارتــه السوداء فاشستى حقيقى كان على الشيخ أن يواجه هذا المنظــر يــوم سفره؛ لأن اللعين أنزله أبناؤه على كرسى إلى الميدان مــا إن بــزغ الفجر. وهناك لحقت به مجموعة من المتملقين، وأجروا محادثة عنــد باب الكازينو؛ حتى يجئ وقت التمتع بالعرض الكبير.

العرض الكبير هو توديع الشيخ الــذى يــستيعده الآن، وهــو ينتظر نداء الممرضة. الميدان كما فى صورة قديمة صــفراء، فــى وسطه سيارة ريناتو يحيط بها الأطفال، ويحدد أرضه غير المــستوية مستطيل غير سوى بواجهاته المتطلعة بأبوابها ونوافذها، التــى وإن بدت مغلقة، فهى مراصد لا ترحم تطل على الحياة المحليــة، وهــى

ترقب فى ذلك اليوم رحلة الشيخ سالفاتورى النهائية. الجانبان الكبيران للمستطيل، متناكران كالعادة : جانب الكنيسة والكازينو، يرأسه الكانتانوتى، وجانب مقهى بيبو مع البلدية، أرض الشيخ ورفاقه مع منزل سالفاتورى نفسه، بجانب المقهى وهو منزل قد ورثه من حميِّه.

بدأ نور الصباح يشق طريقه بوضوح، بينما الشيخ يحاول ربح الوقت، مع الأمل المجنون بأن يتصاعد شل العدو على نحو فجائى كسدادة المشروب الغازى، إلى أن يخنق القلب البغيض : لكن من دون جدوى. يلمس صرة تمائمه من فوق قميصه، راجيًا هذه المعجزة. أخذ الشيخ دثاره وموساه، بعد أن عاند ابنته بشأن أخذه "لالوبانا" أيضًا، وهى بندقية قديمة كانت أول سلاح نارى يمتلكه فى بواكير دخوله عالم الرجولة. فقد ريناتو صبره، وهو يتذكر ما أوصته به أندريبا فى روما؛ مما أدى إلى تأخيرهما. ولما بدأت الشمس تبزغ فقد احتماله :

–أبتاه ! أليس من الأجدر أن أقرِّب السيارة من خلف البيت عند باب الحظيرة، ولنخرج لتونا ؟

إن هذا الاقتراح المعيب جعل الشيخ، الذى صعق ابنه بنظرة، يتخذ قراره. ترك "لالوبانا" وقبَّل روزيتا ووجه إلى ختنه حركة من يده وصاح بعنف :

هيا بنا، لكن من الباب الكبير. وأنت يا روزتا لو بكيت من الشرفة لعدت صاعدًا، ولطمتك لطمتين. إن لم تستطيعى التحمل فلا تشرفى.

نزل الشيخ مرة أخرى الدرجات مدوية خطاه، وخطا مولى وسيد ثم برز من ظل البهو منتصبًا أكثر من أى وقت مضى، فجاءه الأصدقاء من المقهى منتهجين نهج الرجال، وهم كذلك: كانوا كلهم جاهزين بابتساماتهم ومشروعاتهم إلى ما بعد عودة سالفاتورى وقد تعافى. جلس ريناتو أمام المقود منتظرًا فاقد الصبر.

وأخيرًا تحرر الشيخ من ناسه، وتوجه وحده نحو السيارة فاقترب هكذا من الكازينو.

تقدم ناظرًا بثبات إلى العدو الجالس، إلى ابنيه الواقفين بجانب الكرسى وإلى جماعة الموالين العابسة.

- الوداع يا سالفاتورى ! أطلقها إذاك بسخرية الفم البالى من تحت النظارات السوداء.

تسمر الشيخ فى الأرض، منتصبًا وساقاه متباعدتان قليلاً وذراعاه على استعداد.

- ألا زلت تستطيع الكلام يا دومينيكو ؟ أجابه بصوت ثابت. زمن طويل وأنت لا تنبس ببنت شفة.

- كما ترى من له حياة له كلام.

- إذن كنت ميتًا لما قطعت ذنب كلبك "توستيرو"؛ لأنـــك لـــم تتعق!

-أجاب المشلول مضحكًا مؤيديه : لقد تكلمت قبل قتلـــك مـــع دوبيتك روسكا. ذكية بما يكفى هى. نعم، يا سيدى!

- وكنت كذلك ميتًا لما اعتديت على ابنة أخيك كونشيتا! ميت وعفن كما أنت الآن؟! بصق الشيخ غاضبًا، ممسكًا بالموسى داخـــل جيبه. تمنى فى ذلك الوقت لو أنه أنهى الأمر هناك نهائيًّا، ويمـــوت حاملاً الآخر أمامه.

إن الصمت المفاجئ الذى ساد الميدان يمكن قطعه بالسكين فى الهواء. لكن الكانتانوتى كان قد وضع فى الوقت المناسب يديه فـــوق ساعدى ولديْه اللذين بدا تعصبهما، وختم قائلاً، بحركة احتقار من يده الغليظة المختمة(١) : إن الزمن قد أصلح شرفها، أحسن مما يـــستطيع الأطباء إصلاحه فيك... اذهب، اذهب، سفر طيب!

لم يحدث أكثر من هذا.

يفكر الشيخ فى بارق : " لقد قيل كل شىء، فهنا يعرف كل منا عن الآخر كل شىء، إن الكونشيتا تزوجت بمالها من تاجر الـــسوق السوداء إبان الحرب، وهى الآن سيدة فـــى كـــاتنزارو، وإن ســـفرى سينتهى بى فى المقبرة، وسفره لن يتأخر عن النهاية نفسها، وإنـــه لا

---

(١) الحاملة عددًا من الخواتم.

يزال لدى من الوقت ما يكفى لأسمر فيه الموسى، فأحس بموته تحتها، بينما يطعننى ابناه... ما الفائدة ؟ لقد قيل كل شيء.

ثم إن سلبية الفريق الآخر أمام تحديده؛ أعطاه الفرصة في ركوب سيارته بشمم وهدوء، فاقلعت مثيرة سحبًا من الغبار نحو كانتانوتى، والشيخ يهنئ ولده راضيًا:

- أحسنت صنعًا يا ريناتو ويعجبنى أنك ترجلت تحسبًا، لكنى أكفى نفسى أمام هذه السلالة السيئة.

ومع هذا، فهناك شيء لم يكن كما يجب، وهو ما يحزنه: إنه تغيب أمبروزيو غير المفهوم بين مودعيه. لم يكن لدى أحد تفسير لغياب المقاوم الأخوى الذى انتشله من مياه كراتى؛ حيث كان يفقد دمه من جراء العملية ضد الألمان فى جبل "كاسيليو".

لكن أمبروزيو كان فى موقعه، وكيف لا يكون هناك ؟ فى أول منعرج أسفل الجبل إلى جانب شجرة الدردار التابعة للدير، كان منتظرًا بعموده الأخضر الأبدى فى فمه. أوقف الشيخ السيارة وترجل صائحًا فى سرور :

- أخى ! يا له من أمبروزيو !... أتأتى أنت أيضًا كالجميع لتسألنى : لماذا أسافر ؟

- متى كنت غبيًا ؟ أجاب أمبروزيو مفتعلاً الغضب من الواضح أنك لا تريد أن يسير الكانتانوتى فى جنازتك، إن أصابك سوء الحظ ! ثم أضاف وهو يقوم بحركة "القرن" بيده اليسرى، طردًا للعين وللشيطان:

انفجرا فى قهقهة.

-الآن. أضاف أمبروزيو فى وقار : عليك أن تتحمل كى تحصل على لذة مرافقتك إياه فى جنازته، وبعدها قد يبلغ الأمر حتى أن أدعوك إلى جنازتى.

عوج فمه فى حركته المضحكة المعتادة – حركته العصبية فى غمار المعركة – وكرر :

- تحمل كما فى تلك الأيام يا برونو، فأنت تعلم.

- فوعده الشيخ : سأبذل كل ما فى استطاعتى، كما كنت أفعل فى تلك الأيام.

وفى اندفاع مفاجئ تعانقا، واضعًا كل منهما صدره فى صدر الآخر حتى قبلا بقلبيهما. شعرا بخفقانهما فأفرجا عن بعضهما بعضًا، ومن دون كلام ركب الشيخ السيارة. تعانقت النظرتان مرة أخرى، عبر الزجاج، بينما يحرك ريناتو السيارة.

رفع أمبروزيو يده قابضًا إياها، وشرع فـــى التـــرنم بنـــشيد المقاومين الحماسى، بينما توارى خياله إلى الوراء.

وعندما أخفته هضبة، استمرت كلمات النضال والأمل شـــادية فى صدر الشيخ.

(٧)

الثلج يتساقط. يقفز الشيخ من فراشه مغترًا كالطفل الـــصغير : الثلج فى أرضه أعجوبة ولعب. وعد بمراعٍ خصبة وغـــنم ســـمين. وعندما رأى ندفات الثلج أطل من النافذة، لكن لم يجد بياضًا فى قـــاع الفناء. المدينة تفسده، كما تفسد كل شىء؛ فتحوله إلى غدران ملوثـــة بالوحل. خطر له أن لا يخرج، لكنه غَيَّر رأيه : لعل الثلج قد خثـــر. ثم إنه بخروجه يتحرر من آنونسياتا، التى تـــأتى اليـــوم بـــاكرًا؛ لأن أندرييا ستلقى دروسها باكرا. هذا لا يعنى أنه لا يتفاهم معهـــا، لكـــن آنونسياتا مهووسة بالنظافة وتعميمها على الغرف على نحـــو يـــذكره بالألمان. فهى تدفع مكنستها الكهربائية أمامها كالدبابة ! فالشيخ يأخذ فى الانسحاب من غرفة إلى أخرى، حاملاً معه أيضًا مؤونته السرية من الأشياء المخبأة تحت السرير، بينما هى تنظف حجرته. وفوق هذا

فهى لا تترك الأشياء كما كانت، بل تنظمها حسب ذوقها. إنها ، من حسن الحظ، قليلة الكلام؛ فهى تفضل الاستماع إلى المذياع الصغير الذى تحمله إلى كل مكان.

"وكم من ترهات يتفوه بها هذا الجهاز ! - يفكر الشيخ وهو يرى من نافذة الحجرة الصغيرة الثلج يتساقط. الطفل نائم. ومن حسن الحظ أنهما يكادان أن لا يتفاهما باللغة الإيطالية الحكومية هذه. واضح، هى لغة الإذاعة المرئية نفسها، هناك فى مقهى بيبو، لكن بالشاشة لا تهم اللغة؛ لأن الأشياء تفهم برؤية المؤولين".

أسوأ ما فى آنونسياتا مع ذلك، هو مراقبتها المنافقة كى تبعد الجد عن الطفل. الشيخ يشك فى أن هناك تنبيهات من أندريا ضد عدوى محتملة من مريض مدخن. يغضب ويقول لنفسه : "لكن أنا أقلل من التدخين كل يوم ! حسناً، إن الطفل النائم لا يوقظ، لكنه الآن وقد أخذ يتحرك ويحرك يديه فاتحًا عينى الثعيلب..."

تظهر أنونسياتا فجأة بالباب وتحذره : لا تأخذه يا سيدى، رونكونى لا يعجبها.

- لماذا ؟ الشيخوخة لا تنقل العدوى !

- سيدى ! ماذا تقول يا سيدى ! الأمر هو أن الأطفال يجب عدم حملهم فوق الذراعين. يتعودون، أتعرف ذلك ؟ هكذا يقول الكتاب.

- وبماذا عليهم أن يتعودوا ؟ على أن لا يمسهم أحد؟... كتب! أتعرفين يا سيدتى من أين أمررها هذه الكتب ؟ بالضبط يا سيدتى، من هناك بالضبط !... كتب! حتى الجديان، الذين يتوجهون وحدهم إلى الضرع حين ولادتهم، تلعقهم الأم طول النهار، هذا مع أنهم حيوانات.

- أنا أتكلم بما أؤمر به. تنسحب المرأة غاضبة.

يستكن الطفل بين هاتين الذراعين، ويحاول ضاحكًا القبض على الشعر الرمادى المتجعد. يضم الشيخ هذه الحياة النابضة، وكلها خفقان طافح على سطح البشرة.

كان فى الأيام الأولى يخشى تشويه هذه اللحيمات، أما الآن فهو يعرف أن الطفل ليس لينًا كما ظنه. صغير، نعم، ويحتاج إلى المساعدة كذلك. لكنه عصبى عصبى على الانقياد. عنده من الطاقة عندما، ينفجر فجأة، بصيحات شديدة الحدة، فيركل ويذرع بعنف. شىء يبهت، هذه الإرادة الكاملة، وهذا التصميم الغامض، يكثِّف الحياة هذه.

إن الشيخ عندما كان "ثاغاليو" (راعيًا)، كان يأخذ بين ذراعيه "لامبرينو"، لكن تصرف ذلك الخروف الصغير المفضل لا يأتى أبـدًا بما يفاجئ. أما الطفل فهو على النقيض من ذلك، يفاجئ فى كل حين؛ إنه لغز أبدى. لماذا يرفض اليوم ما اشتهاه بالأمس ؟ لماذا يهمه الآن ما احتقره من قبل ؟ إنه يحقق فى كل شىء ويتطلع إليـه : يتلمـسه، يديره فى يديه الصغيرتين، يأخذه إلى فمه، يحاول مقاومته، يـشم... بل يتشمم كالكليب وبلذة وبلذة شديدة أيضًا.

الطفل باحث دومًا. إذا ما شعر بأن لا أحد يهتم بـه، فـسيظن قطعًا أن العالم فوضوى ويرفضه. لهذا يعانقه الشيخ بحنـان، يقبلـه، يشمه بنهم حيوانى شديد، كما يتشمم الطفل نفسه، وينصهر فى الطفل ذاتيًّا"، ويقال إن الكتب لازمة لتربيته...! لا تلقن الحياة هكذا، بل تلقن باليدين وبالقبلات وباللحم وبالصراخ... ! وباللمس، اللمس!... انظر يا بنى، كنت أحتضن الحمل كما كانت تضمنى أمـى. لقـد تعلمـت الضرب، بعد أن أوسعونى ضربًا !... "يبتسم متذكرًا امتهانًا آخـر :" وبعد ذلك لاطفت كما لاطفونى وقد صادفها معلمات ماهرات. أنـت كذلك سينتهى بك الأمر إلى الملاطفة، أتعهد أنا بذلك."

تؤلمه اليد الصغيرة التى تكشط شعره بجذبة إرادية، والـشيخ يضحك متلذذًا : "هكذا، هكذا أرأيت كيف تتعلم ؟ هكـذا بالـضربات وبالملاطفات. هكذا نحن الرجال غلاظ وعشاق... أتدرى مـا الـذى يردده تورلونيو ؟ إن أحسن حياة يا برونو هى التقدم بالطعنات نحـو

الأنثى." يشعر بتوتر الجسد الصغير – إن هذا الطفل يفهم !" – يبلغه التوتر ويهزه. إنه لا يستطيع التفكير فيه، وأقل من ذلك التعبير عنه، بل يستطيع أن يعيش مليًّا هذا الوقت بلا حدود بين الجسدين، هذا التبادل المبهم الذى يشعر فيه بنبض حديث صادر عن الغصن الأخضر الذى بين ذراعيه، بينما يسكب هو فيه أمن الجذع العتيق الثابت الجذور فى الأرض الأبدية.

(٨)

وصل به الأمر حتى أنه نسى الروسكا، وهو تحت تسلط الفكرة التى تدفعه إلى الرغبة فى صيرورة هذا الطفل رجلاً، هذا الذى لا يرعونه الرعاية الحسنة. يجب أن لا يصبح واحدًا من هؤلاء الميلانيين قليلى الثبات على الرغم من تباهيهم، الخائفين دومًا مما لا يعرفون ما هو، وهذا هو الأسوأ : خوف من الوصول متأخرًا إلى المكتب، من أن تداس تجارتهم، من أن يشترى الجار سيارة أحسن، من أن تطالبهم الزوجة فى المضجع بما لا يطيقونه، أو أن يفشل الزوج بينما ما تزال هى شديدة الرغبة... إن الشيخ يدرك ذلك بطريقته الخاصة : ليسوا أبدًا بلا عقل هم دومًا فى منزلة بين المنزلتين. لا هم ذكور ولا إناث بالكامل. لا يبلغون الكبر، ولكنهم ليسوا أطفالاً – هكذا يصدر حكمه مقارنًا إياهم بأبناء بلده – فهناك يوجد من هو ضعيف، أى نعم، لكن الرجل منهم رجل بحق، وأعنى ما أقول.

واضح ! لا أحد يستطيع أن يكون رجلاً من دون أن يُعجم عوده، وتختبر إرادته، قوارير الصيدلية المخصصة للطفل، هى أدوية خالصة، على الرغم من تسميتها "عجلا" أو "دجاجًا" ! وهذا اللبن الذى لا قشدة له أبدًا ! وهكذا كل شىء...

لما سأل الشيخ أندرييا إن كانوا يعطون الطفل أحيانًا نقيع القسطل فى نبيذ التوت، الذى ينظف المعدة وينمى فتوته، هالها الأمر هولاً كبيرًا. لأول مرة اشتدت نظرات عينيْها الرماديتين ولم تفلح فى إيجاد عبارات." ومع هذا فحتى الصبيان يعرفون بأن الذكر الصغير يجب إعطاؤه نصيبه من عرق التوت؛ كى لا يشعر بالإحباط. على أن يكون من عرق التوت الأصيل، لا بضاعة صيدلية أبدًا."

"لا، لم تجد أندرييا كلامًا مع أنها لم تعدمه قط، بل بالعكس فهى تتخم الطفل كلامًا، دائمًا بإيطالية المذياع، التى لا علاقة لها باللغة السائدة، " مثل ذلك المعلم الشاب الذى يتذكره الشيخ الآن، والذى عين فى روكاسيرا عندما توفى "دون بيارو" الرجل الطيب. لم يفهمه الأطفال. طبعًا لم تكونوا يهتمون كثيرًا بحكايات قدماء الملوك أو عن بلدان لا تزار. لكن مادة الحساب، نعم، يجب معرفتها معرفة جيدة؛ كى لا يخدع المرء من سيده أو فى الأسواق. لكن من حسن الحظ أنه لما يأتى الصبية سلوكًا معيبًا – وفى ذلك يبرع الشيخ عندما يستطيع الذهاب إلى المدرسة فى الشتاء – يوبخهم المعلم الجديد باللهجة المحلية أيضًا، وإذاك يفهمونه فعلاً؛ لأنه كان من ترتزينو

قرب ريدجيو، ولو أنه كان يخفى ذلك لبلاهته وشدة حماقته. فالطفل طبعًا مع كثرة الكلام بهذه الإيطالية الرخوة، ينام كما يفعل الآن. عندما تكون أندريا راضية فتجلس إلى مكتبها، وتحتمى بكتبها، وتشعل مصباحها وتكتب، تكتب، تكتب. بلا نظارات؛ لأنها، كما استطلع الشيخ آنفًا، قد تخلت عن استعمال العدسات.

يغتنم الشيخ الفرصة ليذهب فيجلس بجانب المهد متأملاً. بعد قليل يدخل ابنه الشقة ويظهر فى المضجع الصغير، فيقبل الطفل وينسحب إلى غرفته؛ كى يرتدى ثياب البيت. يتبعه الشيخ فى ضيق من فكرته المتسلطة، وإن كان يتحاشى دخول هذا المضجع الزوجى. لكن عليه أن يلح، أن يقنعهما، فإن ابنه سينتهى إلى فهمه.

يتعجب ريناتو الذى كان بصدد ارتداء الروب لما رآه يدخل :

– هل تريد يا أبتاه شيئًا ؟

لا شىء... لكن، انظر هناك بالتحديد لديكم مكان صالح لوضع المهد.

يبتسم ريناتو وهو فى حالة بين نفاذ الصبر وضبط النفس.

– ليس الأمر أمر مكان يا أبى، إنه لصالحه.

– صالح من ؟

– صالح الطفل طبعًا... لقد سبق لى أن أفهمتك ذلك فـــى مـــا مضى. وبهذه الطريقة تتجنب المركبات. إن الأمر نفسى، فى الرأس، يجب ألاَّ يكون للأطفال حنين مرضى، أتفهم ؟ يجب أن ينطلقـــوا، أن يكونوا أحرارًا... إن هذا أمر معقد يا أبى لكن، صدقنى : إن الأطباء أكثر معرفة.

كل كلمة تحدث فى الشيخ رفضًا. هل هو "معقد؟"، لا، بل هو بسيط جدًّا : تكفى الإرادة. "أحرار" ؟ لكن إن كان الميلانيون هـــؤلاء يعيشون فى جبن !... "أكثر معرفة" ؟ يا لها من معرفة هذه التى تمنع الحنان عن الوالدين ! إذن، مَنْ يتعين عليه أن يحب أكثـــر ؟ أو هـــل أصبح الوالدان اليوم لا يرغبان فى أن يحبا ؟"

بالرغم من سخطه، لم يكن لديه وقت لرد الهجوم. فقد صـــحا الطفل، ثم إنها ساعة استحمامه... الاستحمام، إنـــه العيـــد اليـــومى المفرح !

شعر الشيخ فى المرة الأولى بضيق، كما لو كانوا قد أشـــركوه فى هجوم على أسرار حياة خاصة. بعد ذلك اكتشف أن الطفل علاوة على تلذذه بالماء، يعجبه كثيرًا أن يكون بطل الحفل. ثم إنه من يـــوم أن أخذ يحلق لحيته كل يوم ويقلل من التدخين، صار الطفـــل يقـــدر تلطفه ويتركه يقبله أيضًا؛ وذلك عندما يقدم الشيخ على ذلك فى غياب الأم. غير أن الحمام كشف – فى النهاية – للشيخ أن بروناتينو لا يكتفى

بأن له عضوًا تناسليًا واعدًا، بل هو يحس بانتصاب حقيقى فيلامس نفسه، إذ ذاك، ويشم أصابعه بابتسامة مغتبط "مرحى يا بروناتينو ! قال لنفسه الشيخ عند قيامه بهذا الاكتشاف الكبير: إنك ذكر كجدك !"

لهذا السبب نفسه؛ يزداد خوفه من أن تنتهى هذه الكتب بإفساد الطفل، وهؤلاء الأطباء الذين يأمرون بنفيه ليلاً، تاركين إياه وحيدًا أمام أحلام مزعجة وحوادث أو قوات عدوة... "إذا ما واصل هؤلاء الناس تقدمهم؛ فسينتهى بهم الأمر إلى القول بأن على الرجل والمرأة أن يفترقا عند النوم كى لا يتحابا"...

آى يا بروناتينو العزيز !... إنك فى حاجة إلى امرأة من هناك لها عضلات مفتولة وتكون خبيرة بالرجال. أمى نفسها، أو "لاطورطوريلا" التى أنجبت أحد عشر، أو العمة بانغاناتا التى تزوجت ثلاثة رجال... لكن لا تجزع، إن خسرتها فأنا هنا. سلم لى قيادك، يا طفلى الصغير ! أنا سأضعك على الدرب السوى؛ كى تصعد الحياة، وهى صعبة كالجبل، ولكنها تملأ قلبك لما تكون فى القمة !"

(٩)

– أرأيت يا سيدى رونكونى ؟ أرأيت يا سيدى ؟

يترك الشيخ الطفل فوق البساط بجانب المهد، ويلتفت نحو آنونسياتا المنتصرة والشديدة الثبات بالباب.

- تزييو رونكونى ! تذكرى ذلك.. وماذا على أن أنظر ؟

- إن السيدة على حق، إنه يجب عدم حمل الطفل فوق الذراعين... هو نفسه كان يريد النزول منذ قليل، فقد رأيته !

هو كذلك. فمن ذراعى الشيخ، كان الطفل يشير بإصبعه الصغير بإلحاح نحو الأرض كالإمبراطور الرومانى ويصرخ : "آ، آ، آ،" وهو يصارع كى يفلت.

هاهو الآن على الأرض أليس كذلك ؟

هو كذلك... وتضيف مشددة : وهذا يعنى أن السيدة على حق!

- لا، هذا يعنى ما كان يردده دون نيكولا، القس العفيف الوحيد الذى مر من روكاسيرا، والذى لم يدم طويلاً لعفته.

هل جرت ترقيته كهنوتيًا فى كنيسة أخرى ؟ لأن أى مكان آخر أفضل له.

ينفر الشيخ من هذه اللمزة.

- لا، علق ثوبه المميز؛ لأنه غير قادر على فهم البابا، فذهب إلى نابولى يتكسب رزقه من عمله فى معهد.

الطفل، وهو جالس على البساط، يتمتع بهذه الأصوات وينتبه، كما لو كان يفهم الجدل الودى الذى يجرى فى صباحات كثيرة.

- نعم... وأية بشاعة كان يبدو عليها مثال العفة هذا فى قوله؟

إنها - لاشك - من الإنجيل، تلك التى تقول : "لهم أعين ولا يرون. لهم آذان ولا يسمعون" أو كلام شبيه بهذا وهو ما تعانيه كنتى وأنت... وأناس كثيرون مثلكما، أطباء أو غير أطباء!

تحار آنونسياتا وفى النهاية تجيب، مشددة على اللهجة التهكمية:

-لا يقدر عليك أحد يا تزيبيو رونكونى.

تنسحب كمنتصرة مكرمة.

أما الطفل فقد قلب فى هذه الأثناء صندوقًا طالته يده، وراح يركز الاهتمام فى اللعب المبعثرة هكذا أمامه : قطع تربوية يمكن تركيبها إلى بعضها بعضًا وهى مصنوعة من البلاستيك الملون، حيوانات من قماش، ودمية تقف على رجليها وبها جلاجل، وحصان يتأرجح اشتراه له الشيخ وقد نال نجاحًا سريعًا، ثم طواه نسيان الطفل وإهماله، وعاد الآن ليصبح اللعبة المفضلة؛ وهذا ما يثلج قلب الشيخ الذى يجلس بجوار الطفل ويهمس له :

- واضح أنه لا يقدر علىَّ أحد ! ماذا ظنتا نفسيهما هاتان الاثنتان؟... الآنونسياتا امرأة طيبة، يا بروناتينو، وتحبك بطريقتها كعانس، لكنها لا تفقه شيئًا، مثل أبويك... يظنون أنك لا تفضّل

ذراعى والأمر غير ذلك : فبفضل فهمى وضمى لك منذ قدومى، أراك تزداد ثباتًا وأمنًا، تصير رجلاً بجانبى، وطبعًا تزداد جرأة يا ملاكى الصغير، فدس الأرض وتحرك.

– هكذا جرت الأمور خلال الأسبوعين الأخيرين. بروناتينو يظهر أكثر حماسة فى توسيع مجال تجربته. فلما يجلس فى المهد وتعطى له اللعب، ينتهى به الأمر إلى إلقائها بقوة خارج المهد ثم يشير إليها؛ لا رغبة فى أن تعاد إلىَّ، كما كان من قبل، بل لوضعها مع بعضها بعضًا. وأحيانًا يبلغ به الأمر إلى التشبث بحفاضة المهد، ويطل بطريقة تجبر على الانتباه إليه؛ حتى يختل توازنه، فيسقط على الأرض.

– ويواصل الشيخ : – قد تقول أمك إنك تقلل من تبعيتك لهم... المسكينة ليس الأمر هكذا !... بما أنها لا تعرف أننى أعلمك كيف تدافع عن نفسك، فهى لا تفهم أن تُقَدِّمك، يعنى أنك سائر فى تعلمك الأشياء الأساسية فى الحياة، يا طفلى الصغير : الأمر هو إما أن تكون قويًا، وإما أن تداس رقبتك. ولهذا أكرر لك لما آخذك بين ذراعى : اغتنم العيش، ولا تترك نفسك لعبة فتندفع أنت طبعًا هناك لتطبيق ما قلته لك... احفظ هذا جيدًا : كن فظًّا لكن تمتع بالعطف والمحبة، كما يفعل حملى لامبرينو: يعثر ويرضع.. غير أن المسكين كان خروفًا، فلا يستطيع أن يصبح قويًا، لكن أنت رجل !

الطفل يطبق فعلاً، أكثر فأكثر. فبفضل المحاولات ها هو يستوى على يديه وركبتيه فيحبو متنقلاً فى الغرفة أو فى المكتب.

والآن بالذات هو آخذ فى التحرك، يجلبه سروال الشيخ، فإذا بصوت ميكانيكى ملح ينطلق فيرفع الطفل رأسه بنظرة منتبهة.

"إن سمعه دقيق مثلى – يفكر الشيخ وهو قد تعرف على مكنسة آنونسياتا الكهربائية – كيف يبدو وجهك يا بنى ! تذكرنى بجبين" تيرى" المجعد، ذلك المساعد العسكرى الإنجليزى الذى رمى إلينا بالمظلة، تذكرنى به وهو يتأمل من أين يحسن القرب ليلاً من مواقع الألمان. ما أغلظ حاجبى ذلك الرجل ! "يحبو الطفل مصرًّا إلى الباب ويطل برأسه الصغير. ينظر يمنة ويسرة : لا بد أن الممر بدا له كنفق بلا نهاية. لكنه لا يفزع ويستأنف السير نحو الصوت الساحر، متبوعًا بالشيخ الذى يشارك فى المغامرة متلذذًا، فيطل على الغرفة حيث يبرز ظهر آنونسياتا عند الباب، وهى تنظف البساط.

"هكذا يا طفلى الصغير هكذا يكون التقدم ! فى صمت مثل القطط، مثل المقاومين ! المفاجأة، دائمًا ! المفاجأة ! "عدو مفاجئ، عدو مدحور" هكذا كان يردد الأستاذ.. حسنًا إنه كان يقول : "عدو منهزم "؛ لأنه كان مثقفًا. لكن رنينها أجمل بطريقتنا، أليس كذلك ؟ هو ذاك، الآن، اهجم !"

– آى !

تنطلق قهقهة الشيخ مع صرخة الخوف الأنثوية؛ عندما شعرت آنونسياتا باحتكاك فى كعبها : إنها يد الطفل. ترتمى فى حركة خائفة إلى جانب، وتفلت مقبض المكنسة الكهربائية الذى يبقى جامدًا من دون أن يكف عن ضجيجه.

بعد أن أزال الحاجز الإنسانى الدفاعى، يتقـدم الطفـل رابـط الجأش نحو هدفه، ويعانق بابتسامة سعيدة الآلة المرتجة.

- سيحترق، سيؤذى نفسه ! هكذا تـصيح أنونـسياتا جاريـة لإطفاء المحرك. الصمت المفاجئ يجعل قهقهة الشيخ أكثر صـخبًا، بينما هو يضرب بيديه على فخذيه مصفقًا؛ تعبيرًا عن طربه؛ مما زاد من غضب المرأة.

يتأمل الطفل الآلة مذهولاً، ثم يلوح على وجهه تعبيـر عـن خيبة، فيضرب بيده الصغيرة على الآلة. بدا فى برهة كأنه سـيبكى، لكنه فضل التسلق حتى ركب باستهتار ظهر الآلة الملـساء، ضـاربًا إياها ليثيرها.

يأتى الشيخ إلى مقبض الآلة ويضغط علـى المفتـاح. عـودة الضجيج تفزع الطفل قليلاً وكادت تسقطه، ولكن يصيح حـالاً فـى سعادة ويضحك فوق مركبته المهتزة، خاصة عندما أمسكه الشيخ من كتفيه كى لا يسقط.

-أوقفها يا سيد رونكونى ! أنت مجنون يا أسـتاذ ! - هكـذا تصيح آنونسياتا، لكن عليها أن تمتثل فترة بالرغم من مطالبتها فـى كل حين باسترجاع الآلة. يضجر بروناتينو - فى النهاية - من لعبته الرتيبة، فيترك نفسه ينزلق إلى الأرض وينتقل نحو هدف آخر. ينزل الشيخ أيضًا على يديه وركبتيه ويخاطبه وجهًا لوجه :

– ما أكبرك يا بنى ! غلبت الدبابة، حاصرتها ! أتدرك قيمة انتصارك ؟ مثل طورلونيو بقواريره المشتعلة وقنابله اليدوية. ما أكبرك ! يكاد الشيخ ينفجر فخرًا، بينما آنونسياتا تستمع إليه مبهوتة. أما الطفل فبعد أن توقف قليلاً أمام ذات الأربع الجديدة، تسلل بين ذراعيها ووضع نفسه تحت صدر الشيخ الذى أبدل إذذاك ذكرياته : هكذا، الآن هنا، اهدأ، مثل الحمل مع أمه، فكما كنت أقول لك: اعثر وارضع ! لكن الطفل يواصل تقدمه فيخرج من الخلف مارًّا بين ساقى الشيخ الذى تعود ذاكرته إلى الحرب، بينما الطفل يجلس أخيرًا ليستريح راضيًا عن مآثره.

–يا لها من ضربة نهائية ! هكذا، تسلل كما كنا نتسرب فى الغابات ! هكذا حقًّا، يكون المرء مطوقًا، ثم يفلت من الشراك!... أنت الآن تعرف كل شىء! هكذا –نحن الرجال– استطعنا التغلب على الدبابات والطائرات!... بين رجالنا، أنت مقاوم كامل، هاجمًا ومنسحبًا !... ويختم بصيحة :

– عاش بروناتينو !

وفجأة يلهم :

– إنك تستحق السير فى استعراض راكبًا حصانًا !

يأخذ الطفل ويرفعه أعلى من رأسه، مثيرًا منه صرخات خوف وسرور، ويجلسه من دون توازن على كتفيه. يتشبث الطفل

بالشعر المتجعد بكلتا يديه الصغيرتين، والشيخ يمسكه من ساقيه، ويخرج من المكتب مع تأثر آنونسياتا البالغ، فيثنى ركبتيه عند الباب خوفًا من المفاجآت غير المبهجة، كما يفعل فى الكنيسة عندما تخرج أو تدخل "سانتا كيارا."

يمشى الشيخ ويجئ فى الممر بخطوات واسعة، والطفل فى عَلٍ، مغنيًا نشيد النصر الشهير :

– بروناتينو يعود منتصرًا... بروناتينو يعود منتصرًا...!

(١٠)

كان الشيخ جالسًا على مقعده أمام النافذة، موليًا هكذا ظهره ركن أندريا. "المقعد الصلب" كما تسميه آنونسياتا. هى لا تفهم أن الشيخ يفضله؛ لأنه قطعة أثاث فلورنسية مصنوعة من خشب الجوز، وهى غير منجزة ولها ظهر مستقيم وذراعان. إن الشيخ لا يعجبه المتكأ؛ لأنه يغرق فيه وهو مع ذلك فاقد الصلابة. إنه يناسب رخاوة أهل ميلانو.

– تعجبك ناطحات السحاب أليس كذلك ؟ سألته أندريا لما رأته يجلس هناك لأول مرة. إنها رائعة !

بدأت تضاء بعض الفجوات من الأدوار التى لا تحصى فى ناطحات السحاب بميدان الريبوبليكا، وفى البيرالى الشهير ذى الجانب

الشبيه بصدر سفينة. لكنها لا تعجبه فى شىء ألبتة ! كيف يمكن أن يقارن هذا المنظر بجبله وهو يراه ضاحية روكاسيرا ؟ جبل جليل، حنون، متقشف، جبله "لافيمينا مورتا" (الأنثى الميتة) المتغيرة ألوانه حسب الفصول والسحب.

يقرع باب الشقة. يدخل ريناتو حذرًا؛ كى لا يوقظ الطفل. يحيى أباه ويواصل حتى يبلغ أندرييا، يقبلها فى عنقها. يسمع الشيخ مع همس الزوجين خشخشة ظرف يفتح. هى تحاليله الطبية، أكيد. مر ريناتو بالمستشفى ليأخذها. يعرف الشيخ، من دون أن يلتفت، أنهما يوجهان إليه نظرات مشفقة. يبتسم : هذان الصبيان. إنه يرى فيهما اللطف والظرف.

يقترب ريناتو من أبيه. يلمح عفوًا إلى التحاليل ويشرع، مبالغًا، فى التشكى من حركة المرور، بينما أندرييا تذهب إلى الممر لتهاتف من هناك بدل القيام بذلك من منضدتها.

"إنهما خائفان – يفكر الشيخ – تكفى مشاهدتهما وهما يحاولان التستر... ما الذى كانا ينتظرانه من التحاليل ؟ يا لهما من ثنائى شقى!"

تعود أندرييا معلنة أنها حصلت على موعد مع الطبيب ليوم الخميس، اليوم الذى يمكنها فيه مرافقته. تتحول ابتسامة الشيخ الهادئة إلى أخرى ساخرة أمام حرج الاثنين. بكاء الطفل المفاجئ ينقذ الموقف

تخرج أندريا مسرعة لتحضر له حمامه ويرافقها ريناتو. يتبعهما الشيخ متأنقًا إلى هذا الحفل اليومى الكبير الذى سيكون اليوم استثنائيًا.

يفهم الشيخ وهما يجففان الطفل الذى، كالعادة، يعابث عضوه الصغير، الذى هو انتفاخ وردى شبيه بثمرة القسطل فى الربيع آنذاك. تأتى مفاجأة كبرى ! قبل أن يرفع أصابعه الصغيرة إلى أنفه، يهدى بروناتينو الباكورة للشيخ، مبتسمًا له مستدعيًا، بينما ينفذ فيه بنظرة بعيدة الغور كأنها نظرة كهرمان أسود.

– أنت يا طفل ! يصيح ريناتو متكلفًا الاستغراب.

– فتعلق الأم فى رصانة: دعه ! إنه يجتاز المرحلة الشرجية(١).

لا يعير الشيخ اهتمامًا لهذا الكلام الفارغ. وعلى النقيض من ذلك، تذكره حركة الطفل بأساطير قطاع الطريق الذين يخلطون دماءهم كطقس من طقوس الأخوة لديهم ؛ ولهذا استطاع الشيخ أن يترجم فى الحين رسالة الطفل. ينحنى على اليد الصغيرة ويتشمم القربان متأثرًا. يلمع نور فى نظرة الطفل، الذى يشم بدوره أصابعه الصغيرة المدهونة. هكذا تمت، حسب فهم الشيخ، المعاهدة السحرية.

---

(١) يشير هنا إلى التقسيم الفرويدى – نسبة إلى فرويد عالم النفس النمساوى الأشهر لمراحل الطفولة : المرحلة الفمية – الشرجية – القضيبية .

يسوده بعد ذلك هدوء كبير وهو مضطجع فى فراشه، إلــى أن هاجمه النوم. فالطفل أصبح يعرف، وقد وضع ثقته فى الشيخ.

لم يبق شيء يقال؛ فكل شيء أخذ طريقه.

(١١)

لهذا يفتح الشيخ عينيه قبل أى فجر آخر. لقد استطاع الــصحو دومًا فى الساعة المرغوبة : فى الحرب كمــا فــى الــصيد أو فــى التهريب أو فى الحب.

دقات جرس الدوومو تؤكد أنها الساعة الثالثة. لقد نظــف الــثلج سقوط الثلج الأخير جو المدينة؛ فصارت تسمع الأجراس أحسن مــن ذى قبل. ينظر الشيخ عبر النافذة، الحائط المواجه فى الفناء شــكله قمــرى. "ضوء غير صالح لكمين كالكمائن التى كنا نقوم بها، لكنه مناسب لهــذه الحرب... لقد فهمت سريعًا أنى رفيقك يا طفلى الصغير!"

يلبس بتؤدة جواربه الغليظة ويأخذ دثاره. لا برد فــى الــشقة المدفأة، ولكنه من دون دثاره يشعر بأنه غير مصون. لقد رافقه دائمًا فى المهمات الكبيرة وهذه إحداها: إنقاذ الطفل من الوحدة.

يتقدم فى الممر بخطى كأنه هِر، ويتوقف عند باب غرفة النوم الصغيرة نصف المفتوح. ينقلب من الفجوة نور محمــر هــو نــور الفراشة الكهربائية المثبتة فى المقبس. يتساءل ويده علــى القفــل إن كانت مفصلات الباب تحدث صريرًا، لكنها وقد دارت فــى صــمت

فهى تثبت له أنها تنضم إلى المعاهدة. يدخل الشيخ ويغلق الباب فى صمت. النافذة كلها قمر. الأرض بحيرة فضية : المهد وظله جزيرة حجرية. فوق الوسادة التى صارت مرآة تنعكس صورة القمر، وهو هذا الوجه النائم الدافئ الذى تلاطف أنفاسه وجه الشيخ الذى انحنى ليشمه، ليحسه الدفء وليبعث الحرارة فى هذه الوجنات المسنة.

يهمس الشيخ : "أرأيت ؟ ها هو برونو لديك. لقد انتهى تقدمك وحيدًا وانتهى ضياعك.

فإلى الأمام أيها الرفيق، أنا عارف بالدروب !".

يملأ الطفل الليل من مهده بتنفسه وبنبض قلبه الصغير. يجلس الشيخ على الأرض وظهره إلى الحائط وينفتح على هذا الحضور كشجرة تحت الأمطار الأولى؛ فبمائها تبرز ذاكرته، ذاكرة الرجل الطويلة، فينفتح ماضيه كبذرة تتفاعل فى الأرض؛ فتنتشر على المهد ثورة من الذكريات والحالات المعيشة كمظلة واقية.

إن الدقائق كطقطقة المكوك تنسج الشيخ مع الطفل فى نول الحياة. إن المكان المحصن قمر وظل لهما وحدهما، لقد حدده الطفل فى الحمام، بأصابعه الصغيرة المدهونة، كما يحدد الخنزير البرى أراضيه. لقد رآه الشيخ يفعل ذلك فى الربيع، ناشرًا رائحة منه أصيلة على الحجارة وعلى أرض اللآذن[1].

---

(١) اللازن هو نبات يستخرج منه صمغ يعلك، ويستعمل عطرًا ودواء.

ماذا يجرى ؟ ما الذى يتبلور فى هذه الدقائق ؟ لا يعرفه الشيخ ولا يفكر فيه، لكن يعيشه فى باطنه. إنــه يــسمع التنفــسيْن، القــديم والجديد، يجتمعان كاجتماع الأنهار ويتشابكان كالثعــابين العاشــقة، يهمسان كما تهمس فى النسيم ورقتان متجاورتان. شعر بهذا قبل أيام، لكنه الآن طقس تلقائى يجعله مقدسًا يلامس تمائمه بين شعر صــدره ويتذكر؛ كى يفسر لنفسه تأثره، شجرة البق اليابسة قــرب الكنيــسة : مدينة بخضرتها الوحيدة لخضرة الحلبلاب(١)

الذى يعانقها والذى بدوره لا يستطيع النمو نحــو الــشمس إلا بفضل الجذع القديم. الخشب والخضرة، الجذور والدم، الشيخ والطفل يتقدمان كرفيقين فى درب، عبر هذا الوقت الذى يجمع بينهما. إنهمــا متكاتفان فى طرفى الحياة المتقابلين، وبينهما القمر يتحــرك ملاطفًــا إياهما بين دوران الأنجم البعيد.

(١٢)

- رونكونى سالفاتورى،... تفضل.

ينهض الشيخ من على المقعد فى قاعة الانتظار الأنيقة. تمسح أندريا على يده بأصابعها وتطالعه بابتسامة مشجعة. "غباوات نساء". بعد أن اجتاز الباب تتركه ممرضة أخرى أقــل شــبابًا فــى غرفــة

---

(١) نبت تدوم خضرته فى الصيف، وتسميه العامة اللبلاب.

صغيرة ؛ كى يخلع ثيابه تمامًا – نعم تمامًا، طبعًا وهذه الصرة التى فى العنق كذلك – ويرتدى طيلسانًا أخضر تلتصق أطرافه إلى الوراء وحدها، وهو ما اكتشفه الشيخ بعد أن بحث عبثًا عن الأزرار : "هكذا كان لزامًا أن يلبسوا الطفل !".

من هناك يتوجه إلى غرفة بها آلات عدة وطبيب شاب يضجعه على سرير الفحص. يتابع الشيخ فى البداية هذا الفحص بحب استطلاع، لكن سرعان ما بدأ يقلق فيجيب آليًّا : "نعم، يؤلمنى هناك" أسفل من ذلك لا يؤلمنى"، "إنه كما لو أن دويبة تتجول بداخلى وتعض أحيانًا". يضحك الطبيب عند سماعه ذلك ويهتف : "مرحى أيها الصديق !" بينما يلقى إلى الممرضة نظرة تواطؤ.

يمرون به من تجربة إلى أخرى، من طبيب إلى زميله، من قاعة بنوافذ مضاءة ملمعة، إلى أخرى غارقة فى شبه ظلمة؛ حيث يفحصونه بالأشعة – عجبًا ؟ لك هنا رصاصة ! ألا تؤلمك ؟

– لا، هى تذكار احتلال كوزنتسا.

يبقى بلا حراك نصف ساعة ؛ كى يأخذوا له عددًا من الصور، فيكاد ينام. لقد نسى حتى رغبة التدخين، فهو كالفارغ من نفسه، ولو أن شيئًا يثقل عليه فى الداخل، ذلك الحساء الذى تناوله صباحًا؛ وهو ما يجعله يزداد كرهًا لتوليفات أو تركيبات الصيدليات

التى تعطى لبروناتينو المسكين. ذلك الصباح بالذات، رفض تمامًا الملاعق المزعجة، فانتهى الأمر بآنونسياتا إلى العدول والعودة إلى تنظيفها. اغتنم الشيخ ذلك ليعطى الطفل خفية قطعة من النانينو المغمسة فى النبيذ، فالتهمها بشراهة وهو ما أبهج الجد.

كان لطفًا من أندرييا مرافقته فى سيارتها إلى مصحة الأستاذ دالانوتى. وتشريفًا بلا شك للطبيب النابغة، تزينت، وارتدت تنورة. فى جلستها بالسيارة تطل ركبتاها باديتى العظام، وفى العسيب[1] تبرز أطنابها[2] عندما تضغط على الدواسات. يفكر الشيخ : "إنها بالسروال أفضل". أما هى فقد أساءت ترجمة النظرة فمددت من تنورتها حياء.

– قال لى ريناتو إنك اهتممت كثيرًا فى روما بناؤوس "الزوجين". إنها قطعة رائعة بكل تأكيد.

– نعم، كانا يبدوان حيين بشكل...!

فاجأ التعليق أندرييا، لكن شرعت بهدوء فى محاضرة معممة. بدأ الشيخ مهتمًا، ولكن بما أنها كانت تعبر بإيطاليتها، فقد انتهى به الأمر إلى عدم الإصغاء إليها، ولو أنه شكر لها حديثها غير المنقطع؛ مما لا يجعله مجبرًا على محادثتها.

---

(١) العسيب هو ظاهر القدم.

(٢) أعصاب الجسد.

- انظر – قاطعت أندرييا نفسها، مشيرة إلى بناءات لجامعة الكاثوليكية – هناك ألقى دروسى، وكذلك الأستاذ دالانوتى. لا تظن أنه يستقبل أيًا كان، لكن بما أننا فى التدريس...

نعم، لقد كانت المرأة لطيفة – يعترف الشيخ وهم يعينونه على النهوض من وضعيته غير المريحة بعد انتهاء التقاط الصور بالأشعة. يستأنف إذذاك الجولة الاستطلاعية، ومن جراء الممرات والغرف المبلطة بالقيشانى الأبيض، والأجهزة الملونة وحصص الإلكترود ضد الجسم، والأضواء فى حدقة العين والأسئلة والجس انتهى طافيًا كالفلين المسوق على غير هدى، فاقدًا الاهتمام بما يحيط بنفسه أو يكاد.

لهذا عندما تملّوه ثانية ورأى نفسه فى مرآة كبيرة، بدا له وكأنه يشاهد جسيمًا غريبًا. هو ليس هذا الجلد ناتئ العظام الصدر المشعر المدبوغ، وإليته وأردافه البيضاء. إنه من المهين أن يعرضوا صورة الشيخوخة هذه لهذا المجرب الملتذ الذى اشتهته وعانقته إناث كثيرات. ولو أنه شىء مهين ولا هذا. إن البشر فقط يشعرون بأنهم أهينوا. وفى السلسلة الطبية، التى تجزئ كما يجرى فى المجزرة، يصبح البشر مجرد نسيج وأحشاء وآذان، وأعضاء. وفوق كل هذا هناك النفاق : كلهم هناك كثيرو والمداهنة متفائلون كاذبون.

يا له من فرق بين هذا وفحص "دون غايتانو" ! يرتدى الشيخ ثيابه من جديد ويتذكر قمة الطب فى كاتنزارو الذى لا يناقش وهو فى عيادته بالكورسو. "هناك يدخل المرء كما هو فعلاً، ويخرج أحسن مما كان." شعوره الغاضب ضد العيادة الميلانية يسمح له باسترجاع نفسه قبل أن يخرج من الغرفة الملبس.

وأخيرًا وبعد آخر باب تفضل سموه باستقباله قابعًا وراء مكتب كأنه مذبح. أندرييا الجالسة أمامه، ترق على شفتيها ابتسامة تلقائية عند ظهور الجد الذى يعرض عليه الطبيب مقعدًا بعد أن وقف له.

– متشرف يا أستاذ. يحيى الشيخ ثم يضيف عن قصد: كم لى رغبة فى لقائك ؟

– لقد سبق وأن تعارفنا أيها الصديق رونكونى، لكن كانت قاعة التصوير مظلمة؛ فلم تستطع رؤيتى. أما أنا فقد فعلت وبتعمق.

– حسنًا إذن – يسالم الشيخ – ظننت أنك ستصرفنى مكتفيًا بالأوراق فقط." فالأستاذ أمامه التقارير مطروحة على المكتب. يدخل مساعد فيتبادل الطبيبان بعض الكلمات. جمل ألغاز وحركات نفى أو إيجاب، بين مقاطع تدل على الشك فى أثناء الفكير. وأخيرًا يكتب سموه شيئًا ويعطى تعليمات للمساعد فيخرج هذا الأخير لينفذها، ويشبك الآخر وينظر مبتسمًا إلى الشيخ وأندرييا.

– حسنًا يا صديقى رونكونى، حسنًا. لك يا سيدى بنية رائعة ووضع عام تحسد عليه بالنسبة إلى عمرك، باستثناء المشكلة التى أتت بك إلى عيادتى طبعًا... لكن من هذه الناحية، فالحق لا مفاجأة. أستطيع تأكيد ذلك لك. الخلاصة، معبرًا عنها بلغة دارجة، الوضع هو أن السيد رونكونى له بوادر...

وبما أن اللغة الدارجة التى يستعملها هى لغة المذياع إذا عمم، فالشيخ يتسلح بالصبر، ملتقطًا بعض العبارات فقط : "تسق مرضى"، "وسائل العلم"، "تقدم عصرى"، "اختيارات علاجية"...

أما أندرييا فهى، خلافًا لذلك، قد قدمت فى نهم رأسها، وجعلت ترشف العبارات المحكمة بمتعة فكرية حقيقية، وإرضاء أيضًا للعلاقة كانت تسرِّب أسئلة توحى ببحوث فنية كبيرة." هل لكل هذا صلة بى ؟ يتساءل الشيخ فى هذه الأثناء؛ لأنه مع "دون غايتانو" كانت تكفى الطريقة التى ينظر بها؛ كى يعرف المرء أن الأمر إيجابى أو سلبى. وفى النهاية يوجه له الأستاذ ابتسامة أخيرة ساحرة فيقول :

– هل فهمتنى يا سيدى العزيز ؟

"يسخر منى أو ماذا ؟" يتفاعل الشيخ ويرد الهجوم من دون هوادة كما فى الحرب.

– لا، لم أفهم. ولست فى حاجة.

يتوقف برهة متمليًا الحيرة فى وجه الطبيب ويواصل :

– إن الشيء الوحيد الذى أريد معرفته، يا أستاذ، هو متى سأموت.

الجو الرقيق الذى يغمر هواء المكتب المفعم بالكياسة والتفهم والفاعلية، يفتش كالمنطاد. العلامة وأندربيا يتبادلان نظرة. يبدو على أندربيا الخجل :

– ما هذا الذى تقوله يا أبى ؟

يمعن الشيخ فيها النظرة مسرورًا بأثر ما فعل. الأستاذ يدخل بعض الجمل حول تطورات غير متوقعة، وتطورات غير عادية وآمال... لكنه فقد ثقته. يقاطعه الشيخ :

– أسابيع ؟ أشهر ؟ من يدرى ؟ لعلها سنة ؟ لا إننى أرى أن العام فترة طويلة.

– أنا لا أؤكد شيئًا أيها الصديق العزيز ! – يقول الدكتور مندفعًا – إن كل تكهن مغامرة فى هذه الحالات، ونظرًا إلى بنيتك القوية، فمن الممكن أن يحدث...

– لا تجهد نفسك يا أستاذ. لقد فهمت. لندع الكلام. فبعد كل شيء أنا أفضل روسكتى على الشلل الذى يسمر فى كرسى أحد معارفى. لقد بلغ شلله الخصر، وقريبًا يصعد إلى القلب؛ وعندها يتحطم. أليس كذلك؟.. قل لى يا أستاذ، هلاّ يصَّاعد هذا الشلل بسرعة؟... النتيجة ! من الأفضل أن يترك المسكين المعاناة، خير من قضاء حياته على كرسى !

– كيف تريد أن أجيبك من دون أن أرى هذا المريض ؟ إنك تسأل يا سيدى عن أشياء...! – يتملص الطبيب وهو فى حالة دفاع كامل. لقد أسقطه هذا الشيخ من كرسى الأستاذية.

– الأسئلة التى تهمنى. إن موتى ملكى يا أستاذ... وموت المشلول أيضًا ! نصيبه أن يموت قبلى !... انظر، سأشرح لك مرضه، وسيكون الأمر كما لو كنت قد رأيته. كان لا يزال يمشى فى شهر يونيو، لكن فى أغسطس...

يسرد الشيخ كل ما يعرفه عن الكانتانوتى وعن أعراضه، لكن الأستاذ بعد الاستماع إليه بنفاد صبر، يرفض الإدلاء بتدقيقات وينتهى بالوقوف كياسة وهو يعلن إرسال التقرير إلى المنزل، ومعه المواصفات والعلاج. فَضّل العلامة، أمام ذلك الشيخ، التخلى عن خطبته المعتادة الباعثة على الأمل، واكتفى بتحية زميلته أندرييا بكل حرارة، وبلماحية نَفّاذة حيًّا المريض مودعًا إياهما عند باب مكتبه.

لم تعرف أندرييا كيف تبدأ، وهما عند الباب الخارجى، لكن الشيخ سبقها وقال مؤكدًا ثم تنهد :

هذا لا يعرف شيئًا عن الشلل، ومن سوء حظى أن ماتت لى "مارليتا" فى يناير الماضى. صديقة حميمة لى! تعنى جيدًا بموضوع كانتانوتى تتابعه فعلاً، لكن...

– عمن تحدثنى يا أبى ؟

مع "مارليتا" ساحرة "كامبودون" ي. أبرع "ماغارا" (عرافــة) فى كامل كالابريا.. وكل إيطاليا. لا يفوتها شىء. لتستقبلها المادونــا فى جنتها.

(١٣)

وأخيرًا تحصل عليه : حوضه الصغير، أو المبولة كما يقــول أصحاب الذوق من أهل ميلانو. كانت أندرييا ترفض طبعًا.

- هذا لم يعد يستعمل يا أبى.

- هل لا يبول الناس ليلاً هنا ؟

- نعم لكن فى دورة المياة. لا كما هى الحال فى القــرى. لا حاجة للنزول إلى الحظيرة.

أندرييا تحتفظ بذكرى أليمة عن المرحاض فى روكاســيرا. إذا ما عبرت الفناء لم تعدم قط فلاحًا ولا صبية يراقب لها الوقت، ويتنبأ بمشروعاتها.

- دورة المياة لا تناسبنى. فالذهاب هنــاك يــوقظنى فيتــأخر نومى بعد ذلك. أما بالقصرية فأتكئ على جنبى وأبول وأنــا نــصف نائم، ويالها من لذة.

لم تتنازل أندرييا. وفى يوم مــن الأيــام، ســمحت لرينــاتو بشرائها." فهم الشيخ السبب – واضح الأمر. فقد قال لهما الطبيب إنه

لم يبق لى إلا القليل، فليتحملا أى تصرف منى. هذا أحسن من لا شىء فقد أتى فحص الأستاذ بفائدة. لكنهم مخطئون : سأعيش أكثر من كاتانوتى. ولن أعطى هذا التيس فرحة السير فى جنازتى!"

حصل إذن على قصريته، فلماذا يخفونها ؟

- يصيح غاضبًا: سيدتى آنونسياتا، سيدتى آنونسياتا!

- تأتى المساعدة .. لا تصرخ، فالطفل نائم.

- أين أخفيت مبولتى ؟ - يسأل بصوت خافت وهو خائف من أن يكون قد أيقظ بروناتينو.

- أين يمكن أن تكون هذه الجوهرة ؟ تحت فراشك!

- أحقًا ؟ انظرى، ليست هناك.

- من الجانب الآخر يا سيدى : يا إلهى من هذا الرجل؟

المرأة صادقة.

- يهمهم - إلى الجانب الآخر، الجانب الآخر...! - ولا تتـاد علىَّ يا سيدى. لقد سبق أن قلت لك ذلك. أنا "تزييو" (العم) رونكونى. لماذا فى الجانب الآخر؟ أريدها هنا. أنا أقبض عليه دائمًا بيدى اليسرى، وأخطئ التسديد باليد اليمنى.. طيب، فهمتنى طبعًا.

- تقول السيدة إنها فى الجانب الآخر لا ترى من الباب.

– ومن يا ترى يطل من هذا الباب ؟ أنت فقط وأنت تعرفينها. لعينة هى النساء !

– وعدت آنونسياتا بالطاعة وهى تنسحب مهمهمة غير أن الشيخ يعرف أنها لن تفعل. ستتركها حيث شاءت ككل شيء تنظمه.

بينها وبين أندرييا يفقد صوابه... فقد أنقذ بالصدفة دثاره رفيق حياته، وهو الآن يخفيه نهارًا فى قاع الخزانة. وعند وصوله، أرادت أندرييا أن ترمى بالدثار وتمنحه جديدًا. استسلمت أمام غضب الشيخ، لكنه سمعها تقول لزوجها إن تلك الخرقة لها رائحة الماعز. "ليت هذه العينة قد فاحت بالحياة بقوة كما تفوح الشياه!"

بعد استعادة مبولته، يجلس الشيخ على الفراش ويقاسى الرغبة فى لف سيجارة؛ كى يهدئ الروسكا التى تمشى اليوم هائجة وتبدو شاكية فقد ترك الشيخ عادة التدخين. كان قد أخرج بعض الورق لما أنقذه بكاء الطفل، وراح يجرى نحو المهد ناسيًا الدويبة.

كانت آنونسياتا قد وصلت بعد وها هى تهمس مسلية، ولكن الطفل لا يهدأ. تطلب المراة المعونة من الشيخ : لاحظت هى أيضًا أن الصوت الخفيض يهدئ الطفل. لعله يريد أيضًا العودة فى أقرب وقت إلى مكنسته الكهربائية. مهما يكن الأمر، فالجد أخذ يدندن أغنية قروية هادئة. لكن – وهذا غيب – يواصل برونانتينو الصراخ، ويحرك قبضتى يديه الصغيرتين، ويحتقن كما لو أصابته نوبة... بلغ

به الأمر حَدَّ خلع خفيه الصغيرين، مُسندًا حذاء كل رجل بالخلف لقدم الأخرى. حيلة جديدة تعلمها أخيرًا، كى يمارس سلطته الطفولية مجبرًا امرءًا على إلباسه إياه؛ لأنه، حسب أندربيا، "يريد الاستبداد بهم". لكنه الآن يجعل من ذلك حركة عدوانية راميًا إلى الهواء بالحذاء كما لو كان قفاز تحد.

- تقول آنونسياتا وهى خارجة : قد يكون فى حاجة إلى تغيير لباسه.

تعود بسرعة بجفنة بها ماء دافئ، ومعها إسفنجة وتلك الأكياس البلاستيكية وقطن، كأشياء لا بد من توافرها للأطفال فى ميلانو. كل شيء محكم وفُقد. "بهذا لا يمكن أن تنمو له الرجولة نموًّا حسنًا !"

يجب تغيير لباسه، شيء مؤكد، لكن يمكن أن يكون غاضبًا لأمر آخر ؟

يلقى الشيخ بالسؤال :

- اسمعى ! ألا تُشْعَل هنا المصابيح فى البيوت ؟ لأن اليوم يوم الأموات.

- تلك العادات قد أتى عليها الزمن.

- نعم، ولكن هل أتى كذلك على منح اللعب للأطفال؟

– فى يوم الأموات ؟ من يخطر على باله مثل هذا؟

– على بالنا نحن أهل الميتزو دجورنو (الجنوب) كما تقولون. نعم فالأموات يأتون باللعب إلى الأطفال.

– يا لها من عجائب. هنا لنا ملك الشرق أو باب نوويل !

– عجائب العجيب هم هؤلاء الملوك أو النوويل هذا. ما لهم والأطفال ؟ ثم إنهم أكذوبة بعكس الأموات فهم حقيقة، هم لنا ألا تفهمين؟ هم أجداد الأطفال ويحبونهم؛ لأنهم من دمهم.

"هم حقيقة – يكرر الشيخ لنفسه؛ فرحًا بدفاعه عن الأموات، مقدمًا لهم هذه الإتاوة فى يومهم – انظر، يقول بعضهم لبعض، لقد تذكرنا هذه السنة فى ميلانو... آه.. واضح جدًّا فهو برونو روكاسيرا."و علاوة هذا سيشعل لهم شمعة فى غرفته، معه واحدة فى حقيبته، لأن النور الكهربائى يتعطل عندما نكون فى أشد الحاجة إليه. والأموات يجب إضاءتهم كى يجدونا عندما يزوروننا.

وضعت بعد آنونسياتا الطفل على منضدة المغطاة بفرش، وأخذت فى تعريته. يفكر الشيخ مستنكرًا : "لا تعرف كيف تفعل ذلك فوق تنورتها، وهى جالسة فوق كرسى منخفض، كما يفعل ذلك فى كل الأزمان".

نعم ! كان الطفل فى حاجة إلى التغيير. يبتسم الآن وهو مغسول بليل، بينما يدهن ببرهم ضد الالتهابات. "كما لو كان إسته

وجه صبية ! هكذا يفكر الشيخ غاضبًا، خاصة أن المـــرأة مـــررت إصبعها الدسم بين إليتيه كتوقفه فى الوسط – هناك لا يمس الرجل !"

من حسن الحظ أن الطفل كى يشعر أن مثل تلك اللمـــسات لا تنقص من رجولته، يعود فيظهره فى جسارة. "لا يمكن نكـــران أنــــه حفيدى!... أحسن الناس القول بأن الأطفال يشبهون أجدادهم، أكثـــر من شبههم لآبائهم.. "لكن المنظر النشيط سطع مـــرة أخـــرى بعـــدة البلاستيك غير الرحيمة. "يا للفظاعة !".

تدخل آنونسياتا الساقين الصغيرتين فى ساق المنامة[1] وتـــدير الطفل كى تزررها له من خلف. يواجه الشيخ بإصرار الزر الأعلى، لكنه لم ينتهِ منه بعد، بينما آنونسياتا كانت قد زررت البقية. "اتركـــه، له تقول له، ولكن الشيخ يجعل من المهمة مسألة شـــرف. غيـــر أن الدائرة الصغيرة تتزلق دائمًا بين أصابعه الخشنة. ونظرًا إلى إلحـــاح الشيخ، بدأ بروناتينو فى الهمهمة، فيعترف الشيخ بهزيمته، مخمدًا فى صدره لعنة متأوهة.

تزرر آنونسياتا الزر فى الآن ذاته، وها هو الطفل ممـــدد فـــى مهده. يجلس الرجل عند قدميه ويستأنف الدندنة، كما كان يفعل قـــرب خرفانه قبل نصف قرن. لحن حزين؛ لأن فشله أمام الزر الـــصغير لا يزال يثقل عليه، فراح يتروى. "إذن، لو كنا نعيش وحدنا لما اســـتطعت إلباسك كى لا تزكم. لا. لن يلفه فى الدثار، هذا لا يجدر بطفل."

---

(١) بالعامية البيجامة.

غرق الشيخ فى أفكاره، فلم يشعر بوصـــول أنـــدريبا، التـــى تستقبلها آنونسياتا فى البهو.

– يُنيمه الجد يا سيدتى. الرجل متخم بالعجائب، لكـــن يمكـــن تركه مع الطفل . إنه يجلس عند المهد ككلب الحراسة.

تقترب أندريبا على كل حال مـــن البـــاب نـــصف المفتـــوح، وتتشمم؛ لأن حماها، هذا المنطوى على نفسه قادر على التـــدخين. لا عن سوء قصد؛ بل لأنه لا فكرة له عـــن الـــصحة ولا عـــن تربيـــة الأطفال... لا تشم شيئًا من حسن الحظ، لكن تدعو الحاجة إلى الصبر مع هذا الرجل!

داخل الغرفة، سكت الشيخ لما نام الطفـــل. النـــور الـــضعيف يخترق الفجوة بين الستائر، ويقع رأسًا على يدى الشيخ. يتأملهما وقد استحوذت عليه أفكاره : ظهراهما، كفاهما. قويتان عريضتان بعروق ضاربة إلى الزرقة، أصابع كجفن الكرم، أظافر صلبة وقصيرة، بقعة بنية صغيرة بين الزغب...

يتأملهما : هذان المخلبـــان اللـــذان يعرفـــان كيـــف ينحـــران ويلاطفان. استقبلا خرفانًا فى الحياة الدنيا وكبحـــا الخيـــل، ورميـــا بالديناميت، وغرسا أشجارا وأنقذا الجرحى وروَّضـــا نـــساء... يـــدا رجل، يدا رجل لكل شيء : الإنقاذ والقتل.

كل شيء، إنه الآن غير متأكد. والزر ؟ وحمل الطفل جيـــدًا ؟ هل تصلح يداه لهذا ؟

إن فشله الذى سبق قبل حين غمه. وهذه الأصابع التى يحركها أمام عينيه... معقدة، خشنة... لا تصلح لهذه البشرة الحريرية. هـل هذا ممكن ؟ لأول مرة فى حياته لا يفخر بيديه ! "إن بروناتينو فـى حاجة إلى أيدٍ أخرى. له يدا آنونسياتا... لكن، ما هذا الجنون الـذى أفكر فيه ؟ أنا أحسد امرأة كالميلانى !؟ لا لا، يداى كما هما: هاتـان يداى أنا !"

يحتاج إلى وقت لتهدئة نفسه، ليغفر لنفسه خطيئة كهذه ! لكـن لا يعنى هذا أنه تخلّى عن الأناة. "هل القـوة معرقلـة ؟ أن تكـون صالحة ! للأزرار الصغيرة أيضًا، لتغيير لباسه، لأى شـىء كـان ! بعيدًا يا نساء ! وطفلى بروناتينو، لا غير حتى يصير رجلاً" .

الاثنان وحدهما. هذه الفكرة تروقه. هكذا لن يفـسدوه. لكـن، إذن... حاضن ؟ الاختناق المفاجئ يجبره على تمرير سـبابته بـين رقبته وبنيقه[1] القميص. يتخدر، ثائرًا ضد تخيلات كهـذه؛ فيـشعر بالدم يتدفق فى وجنتيه. "لا ؟ أنا سأكون شيئًا آخر ! معلم، هـو ذاك، معلمه ! "لكن الخوف من الخطأ لا يغرب. "يا للحياء ! الدويبة أكلـت شجاعتى !"

---

(١) رقبة القميص.

يتأمل هذا البياض المستدير فوق الوسادة، بلون الشفاه اللطيف والعقصة[1] السوداء على الجبين. نوبة شديدة من الحنان تقتلــع منــه زفرة صامتة، وتقود يده نحو هذا الوجه الصغير. يلمــسه بإصــبعه ويتراجع فجأة كما لو أنه احترق؛ وذلك لأن هذا الخد قد أيقــظ فــي ذاكرة الإصبع اللحمية لمسة ملاطفة لدونكا. اليــد تتــذكر، وتطلــق انفجارًا من الذكريات فى هذا الرجل. دونكا ! تلــك الأيــام، وتلــك الليالى!... دونكا نائمة بجانبه. خد دونكا مثل هذا الخد.. أم أن الأمر بعكس ذلك : يد دونكا فى وجه الطفل أو فى وجه الشيخ ؟.. مشاعر غائمة، بلبلة اللمس، غموض.

يتجه النور مرة أخرى إلى اليدين والنظرة العجــوز مــسمرة فيهما. لكن أى يدين ؟ يندهش لاكتشافهما مختلفتين، لاكتشاف هــاتين اليدين المدمجتين فى معصمه : بيضاوين، رقيقتين، أنثويتين ؟ كيــف وهما مفعمتان بالقوة! وبعد ؟ دونكا، هى أيضًا قد قبــضت برجولــة على الرشاشة القتالة !

تنقلب دهشة الشيخ إلى غم. "هل أصبت بالعين؟ الرجاء أيهــا الأموات المقدسون : أريد يدى ! ويضغط على صرة تمائمه...

يهدأ الزلزال الداخلى وتعود الحياة إلى نظامها. يعيــد الــشيخ لملمة شتات نفسه وتجذيرها، فيدرك المكان والساعة.. هل أخذه النوم أو لعله كان يحلم ؟ يلهث ويحرك رأسه نافضًا أشباحه، كما يــنفض الكلب المبلل الماء. يعاين يديه : هما كما كانتا دائمًا.

---

(١) خصلة الشعر.

... إلا أنه يشتاق... لو كانتا أيضًا يـدى دونكـا ! للاطفتـه ولمست جبينه محررة إياه من سطوة السحر... يعيد الحياة فى داخله إلى أغنية عاطفية كانت شائعة قبل أربعين سنة وكانت تـسهم فـى غمار الحرب فى نسيان طلقات النار... وفـى مـساء أحـد الأيـام بريمينى، كانا يدندنانها معًا وهما نازلان نحو البحـر، مـن معبـد، "ملاتستيانو" الذى يدهشها كثيرًا... المنزل بالحى البحرى وفى فنائـه الدالية القديمة فوق رأسيهما وعنب ناضج على ملمس اليد... دونكـا مضطجعة وقد اتكأت على مرفقها وانتزعت عنقودًا و... هـو ذاك، بالضبط، السيدة الأترورية!.

نشيج عميق يتجمد فى الـصدر العجـوز، تقمعـه رجولتـه المستتكرة... لكن الحنان يغمره فى بحر هادئ؛ حيث – كدلفين غير منتظر – تقفز هذه الكلمات :

– بروناتينو، ما أنت فاعل بى ؟

همس هذه الكلمات باللهجة الدارجة، وبها سأل أيضًا دونكـا، مستسلمة. أربعون عامًا إلى الوراء... يعيش من جديد فى شفتيه طعم القبلة التى استقبلها إذذاك كجواب وحيد.

قلقان، عمران، وقتان حيويان يندمجان فى صـدره منتـزعين هذا التوسل، هذا الأنين، هذا الاعتراف، هذا الاستسلام...

– ياطفلى بروناتينو !

(١٤)

أندريا لا تذهب إلى الجامعة أيام الأربعاء فتتفرغ "لمراجعة منزلية" يعرف الشيخ ما يعنيه هذا : أن آنونسياتا تكون قد قامت منذ وقت بالتنظيفات المطلوبة، عندما تخرج أشياءه من غرفة النوم متداخلة. سروالها مصنوع من القطيفة الخضراء. تلاعب الطفل إن كان صاحيًا، تقوم بجولة تفقدية مدلية ببعض الملاحظات، وتنتهى مختفية وراء كتبها فى ركن من المكتب كما تسمى قاعة الجلوس. تنزل من حين إلى آخر فجأة كما ينزل الصقر منقضًا؛ حيث تقدم خدماتها أو باحثة عن الشيخ، الذى اعتاد أن يلتجئ إلى كرسيه بالمطبخ. تنظر إليه بصبر مقدس وأحيانًا تقول له :

- يا أبى، ما الذى تفعله هناك ؟ مكانك بالمكتب على مقعدك الفلورنسى !

إن الشيخ يفضلها بالنظارات كما كانت من قبل ؛ فهى تعطيها هيئة بسيطة كالمعلمة. أما بالعدسات فهى تبدو امرأة أخرى، أكثر غرابة.. "لو لم يكن الأمر أنى لا أريد أن أهدى جنازتى للكانتانوتى..! مادونا ميا (يا عذرائى) إعطنى حياة لشهر واحد أكثر من ذلك التيس ! ما يكفى للعودة هناك !... إنه الدعاء اليومى.

للمرة الثالثة تطل أندريبا على المطبخ. "دروسها غير ناجحة اليوم " يفكر الشيخ – لذا لما سمعها تأمر آنونسياتا بشراء فاكهة وخبز، عرض أن يشتريها بنفسه كى ينأى عن المكان.

– واضح أنى أفرق فى الكمثرى ! فأنا رجل ريف!

تقبل أندريبا وبعد فترة طويلة، يعود الشيخ منتصرًا بمشترياته. ويتبجح ضاحكًا :

– خى، خى...! أرادت أن تخدعنى بإعطائى من تلك الملفوفة فى البلاستيك؛ كى لا أستطيع جسها... لكن، نعم، نعم، مهملة تركتها!

– من هى يا أبى ؟ تتزعج أندريبا.

– الفلانة التى بمتجرك. لتأكلها هى ! السارقة ! انظرى إلى الإجاصات التى أتيت بها،وبنصف الثمن.

– تفتح آنونسياتا الطرد وتسأل :

– والخبز ؟

– آه، الخبز، طيب.. لا تكلمينى عنه ! أهذا تسمونه خبزًا ؟ أنا خبير فى أنواع الخبز، لكن لا أفهم هذا الشىء. وبما أنى نسيت الصنف الذى تريدينه..

أصناف كثيرة من الخبز فى ميلانو ! وكلها واحدة: اصطناعية. تنظر إليه أندريبا بيأس كالضحية.

– لكن انظرى يا امرأة، انظرى إلى هذه الإجاصات ! إنها طبيعية، لا كالأخريات، متساوية بدرجة تجعلها وكأنها من شمع... أضيفى إلى ذلك تلك الحيلة التى تمنع حتى من شمها، ولكى تدفعى وزن الورق المقوى.. طيب، لو ذكرتنى بالصنف لنزلت مرة أخرى من أجل الخبز.

– لا يا أبى، لا تشغل نفسك. فعلىَّ شراء بعض الحاجات الخاصة بى... بعض العطور، نعم، هو ذاك.

إن نظرة أندرييا ولهجتها تفصحان عن غضب، فيقرر الشيخ الذهاب هو أيضًا، بعد انصرافها؛ لأنه لا يريد البقاء فتجده عند رجوعها. إنه سيضجر يومًا ما، فيبعث بكل شىء إلى الجحيم...

لما خرج الشيخ، كانت أندرييا قد وصلت إلى دكان فاكهتها المعتاد، وكانت تعطى بالشروح إلى صاحبته المستاءة جدًّا من تصرفات الشيخ. تجهد أندرييا النفس فى تهدئتها.

– لقد وصل به الأمر إلى نعتى بالسارقة، يا سيدة رونكونى، أمام زبائنى ! سارقة أنا ؟ أنا التى أدقق فى الأسعار وأدقق، كما يعلم الحى كله.

– اعذريه يا سيدة مورانتى، إنه مُسن ومريض. ثم إنه من الجنوب، ريفى، أنت تفهمين ذلك... لو عرفت ما أتحمله منه ! اعذريه من أجلى.

- أعذره من أجلك؛ لأنك سيدة حقًا.. أما هو فلا عودة من فضلك... ثم ألم يرد تمزيق بلاستيك الأوعية كى يلمس الفاكهة ؟.. إنه جلف قروى، واعذرينى، بلا فكرة عن النظافة ! ثم تحامل على ميزانى الأوتوماتيكى، أحدث ميزان : مصرًّا على اختباره بمثاقيل حقيقية، على حد تعبيره... شاكًا يا سيدتى، شاكًا ! ميزان من طراز فيريتاس مختوم من قبل دوائر المحافظة...! ثم هات المناقشة والمساومة، بينما الدكان ضاج بالناس ينتظرون... لكن، ما لا أغفره له هو عدم الثقة. لنا ثلاثون عامًا، ولم يشتك منا أحد أبدًا !

تتحمل أندرييا الوابل مفحمة كى لا تقع فى نكبة ؛ إذ إن الدكاكين الأخرى بالحى هى أدنى من هذا، وطبعًا لم يخطر لها على بال قط دخول دكان أهل "تارنتو"؛ حيث اقتنى الشيخ فعلاً مشترياته. تلين صاحبة الدكان فى النهاية:

- لا يصدق أنه أبو زوجك بوجاهته اللافتة. وأنت سيدة كاملة، يا دونيا أندرييا، بنت عضو بمجلس الشيوخ، وأستاذة جامعية كما يجب...

بينما تفتخر بائعة الفاكهة بمهارتها أمام الشاريات الأخريات، تواصل أندرييا القيام بدورها كضحية :

- ما الذى يمكنك قوله لى يا سيدتى، فأنا التى أتحمله ! من أجل الطفل لا أنعم بالاستقرار. لا أحد يدرى ما الذى قد يحدث لهذا الرجل. فهو يبدو، فى بعض الأحيان، كأنه غير عاقل.

– كان لزامًا عليه أن يكبح جماح نفسه، بما أنه يسكن في منزلك... كيف يسمح زوجك بذلك ؟

– لا نستطيع فعل أي شيء، فهو متهالك.

– من حموك، على الرغم من هذه العفرتة وهذه الأخلاق ؟ – تندهش بائعة الفاكهة.

– سرطان.

تصيب هذه الكلمة المشؤومة الحاضرين بالوجوم، وتدعهم في حال لا يحسدون عليها.

– مسكين !

ويستحق. يعالجه الأستاذ دالانوتي، بما أنه زميلي بالجامعة..

– دالانوتي ؟ إنه قمة ! إنه علامة.

تشرح أندرييا كيف يفعلان المستحيل كي يجنباه الآلام، لكنه يُصعِّب كل شيء كثيرًا بهوسه..! وتنتهي طالبة كيلووين من فاكهة كما يجب : مصونة، محفوظة صحيًا ومُغلَّفة بالبلاستيك :

– مظهرها حسن تلك التي هناك.. كيف هي ؟

– من أحسن صنف. مثل اليوغسلافية التي اقتنيتها مرات أخرى، والتي لم يبق منها. تلك يونانية.

- نعم، نعم، من اليونان !

افترقت بائعتا الفاكهة راضيتيْن لحصولها على الاعتذارات أمام الجمهور ثم وبعد كل شيء، لا يمكن لأى مسيحى حقيقى أن يكون مُلحًا أمام السرطان. وأندريبا، لأنها حسمت الخلاف؛ فهى لا تريد مشكلة مع هذه المرأة التى تبيع غاليًا، لكن يتردد عليها الوجهاء. وهكذا، وبرأس شامخ، تعود أندريبا إلى منزلها شارية فى طريقها البانيتو (الخبز المكعب الشكل).

فى هذه الأثناء، كان الشيخ جالسًا على مقعد بالحدائق محتميًا من البرد بسترته الجلدية، ومدخنًا فى سلام سيجارته الوحيدة التى يسمح بها لنفسه طول اليوم، باستثناء سيجارة ما بعد العشاء بعد دخوله غرفته. إن عقله يجتر الدهشة التى اعترته عند التعرف إلى زوج السيدة مادالينا عندما ذهب لشراء الإجاص. رجل طويل القامة، نعم، ولكنه مترهل، بوجه منافق وشعر مفروق مفلطح، وصوت حاد جدًا !

- والسيدة ؟ - سأله الشيخ مجاملاً.

- ذهبت إلى المحافظة بخصوص التراخيص. هذه المسائل تعالجها هى... من المفروض أنها رجعت الآن، يضيف ملقيًا نظرة على الساعة المعلقة وراء منضدة العرض:

- أبلغها تحية رونكونى، وهو من كاتنزارو.

"لماذا رماني الرجل بنظرة شزراء إذن ؟ -يستحضر الشيخ صورة المرأة – "لا، هذا الرجل لا يليق بالسيدة مادالينا؛ تلك الأنثى الحقيقية تحتاج إلى شيء آخر يا لها من قطعة فريدة.

وأنظر من أين تزيح ميلانو الغطاء مرة أخرى عن صندوق مفاجآتها ؛ لأنه لما وصل الشيخ إلى كورسو فينيتسيا، ودار بالمتحف، لمح قبالته بالضبط، في منعرج شارع سالفيني، سيارة تتوقف جنب الرصيف. يلفت انتباهه أولاً لونها الأخضر المعدني، وعندما وقفت لفتت انتباهه أيضًا صورة السائق الجانبية المعقوفة وسباله[١] وبشرته الداكنة. يراه يودع بقبلة أحدًا جالسًا إلى جانبه وعلى وشك النزول. يتغير لون نور المرور ويشرع الشيخ في عبور الكورسو، بينما السيارة تتحرك بسرعة تاركة راكبها على الرصيف. إنها امرأة، طبعًا، ولا غير السيدة مادالينا، منتصبة على الرصيف بشكلها الجميل، حسنة الثياب ومودعة بيدها المرفوعة السيارة المبتعدة. بعد ذلك، ومن دون أن ترى الشيخ وراءها، تدخل من شارع سالفيني متجهة إلى دكانها.

يبتسم الشيخ ابتسامة عريضة : "انظر، انظر، انظر السيدة مادالينا...! يفهم كل شيء إذن.

---

(١) الشعر فوق الشفة العليا = الشارب .

(١٥)

كان الشيخ متجولاً فى ما وراء الحدائق، فوصل إلى ميدان كبير فى وسطه نصب تذكارى : تمثال لفارس يعلو قاعدة هائلة برموز برونزية فى جوانبها. "هذه القبعة وهذا العثنون... هو غاريبالدى ! يا له من حصان ! حسنًا، قد فعل الميلانيون شيئًا ففى الأقل قد تذكر أهل الشمال بغاريبالدى وهم الذين تركوه مرميًا. ولما انتهى من ملوك نابولى... كم كان يحسن تفسير كل هذا ذلك الأستاذ فى فرقتنا. كما رموا بنا، نحن المقاومين، لما قضينا على الألمان. عاد البارونات إلى التدخل فى ما لا يعنيهم، وحكامهم المستبدون يحكمون من روما كالعادة...!"

يواصل السير إلى الأمام تحت أشجار شارع آخر، ويتوقف ثانية عندما لمح فى آخر الشارع السور الأحمر الذى يحيط به.

"يا له من برج ! حصن حصين بكوى للرمى ! يقاوم كقلاعنا. هذا لم تستطع تدميره ولا طائرات هتلر... فهو يحتفظ حتى بالكامبانيلى (برج الأجراس) فى أعلاه !"

يتوقف عند كشك. تسحره واجهات المجلات، فتجذبه الصور كما تجذب الأطفال. "يا لها من أعجاز، يا لها من نهود ! أصبحوا الآن يعرضون كل شىء. يلذ هذا؛ لأن العيون لا تشيخ... لكن يغضب أيضًا. كلها كذب فهى من ورق لا غير ! تثير ولا تلمس. يجب أن يكون المرء باردًا كالميلانيين كى يتحمل هذا."

تجعله الصور ينظر بنظرة أخرى إلى المارات "كيف ترتـدى نساء اليوم، ماما ميا (يا أماه)" يلبسن القصير؛ ممـا يجعلـه يـشعر بالبرد مكانهن على الرغم من سترته الجلدية؛ فيسرع الخطى بعد أن أشعل سيجارة يومه. يلاحظ بالقرب من السور لافتة سـياحية تعلـن بشتى اللغات : قلعة سفورتسيسكو. متاحف ! مرحى متحـف يظهـر صدفة، بينما هو لا يعرف إلى أين يذهب حتى تدق سـاعة الغـداء. يقرر الدخول، وبه رغبة طارئة لمشاهدة ذينـك الأتـروريين مـرة أخرى.

إنه لم ينسهما. من ذلك أنه سأل أندريا فأقرضته كتابًا سميكًا، ملحة عليه العناية به عند استعماله.

– إنه كتاب فن يا أبى، يجب ألا تفتحه أبدًا أكثر مـن تـسعين درجة. أعنى : هكذا.

مُتْخم بالأتروريين هذا الكتاب، فعلاً، لكن لم يؤثروا فيه. كانوا مثل أعجاز الكشك ونهوده : كذب على ورق. "هؤلاء الناس، بكثـرة الكتب، تلتبس عندهم الصور بالأشياء."

لهذا يتمنى لو يرى الآن أتروريين من أولئك. لكـن الحـارس الأول الذى سأله فى الداخل ينبهه بأن لا أتروريين هناك.

– وكيف لا ؟ – يغضب – هذا متحف أو ليس بمتحف؟

– نعم يا سيدى، لكن لا أتروريون قدامى لدينا. فذلك تجده فى روما وفى الجنوب.

"واضح فالأتروريون هم أكثر فى الجنوب، أيها اللعين لم يكونوا هنا ليضحكوا قط كما يضحكون ! لكن أى متحف هو هذا المتحف ؟.. لما أقول إنه من روما إلى الشمال ليست إيطاليا.. ولا حتى روما نفسها !"

يبرر الحارس فى هذه الأثناء مجموعاته :

– عندمنا قطع بديعة. بعضها من أحسن ما يعود إلى عصر النهضة. من كل شىء : رسم زيتى، نحت، سجاد، أسلحة...

"أسلحة ! خير من لا شىء، بما أننى قد دفعت..."

إن الأسلحة تستحق المشاهدة طبعًا. وتؤثر فيه.

"أولئك الناس كانوا رجالاً حقًّا ! متقلون بالحديد ومع هذا يقبضون على سيوف كبيرة كأنها رماح. وهذه الدبابيس ! ما أجمل الصوت الذى تحدثه فى الخوذة عندما تستحق رأسًا.. لو تركوا لنا دبوسًا لى وآخر لكانتانوتى، لقضيت على غمى. أكون موثوقًا إلى كرسى طبعًا : كل شىء بنزاهة... مثل أولئك الرجال، يا لهم من محاربين! بأناس كهؤلاء كان يمكن تشكيل أحسن فرقة حطابين. خلافًا لذلك فإن ميلانيى هذا الزمان... فاسدون !"

الأسلحة تستحق المشاهدة. نعم، لكن البقية لا قيمة لها. لوحات قديسين، زهيرات، مادونات (عذارى)، صور نبلاء وأساقفة... أحيانًا، امرأة بارزة النهدين، لكن لا أكثر من ذلك... والأطفال، لا أحد منهم يستحق المشاهدة ! وجوه ممتلئة الخدين، أذرع من زبد كالطفل عيسى. "واضح أن الطفل عيسى له أن يكون كذلك. فبما أنه كان ليِّن العريكة، سمح بأن يصلب، لكن لو كنت مكانه وكنت آتي بالمعجزات، حسب ما يدعون... لكن هؤلاء الأطفال، لا شيء. هكذا يصبح هؤلاء الميلانيون إذا كبروا. من حسن الحظ أن برونـاتينو يجدني أنا، علينا أن نتحمل إلى أن يتكلم، اصبري يا روسكا، اتركيني مدة أطول كي أعلمه كيف لا يكون مثل هؤلاء... ها هو يتعلم شيئًا فشيئًا...

"هل لاحظته البارحة، لما رجعت إلى غرفته وهم نيام ؟ لأن الليل لنا كما في الحرب. كان نائمًا، أتذكرين؟ وفجأة فتح عينيه، وأراد إخراج يده الصغيرة، أو البكاء لا أدري، لكن رآني بجانبه فابتسم هادئًا. هل لاحظت أية ابتسامة هي ؟ كأنها قبلة... أغمض عينيه لكنه كان يسمع كل كلماتي، حتى تلك التي لا أكاد أفكر فيها، ومن دون أن أنطق بها. إنها تدخل حشاياه يا روسكا، هذا الطفل ساحر. إنه يفهم كل شيء. تدخله كلماتي هذه التي لا تفهم هنا. إنها كلمات رجال ينطقون بوضوح!".

لا، لا يجد فى كامل المتحف طفلاً يستحق الاهتمـــام. بعــض اللوحات أثارت حتى الضحك، كتلك التى بها طفل مع قطيــع شــياه. "أين رآها هكذا هذا الرسام غير الموهوب ؟ بوجــوه كالأرانــب أو كتلقيح كلب وأرنب ! تغضبه إحدى اللوحــات. "رعــاة هــؤلاء ؟ – يزمجْر ناظرًا إلى زائر يتسلل أمام هذا الصوت المهــدد – لــو رآه "موروديتترو" الذى هو راعٍ بحق..! فحتى فى أركاديا تلــك، لــست أدرى أين وضعتها الشياطين، لا يمكن لراعٍ أن يكون بهذه الجوارب البيضاء، وهذه السراويل ذات الأحزمة وهذه الأكمام !... وما هــذه النصاحة الملونة فى المحجن[1] وتلك الراعيات بتنورات كالمناطيــد ؟... قليلو الحياء ! إن هذا عيد المرافع (كرنفال). كل هذا يغرى بأن تخرج الموسى فتشق كل الوجوه فى هذه اللوحة، لوحة المخنثين !... رعاة.... باه!

دفعه غضبه إلى الذهاب مسرعًا فى الخطى نحو المخرج. لكن يوقفه فجأة تمثال منحوت :

ليست فيه أية لدونة. بل العكس. يبدو وكأنه لم يكتمــل بعــد، لكنه مع هذا مفعم بالتعبير، حتى أن صلابته، الأقوى مــن الكمــال، تصبح صيحة ونداء للشيخ، صوت نفير.

---

(١) عصا معقوفة الطرف الأعلى.

هذان الشكلان المنحوتان بعشوائية، المتحدان فصارا واحــدًا، يذكر أنه بمنحوتاته القروية فى الهراوات والجذور. لمّا كان راعيًــا، هناك فى أعلى الجبل، كان ينحت بموساه فى ظل شــجرة قــسطل، ونتيجة لكثرة الطعن والقطع كان يخــرج بعــض الأشــكال : رأس بقرون، صفارة، امرأة بصدر ناهد، ولم يكن ينسى فيهــا شــقًا بــين الساقين.. كانت النتيجة مرة صورة أبى كانتانوتى. عرفــوه بحدبــه فكلفه ذلك لطمة من كبير الرعاة، ولو أنه نحت ذلك من دون قصد : من أين له أن يتكهن بخلافات تنشأ بعد سنوات ؟ إلا أن ذلك الجــذع كانت به جدعة بارزة فى المكان المناسب. لعل ذلك أتى نتيجة عــين أصاب بها الكانتانوتى الشيخ.

لكن الأمر الآن ليس أمر عصا خشنة، بل هــو أمــر جــدير بالاعتبار. يدهش الشيخ : نحات جدير بالمقاتلين بالــدبابيس. ليــست هذه صغائر. يقوى التأثر فى الشيخ. ذلك الفنان كان من طينته. لهــذا كان يشتاق إلى فهمه فهمًا أحسن : ماذا نحت فى هذه الصخرة ؟ مــا الذى أراد أن يقوله لنا ؟.. هذا الشخص الواقف، بخــوذة مــستديرة ومعطف معينًا رجلاً عاريًا انطوت ركبتــاه مــن أثــر الغيبوبــة أو الاحتضار... ما اللغز المكنون فيه ؟

وكى يكتشف الشيخ السر، راح يقرأ اللافتــة، لكنــه يحــرك رأسه غير مصدق : ميكال أنجلو : رأفة رونــدانينى، هكــذا قالــت اللوحة.

"مستحيل !... امرأة بخوذة ؟ وحتى لو كان معطفًا يغطى الرأس؟ كيف تكون مادونا (العذراء) ؟ وهى التى رسموها دومًا كطفلة وشىء قليل ؟ عذراء بهذه القوة، منتصبة راسخة مؤازرة، حاملة المسيح ؟.. هذا لا يكون إلا إذا كان ميكال أنجلو من كالابريا؛ حيث لا تزال توجد نساء بهذا النشاط... لا، الأمر هو أن الميلانيين هؤلاء لا يفهمون. كتبوا رأفة لأنهم لا يعرفون بماذا يحتفظون هنا... واضح، لو أنهم فهموا ما هو حسن، لكان عندهم أترورريون."

وحيث إنهم فى ميلانو لا يفهمون هذا النحت، فإن الشيخ يزداد اهتمامًا بهذيْن الجسديْن المبهميْن.

"مقاتلان. ذلك ما يجب أن يكونا. محاربان من تلك الأزمنة، لا شك فى هذا... نعم، كل شىء واضح : أحدهما جرح والرفيق يسنده ويحمله إلى مكان أكثر أمنًا ! كأنا وأمبروزيو، مثل الأخويْن... نعم لأن الذى يلبس الخوذة يتألم. عليه علامة الشجاعة، لكنها مفعمة حسرة... من هما ؟ من أى زمن ؟

يسأل الشيخ محدثًا المرمر كرجل لرجل؛ كى يعجب أكثر بهذا الحنان الشديد، هذا الحب الرجولى العميق، المجسم بغموض فى هذه الحجرة. يسأل سؤال ند لند؛ لأنه لو أخذ إزميلاً مرة ما، لواجه هكذا صخور جبله.

يعدل بعد فترة، ولو أن ذهابه من دون ذلك جعلــه يــدرك أن مــن الصعب عليه أن وراءه المحاربين، كما ترك في "فيلا دجوليا" تمثــال الأتروريين. هذا مع أن الأمر الآن مضاد. أو هكذا يبدو لا غير ؟ إن النحتيْن قد استوقفاه، واتجها إليه متحدثيْن في عمق : هذه القــوة مــع الألم وتلك الابتسامة فوق القبر. يبتعد مجللاً بتأثر شديد. ومعه كــذلك الحسرة لعدم تمكنه من تحديد ذكرى مهمة تسعى لتطل في داخله.

في ليالي الريح الجنوبية، يــسمع الــشيخ أصــوات أجــراس الدوومو، على الرغم من أن النافذة مغلقة. فهل هذه الأصوات توقظه الآن أم هي ذكرى المحاربين اللذيْن ظلا، طوال النهار وكــذلك فــي المنام على ما يبدو، يطرقان أبواب ذاكرته المغلقة ؟ الحال هي أنــه صحا لتوه فجلس فجأة على الفراش، وعيناه مفتوحتان جدًّا، كل جسده تيقظ.. هذه الخطوات المختلسة... من يقوم بالحراسة هذه الليلة فــي المقدمة ؟ هل باغتوه ؟ كاد أن يضع يده على الرشاشة، ولكنه تــذكر أنه في الجبل. فالخطوات قد تكون لريناتو، قادمًا نحو الطفل...

يبتسم الشيخ، ثم يضطجع متنعمًا.

لكنه لا ينام، بل بالعكس؛ لأن المحاربين حطَّمــا – فــي النهايــة – أبواب الذكرى، ويصعد الماضي في الظلام فيبهر :

"تورلونيو"، أطول وأقوى من في الفرقة لابــسًا فــي رأســه القناع، كالخوذة والمعطف في التمثال، يسند دافيد محتــضرًا فيكــاد

يوقفه على رجليْه وإلى أعلى ما يستطيع؛ كى يمكنه من رؤية المشهد الساحر الذى أثاره المقاومون هناك فى أسفل الوادى، الألمانى الناقل للذخيرة منفجرًا فى كل الأنحاء كحريق لا يبقى ولا يذر... برق وانفجارات تمزق الليل، وسقوف عربات تتطاير فى الهواء والجنود القليلون الذين نجوا يهربون مذعورين، وبعضهم، بزيه الملتهب، ويلقى بنفسه فى ماء الكراتى".. كانت العملية البطولية ضربة قاسية للجيش الألمانى الجنوبى، والذى نفذها هو داڤيد، بمفجراته ومركباته وأسلاكه ونظاراته السميكة لأنه أحسر.

داڤيد الصغير، اليهودى الفلورنسى، الطالب فى الكيمياء والذى عين فى الفرقة لمعارفه التقنية. داڤيد الذى كان يضحك منه الجميع عندما يعتّرف بخوفه قبل كل عملية، وعلى الرغم من ذلك فإنه يخاطر فيها، كأول المتقدمين. داڤيد الذى عندما فشلت فى تلك الليلة تجربة الحريق؛ عاد فنزل وحده حتى بلغ السكة الحديد، فنظم الاتصالات والقطار على وشك الوصول، فاكتشفوه وهو ينسحب، محاولاً عبثًا إنقاذ نفسه صاعدًا إلى الجبل، هاربًا من المدافع الرشاشة. ومع هذا فقد جمع قواه حتى وصل إلى رفاقه. داڤيد الذى أضاع نظاراته فى سباق حياته الأخير، أفصح فى ضوء الانفجارات الأحمر عن عينيْن سوداويْن جميلتيْن معبرتيْن وعميقتيْن.

جميلتان إلى أن بقيتا ثابتتيْن ثم علتهما غشاوة، بينما الجسد، وقد انثنت ركبتاه يتساقط نحو الأرض بين ذراعى تورلونيو

المشفقتين، تورلونيو الذى بدأت الدموع تبل نظرته فى وجه هدمته التى تثير الشفقة.

(١٦)

رس، رس، رس...

تمر الشفرة وتعود على العثنون المطلى بالصابون. صوت يكاد لا يسمع إذ الشيخ يسمعه من الداخل عبر العظام. كذلك الماء لا يحدث صوتا وهو سبيل؛ لأنه يقع على الإسفنجة الموضوعة فى أسفله قصدًا. لا يشعل الشيخ نور بيت الحمام، يصله ما يكفى من نور المدينة، التى لا تظلم؛ فهى مسربلة دومًا دومًا بنور خافت.

إن الماء الساخن لا يصلح لإنعاش المرء ! لكن للحلاقة الماء الساخن أفضل من البارد، لا بد أن تكون له ميزة. وعلى الرغم من هذا، فإن مرور الشفرة فوق شعاب العثنون يحدث هذا الصوت الخفيف الشبيه بصوت منشار صغير. بعد كل مرتين لا بد أن يرمى بالشفرة، ولو أنه يبتاع الرخيص منها والأكثر خشونة. إن هذا يهدئ من روعه ويعوضه عن شعوره يوميًا بأن وجهه وجه امرأة، فقد كان يحلق مرتين كل أسبوع فى روكاسيرا. عثنون رجل بحق، مثل يديه اللتين لم تبدوا له أنثويتين إلا فى أحلام ذلك اليوم. هكذا يفكر على الرغم من الحلاقة الشديدة؛ ففمه محافظ على زرقته. الخلاصة، بفضل هذه العناية لم يسحب بروناتينو خده الصغير، تلك الليونة الحريرية والياسمين.

يأخذه ويضمه لما لا يرونه. هذا لا يعجب أندرييا. فبالأمس كانت تشتكى لآنونسياتا؛ ظانة أنها غير مسموعة فقالت : هذا الطفل كأنه يفوح تبغًا. يا إلهى ما هذا العذاب! "غضب الشيخ لهذه الكذبة. أولاً لا تشم، ثانيًا لأنه ألغى حتى سيجارة الضحى، التى كانت تهدئ الدويبة. "يا روسكا، افهمى ذلك، عليك أن تضجرى مثلى ولو صعب علينا ذلك"

جرح نفسه قليلاً بفرح : هذا تعالجه حجرة الشب، ثم إن قليلاً من الدم يظهر الرجولة فى وجه أملس يتشبث تفكيره الشارد بهذه الكلمة : أملس. أمدرييا كذلك. بلا نهود ولا أوراك و لا عجز مثل قساوسة "ريدجيو"... ما الذى أعجبك فى هذه المرأة يا بنى ؟ لهذا تبدو جادًّا دائمًا. أراهن أنك فى المضجع لا تفعل سوى ما تسمو لك بفعله، هذا إذا لم تقل إن بها صداعًا، هل كان أبوها المتباهى حقًّا عضوًا بمجلس الشيوخ ؟ يا له من برلمانى ولا ليرة له ؟ أنا لا أثق أبدًا فى أعضاء مجلس الشيوخ؛ فكلهم تغوطوا بسراويلهم نازلة أمام موسولينى."

غير أنه بينما كان يجفف وجهه، أجبرته عضة من الروسكا على الانحناء. لقد باغتتها المفاجأة فقضت الليلة مضطربة، تدور من دون أن تستقر مثل الكلب قبل أن ينام. ولما هدأت، لم يستطع الشيخ أن يصالح النوم إلا متأخرًا. كان يشتاق إلى الألم، كما لو كان الألم هو الطبيعى.

يجلس فى المرحاض وينتهى بسرعة. ينهض ويرى. "دم، مرة أخرى. واضح، حركة الروسكا البارحة. فى مرحاض القرية لم أطلع على شيء، لكن فى هذا الفنجان الرقيق يقدمون النتيجة للمرء كما لو كانت فى نافذة عرض. دمى، حياتى، تهدر يومًا وآخر أيضًا.. كم بقى لى ؟

الحال هى أنى لا أشكو ارتعاشًا، ولا أية علامة مما يتحدثون عنه."

ينظر إلى نفسه فى المرآة. وجهه لم يتغير. صحيح أن العينين السوداوين كعينى بروناتينو يظهر عليهما ضباب خفيف أبيض حول القزحية[1] لكن هذا كان كذلك منذ زمن بعيد. نعم، مثل عينى برناتينو، ولكن فى وجه شيخ. وبعكس ذلك، فإن الابن قد ورث اللون البندقى عن أمه.

"يا مادونا، اتركينى أعش شهرًا واحدًا أكثر من الكانتانوتى، من فضلك ! سأحمل لك شمعة، أغلظ شمعة أجدها !.. وإن بقيت مدة أطول فهذا أفضل للطفل.."

نعم، لم يعد يكتفى بالشهر الذى كان يكفيه سابقًا؛ كى ينتظر على العدو. أصبح الآن يفكر فى بروناتينو، الذى يحتاجه للخروج من البئر الميلانية...

---

(١)الدائرة التى وسطها حدقة العين.

يلمس صرة تمائمه ويعود فينظر إلى نفسه فـي المـرآة : لا يلاحظ أى تغيير. "هل تجدنى روزيتا كما كنت، لو رأتنى بعد شـهر من خروجى من هناك ؟ شهر بالضبط فى يوم كهذا لما وجدت فـي طريقى الأترورييين!.. مسكينان، لو كان عليهما أن يعيشا فى ميلانو. أنا فرح لهما بأن لا يوجدا فى هـذا المتحـف. سيـشعران بأنهمـا كالسجينيْن."

يرهف السمع فجأة. جدران المدينة هذه تـسمح بـسماع كـل شىء، ريناتو وزوجته فى غرفة النوم :

– ألا تنامين يا أندرييا ؟

– كما لو كان هذا يهمك...

– اضطجعت متعبة يا امرأة... هل أنت مريضة؟

– لم أعد أتحمل !... إن ما وقع قبل أيام بلغ الحد. سيجعل كل الحى يعادينا. بعد أن نجحت فى أن تعنى بى بائعة الفاكهة من بـين زبائنها الرفيعة.

يسمع تنهد ريناتو "كم عساها أعادت عليـه حكايـة سـارقة الإجاص ؟" – يفكر الشيخ متمتعًا. كيف ترك تلك الوقحة ؟ ! طبعًـا، لا يعير بقية الحوار اهتمامًا؛ لأنه يريد التصالح مع نفسه، وجمع كل شىء؛ حتى لا يشعرا بغاراته المبكرة. لكن يعيد الاستماع فجأة. يبدو أن الأمر أصبح شجارًا.

- أنت المذنب. كيف خطر لى تكليفك بالمسعى فى "فيلا دجوليا" ؟ كان على أن أتكهن بأنك ستنتهى بالقضاء على كل شىء !

لا يتمكن الشيخ من سماع الإجابة. ريناتو بتكلم بصوت خافت، بينما هى تثور أكثر.

- تَعّلات ! كانت القضية سائرة سيرًا حسنًا بفضل تأثيراتى فى روما. كلهم أصدقاء أبى، حتى مساعد كاتب الفنون الجميلة ذكرنى بأن العم دانيال كان سلفه !... لكن جئت أنت طبعًا و... أى انطباع تركته فى مدير المتحف؟ كيف أمكن ارتكاب مثل هذه الهفوة؟

-...

- أنت لا تصلح لشىء يا ريناتو !... اسكت، اسكت، فالشىء نفسه يجرى لك فى المصنع ! يستغلونك، لا قيمة لك، كلهم يرتقون قبلك، كلهم ! لقد كان من حقك أن تصبح رئيس المخبر ! أنت نفسك كنت منتظرًا ذلك!

-...

.. يرفض إعطائى المنصب، أنا الحائزة جائزة فوق العادية ! أنا ابنة عضو الشيوخ كولومينى فوق شىء. لو أبى المسكين حيًّا؛ لخسر وظائفهم أكثر من أربعة. لكن، لأنى وحدى... لأنك أنت كل شىء..!

تسمع ضحكة خفيفة. وبعد ذلك كلمة واحدة لكن بصقت كالسم:

- ملعون أنت.

عينا الشيخ تتطايران من الشر غضبًا. لا يزال الحزام بيده، فهو لم ينطقْ به بعدُ. يقبض عليه من الإبزيم ويفتح بعنف باب الحمام. ابنه لا يعرف ترويض هذه المرأة، لكنه سيعلمه.

لكن الباب الموارب في الممر، بنوره الأحمر الصادر عن الفجوة، هو باب بروناتينو. يتوقف عنده برهة ما يكفى لأن ينفجر فى البيت الصراخ.

صراخ، نعم، وقوى جدًّا ولو أن الصوت مختنق:

- اسكتى ! وإلا سحقتك !

"أتقدر على ذلك؟" - يتساءل الشيخ - لكن صراخ ريناتو كان كافيًا؛ كى يتهلل وجهه جذلاً؛ لأن صمت المرأة المفاجئ، وصدمة جسدها ساقطًا على الفراش، يصرحان بخضوعها. فهى حائرة حتى أنها لم تبكِ. والصمت المفروض من ريناتو يثقل ويهيمن على المنزل.

يتراجع الشيخ نحو الحمام، ويعود فيغلق الباب فى صمت. يتنفس مليًّا. وأخيرًا ! قد كاد يشك فى أنه ابنه ودمه نفسه يجرى فى عروقه.

"هذه ليلة سيئة... من يدرى إن كان هناك سحر، إن كان قد كلف الكانتانوتى بعض"الماغارا" (السحرة) ضدى... عندما ينامان فى فراشهما سأذهب إلى بروناتينو كخفير، سأقوم بالحراسة إلى جانبه.. هذا فعلاً من دمى ولدته تلك ! إنه يفهم ويشم ويسمع مثلى.. هو فعلاً من دمى !"

دم... لا يزال هناك، صابغًا الماء بين لمعان الخزف الأبيض. لقد نسى جذب الصفاد. لم يتعود بعد.

يمسك بالصفاد ويديره؛ فيصدر ضجيج يقضى على الصمت. إنه شلال حامل دمه.

(١٧)

أندريبا تتنقل جيئة وذهابًا حانقة؛ لأنها تكره الوصول بعد بع الوقت إلى الدرس وآنونسياتا لم تظهر. انزوى الشيخ حذرًا فى غرفته؛ كى يغيب من أمامها. فجأة تطل هى :

أتجرؤ على البقاء وحدك مع الطفل يا أبى ؟ هو نائم ؟ هو نائم الآن وآنونسياتا لن تتأخر. لا بد أن تأتى. لو حدث لها مانع لهاتفتنى!

"وتسألنى لو كنت اجرؤ... إن ما لا تريد أن تتركه لى هو أنت!" يضحك الشيخ فى داخله. ويدارى سعادته مظهرًا وجهه المجامل. تذهب أندريبا ويبقى هو راجيًا المادونا أن توقظ بروناتينو؛

كى يأخذه بين ذراعيه. وفى هذه الأثناء، يدخل غرفة نوم الصغير، ويتأمله ثم يستعد للجلوس على البساط. لكن لا يترك له الوقت : فالثقل الموازن للمصعد الذى نزلت فيه أندريبا لا يزال يرن لما سمع صرير بكرات مصعد الخدم...

"لقد أفسدت على العجوز. يفكر وهو يخرج إلى الممر من دون رغبة.

يوقفه الاندهاش أمام المشجب، فتاة تعلق شالاً أصفر وتخلع عباءة من الصوف المغروز. ترتدى رداء بنفسجيًا كما لو كانت غجرية، بها رسوم شرقية مطبوعة وتلبس حذاء بندقى اللون. وتعلق أيضًا حقيبة يد من الجلد كبيرة، وتخلع الآن الكمة مطلقة شعرها الطويل الأسود. لما التفتت أظهرت مطروزات ملونة فى صدرها من فوق قميصها. تبتسم، فم كبير وأسنان شديدة البياض. تتقدم :

- تزيبو رونكونى، أليس كذلك ؟ أنا سيمونيتا ابنة أخت آنونسياتا. خالتى أصبحت مريضة.

تقدم يدها كالشاب. يصافحها الشيخ ولا يستطيع القول إلا: "مرحبًا!" وتواصل هى :

وصلت متأخرة، أليس كذلك ؟ حركة المرور الملعونة ! من شارع مارترى أسكورى إلى الميدان تتوقف الحافلة رقم عشرين فى كل حين ! أوف، ميلانو مدينة كريهة !

تتكلم وهى تتقدم إلى حمام الخدم من دون أن تحدث صوتًا، أو تكاد بالرغم من الحذاء. يتبعها الشيخ بعينيه حتى غابت القنورة غير المستقرة قبل أن يقبض عليها الباب الذى أغلقته الفتاة.

نساء روكاسيرا أيضًا كن يرتدين ملابس عريضة لما كان صغيرًا حمراء للمتزوجات، وسوداء للأرامل، وبنية للعزب، وبها زخرف من لون آخر. هن أيضًا كن يطرزان أشكالاً شعبية ملونة فى صديراتهن السود، لكن كن يطوقن أكتافهن أيضًا بطرحات مثلثة الشكل يعقدنها من الخلف. كان بعضهن يغطين رؤوسهن بالفانكالا، وهى قبعة "تيريولو" ومنطقتها. لا يلبسن الحذاء، بل النعل الخشبى أو المصنوع من القنب، ولا يخرجن أبدًا من مضجعهن وشعرهن مطلق. "ومع ذلك فهذه مثلهن : تضحك بالأسنان نفسها، وبهذه العيون السود... نعم، العيون نفسها : تلك فتيات روكاسيرا !"

تظهر الصبية من جديد. ثوب خالتها الواقى يطوق معالمها الأنثوية، لكنها تلبس جوارب صوفية خشنة.

– إن بابوج خالتك فى... يفسر الشيخ، ولكنها تقاطعه :

– لا أحتاجه. أنا دائمًا هكذا فى البيت.

فتيات روكاسيرا أيضًا من عاداتهن المشى حافيات؛ عندما يكون الجو ملائمًا وحتى خارج البيت. توفرن هكذا استهلاك الجوارب و...

يقطع الشيخ اشتياقه ويجرى نحو غرفته؛ حيث دخلت الفتاة ومعها أدوات التنظيف. "مادونا، ستكشف المبولة !".

فعلاً. كادا يصطدمان عند الباب. هى تحملها فى يدها لتفرغها، والشيخ يقع فى حرج. "لماذا ؟" – يعاتب نفسه فى الحين – "هذا عملها، عمل نساء."

– اترك، اترك، أحملها أنا – تقول الفتاة باسمة، محتفظة بالمبولة فى يدها – فى منزلنا كنت أفرغ مبولة أبى... هو أيضًا من الجنوب، من سيراكوزا.

– إذن تعجبه أنواع الجبن القوية... خطر على الشيخ خاطر، مهيئًا هكذا تفسيرًا لمؤونته المخزّنة، الخاصة والسرية، إن اكتشفتها الفتاة. لكن سيمونيتا قد أنذرتها من قبل خالتها بأن لا تظهر معرفتها بمخابئ فى فجوات السرير.

– نعم، كانت تعجبه كثيرًا، كما تعجبنى.. لقد مات فى حظيرة شغل. كان بناء وماتت أمى بعده بقليل. هى أخت آنونسياتا.

– كانت البنت وهى تتحدث قد شرعت فى تنظيم الغرفة بمهارة. أما الشيخ، فبدل الانسحاب كما فى الأيام الأخرى، واصل تلذذه بالمحادثة. "فتاة تكره ميلانو... مرحى، تستحق الإصغاء إليها!"

– أكره ميلانو طبعًا. يسحرنى الريف والحيوانات. كلها... كلها – تؤكد ضاحكة – حتى الذباب !... لهذا أدرس البيطرة.

يتذكر الشيخ بيطرى أيام شبابه : سمين، أحمر، برقبة خشنة وأربة[1]، تاركًا دائمًا رماد السيجار يسقط حتى لما كان يعالج الحيوانات.

– كان لزامًا إنزالها له إلى "سرسالى" – يحكى لسيمونيتا – كان لا يتكلف الصعود إلى روكاسيرا إلا ليأمر بقتل النعاج أو الشياه، لما تنتفخ بطونها نتيجة الوباء... كنا نخيفها عنه، ولو جاء مرفقًا بالكارابنيارى (الحرس الوطنى) لأن بعضها كان ينجو، ثم إن ثمن عنز، هى عنز ! من المؤكد أنك تصعدين الجبل، أحسن من ذلك آكل حساء الحكومة، صديق الماركيز... لأنك، ولو كنت من أى نوع من الطالبات شئت، فظاهر أنك لا تتعالين عن التنظيف، ولا على استعمال اليدين... ألا تشعرين بالحرارة مع هذه التدفئة، وتلك الجوارب الخشنة ؟

– ماذا تقول ؟ ليست جوارب طويلة بل قصيرة كى لا تخدشنى الحذاء. ترفع الطيلسان؛ كى لا تكشف عن الركبة عارية. "هكذا تخرج تلك الفتيات فى روكاسيرا أيام شبابى – يشرح لسيمونيتا – إلا أنهن كن يسمين هذه "ميدياس"؛ لأنهن لم يكُنَّ يجدن أطول منها. "يمتنع الشيخ عن الإضافة بأن أيهن لم تكن لتكشف عن ركبتها بهذه السهولة. فالشاب الذى يحصل على ذلك من واحدة يمكنه أن يتوقع كل شيء... وينتهى بالحصول عليه.

---

(١) ربطة عنق.

يساعدها الشيخ فى إنهاء ترتيب الفراش، وتقبل هى ذلك من دون تكلف، كما كان ذلك أيضًا فى غرف أخرى. وفى وقت ما، تنظر إليه سيمونيتا بدهشة كما أنها أدركت شيئًا :

– كنت أظن أن الرجال فى الجنوب لا يقومون بهذه الأعمال.

– ولا نقوم بها. لكن هذا ليس الجنوب.

يفهم الشيخ أن ما قاله غير كافٍ، ويشعر كأنه فوجئ وقد أتى منكرًا. لكن تخطر على باله ذكرى اعتذارية :

نحن أيضًا لا نعتنى بالأطفال، وها أنا أعتنى بطفلى... ثم إننا فى إثناء الحرب، داخل الفريق، كنا نقوم لأنفسنا بكل شىء : الغسيل والخياطة والطبخ... كل شىء.

تقطع الفتاة الكهرباء على المكنسة الكهربائية وفى الصمت المفاجئ تنظر إليه بعينين لامعتين :

– هل كنت مقاومًا يا أستاذ ؟ يا للروعة !

جاء الآن دور عينى الشيخ فى اللمعان : إنه من النادر جدًّا أن يوجد شبان يهتمون بالحرب ! لا يريدون سماع الكلام عنها، لكن أى مصير كان ينتظرهم الملعونون، لو لم يقاوم شيوخ اليوم، لكانوا الساعة عبيدًا للألمان !

– أين قاومت ؟ أين ؟ – تسأل سيمونيتا .

- أين كان يمكن أن يكون ؟ فى سيلا، فى جبالى ! هناك لم يكن أحد يستطيع مطاردتنا، فى سيلا الكبيرة وفى الصغيرة. كنا نصل أحيانًا حتى سيلا اليونانية لنلتحم مع مقاومى تلك المنطقة. لكنهم لم يكونوا يحتاجوننا، يا لهم من مقاومين. إنهم منحدرون من الألبانيين، أتعرفين ذلك ؟ جاءوا زمن الأتراك. لا يزالون محتفظين حتى بقساوستهم الأرثوذكسيين، لأنهم يقاسون هم أيضًا من الرهبان. لكن قساوستهم يتزوجون وكانوا شجعانًا. ففى مرة...

يشتغلان ويتكلمان، يكدحان ويتذكران. بالنسبة إلى الشيخ فكأنه اجتمع برفيق، وراحا يستعيدان ذكرايات تلك الأيام... وفجأة بكى الطفل: يجريان نحو غرفة النوم الصغيرة. ينظر الشيخ الوقت فى ساعته. عجيب كيف انقضى الصباح بسرعة !

تجامل سيمونيتا الطفل الذى يحرك يديه ويضحك وهو جالس فى المهد، تاركًا خيطًا من لعابه يسقط.

إنى أثير حبوره.. أثير إعجابه ! انظر كيف يضحك! تفتخر الفتاة وتضيف : هل أستطيع رفعه أو أنت أيضًا تقول إن ذلك غير حسن ؟

وحيث إن الشيخ يضحك بدوره، محتجًا على أن ينسبوا إليه ضلالاً كهذا، ترفع الفتاة الطفل وتضمه فى حركة سريعة وأمومية تلقائية جعلت الشيخ يتأثر. "تزييا" (العمة) بانغاناتا، طورطورلا، تلك الأمهات من روكيرسيرا...!

يشعر الطفل أيضًا بحرارة الحركة، ويقبع كالقط الصغير بالنهديْن والذراعيْن اللتين تضمانه. يطوق بيد صغيرة رقبة الفتاة، بينما يمد الأخرى نحو الشيخ، الذى يقترب، منه حتى يشعر بالذراع الصغيرة حول عنقه. يضغط الطفل ويضحك.

هذه الرائحة الأخرى بجانب رائحة بروناتينو، هذه الملاطفة التى تمس شَفَاف جلده تفصح للشيخ عن أن رفيقه فى الشغل والذكريات الحربية هى امرأة. من امرأة أيضًا تأتى هذه الأنفاس وهذا الوجه القريب جدًّا من وجهه...

يزعجه هذا الاكتشاف، لكن بطريقة جديدة؛ لأن الفتاة بهذا الطفل بين ذراعيها صيرت نفسها أمًّا. أم بروناتينو.

يتنهد الشيخ أمام هذه الحيرة. سرعان ما تعب الطفل. يصارع بساقيْه ويمد يده الصغيرة نحو طبقه الفارغ، أسطوانة صفراء من البلاستيك فوق الصوان. تقول سيمونيتا :

– دقت ساعته، أليس كذلك ؟

– نعم لا بد أنه جائع.

– ابق معه. سأحضر له ما يتبلغ به.

– أتعرفين كيف تحضرينه ؟ – يندهش الشيخ لأن فتيات هذا الزمان يجهلن هذه الأشياء

– لقد شرحت لى ذلك خالتى، ثم إنى حضنت أطفالاً. كنت au pair (تسكن وتأكل فى بيت مقابل العمل) فى سويسرا العام الماضى. ماذا تظن نفسك ؟

قالت ذلك وهى بعد الممر، قالته بصوت باسم متحد. يبقى الشيخ فى المضجع الصغير. "كم يحتاج الطفل الصغير ! إطعامه، تغيير شماله فى كل خطوة، غسله، إنامته، مداواته... وأشياء أخرى أكثر صعوبة : إلباسه هذه الأحذية الصغيرة التى يخلعها بروناتينو بكل سهولة، مساعدته على طرد الهواء الذى يبتلعه وزر هذه الأزرار اللعينة... يجب أن يكون المرء امرأة؛ كى يتحمل كل هذا أشهرًا وأشهرًا... حسنًا، أعنى امرأة يجب !"

يدهش الشيخ كيف تمكنت طالبة أن تستحوذ هكذا على الطفل، الذى لم يتناول قط طعامه بهذه الوداعة. يأخذانه بعد ذلك إلى المطبخ؛ حيث يثير عبثه ولمسه كل شىء يخط أندريا، فى الوقت يطلق فيه عنان ضحك سيمونيتا التى تلعب مع بروناتينو بينما تعد بعض الأطباق. أما الشيخ، فهو يقحم نفسه فى هذا الحفل، ويبوح بسر خزانة مؤونته الخاصة، فيأتى بمأكولات جنوبية كى يدخل السرور على عالم طعام أندريا البارد.

– يا له من جبن لذيذ – تعبر سيمونيتا وهى تلتهمه. وبروناتينو يرغب فى تذوقه طبعًا.

- لو ذقت الجبن الذى نعده فى منزلنا... الراسكو المدخن أو البوتيرى وبداخله الزبدة... لكن لا بد من أكلها هناك؛ حيث يطيب طعمهما، وخاصة فى المضحاة خلف البيت مع مشاهدة الجبل عن بعد. أو فى يوم تقاوم فيه عصرية فى ظل شجر القسطل.. هناك تحت الأشجار وفى أيام الصحو يشرف المرء على كل البلد تقريبًا حتى يبلغ بحرنا، هناك بعيدًا !

تفصح سيمونيتا وفمها ممتلئ، يعجبنى البحر كثيرًا.

- حماقات ! وأين يوضع الجبل الذى كل شيء ؟ البحر ليس للرجال. لو كان لهم لولدنا بزعانف[1]، أليس كذلك؟ ولو - يضيف مفكرًا - أنى عشت أيامًا قرب البحر، بحر ريمينى شديد الزرقة فى منتصف النهار وبنفسجى بالمساء...

تنهض الفتاة لتأخذ النبيذ وتتوقف وهى تدور بكرسى الشيخ. تلاطف له رأسه من خلف من دون عواطف وتصرخ فى لهجة طبيعية مفحمة :

- يعجبنى شعرك يا تزييو : لون رمادى متساو وكث وخشن... حبذا لو استطاع رومانو أن يصبح مثلكَ لما يشيخ !

---

(١) الزعانف هى أجنحة السمك.

– وأنا يعجبنى أن تنادينى تزييو – يجيب الشيخ مواريًا حيرته التى ازدادت لما رآها تشرب بحيوية، حتى أن خيطًا أحمر زلق من الذقن الأنثوى مذكرًا بالدم. دم، كما لو أنه عض على شفتها، دم من هذا الجسم المستدير الفتى... لكن ها هى تمسحه بظهر يدها، فيستعيد الوجه براءته الضائعة.

تشرح بعد ذلك أن رومانو هو صديقها.

– يدرس الطب يا تزييو، فهكذا نعالج الشعب بيننا الاثنين، بشرًا وحيوانات ! هو شيوعى مثلى. – وتختم كلامها ضاحكة أكثر فتقول : خالتى آنونسياتا لا تتحمل رؤيته.

– إن الشيوعية خيالات يا فتاة. أرضى هى أرضى، فكيف ستكون لآخر ؟.. لكن نعم. شيوعيوك قاوموا فى أثناء الحرب بقوة وبطش وشجاعة، وكانوا نعم الرفقاء. ولكن تغيروا فى النهاية ككل من يرتمون فى السياسة والشعارات.

– كل، لا ! تتحمس هى – ويجب أن تكون السياسة من أجل الحرية... أو أنت تظن أنه فى الإمكان إصلاح أى شىء فى كل شعب من دون الاهتمام إلا بأراضيكم ؟

شرعت وهى فى تحمسها، تخاطبه ندًا لند، كما تخاطب رفيقًا، وبعد الانتهاء من تنظيم المنزل، يتحولان لمشاهدة التلفزيون...

في قاعة الجلوس، يحتد النقاش، الذى يُثار من حين إلى آخر؛ لإنزال بروناتينو من المقعد الذى تسلق إليه، لأخذ المنفضة الرقيقة من طراز مورانو من يده. يفكر الشيخ وهو يستمع إليها "إنها تتكلم كما فى الاجتماعات العامة. هؤلاء الشيوعيون لا ينقصهم لسان!"

تعرض سيمونيتا آراء وتعترف بأنها مدينة بها لخطيبها. فقبل أن تتعرف إليه لم تكن، تفكر إلا فى اجتياز الامتحانات والحصول على المال بعد ذلك، لكن رومانو جعلها واعية... آه يا رومانو !

– واضح أنه يريد مضاجعتى ! تجيب بصراحة عن تلميح من الشيخ، وأنا أيضًا ! ما الذى تقوله عن خمس عشرة سنة يا تزييو ؟ أليست لك عينان ؟ لقد قفلت التاسعة عشرة !

"فتياتى فى روكاسيرا كن فى الثالثة عشرة حذرات ومتحفظات مثل النساء. خلافاً لذلك، سيمونيتا هذه.. حرة كالفتى !.. الأمر هو أنها تحسن ويبدو – منها ذلك حتى جميلاً نظيفًا." يفكر الشيخ مندهشاً لآرائه تلك.

– لا لم نضطجع بعد، لا أدرى لماذا... – وفى جدية مفاجئة تواصل : لم تحن الساعة بعد... لا نريد البدء بأى وجه كان. رومانو يقول : يجب عدم إفساد المبدأ. نحن ننوى القيام برحلة حسنة لما يتوفر لدينا المال الكافى... وعندما سنثأر – تواصل مرحة من جديد – ماذا تقول ؟ – حركة كحركة من أحس بإهانة – إنه جميل طبعًا، أجمل منى!

"أجمل منها ؟ - يشك الشيخ فى ذلك - من المؤكد أنه لا يمكن وصفها بالجمال، الجمال... ولا حاجة لها بذلك ! فهى تملأ المنزل.. وحتى الإذاعة المرئية تصبح مهمة بتعليقاتها."

الساعات تطير. لما وصلت أندريا، دفعت مستحقات الفتاة واحتمت وراء أوراقها، وسيمونيتا وهى بالباب مرة أخرى تبدو وكأنها دخلت لتوها. لكن الأمر بالعكس، لقد أنجزت وهى تتهيأ للذهاب. يريد الطفل منعها متشبثًا بردائها وصارخًا، لكن تأتى أندريا وتأخذه إلى الداخل. يساعد الشيخ سيمونيتا على ارتداء عباءتها، وتضع هى الكمة وتسوى شعرها أنثويًا. تعلق الحقيبة على كتفها وتطوق عنقها بالشال الأصفر وتلتفت تاركة ابتسامتها تشرق وتقول ببساطة : ما أطيب الوقت الذى قضيته.

تمد يدها كما فعلت عند القدوم، كأنها رفيق لكن. تغير رأيها قبل أن يصافحها الشيخ فتضع يديها على كتفيه، مقبلة إياه بلطف فى خديه.

- أريڤادتشى تزيبيو برونو (إلى اللقاء يا عم برونو) arrivederci.

- إلى اللقاء يا شيوشيلا - يجيب الشيخ فى وقار وهو مبارك بلمس هذه الشفاه.

تفتح سيمونيتا الباب قليلاً، تنزلق عبر الفجوة وتغلقه رويدًا، تاركة إياه كرهينة، تموجات نظرة أخيرة وهى تبتسم فى تواطؤ ساذج.

يسمع الشيخ باب المصعد. يصل رويدًا رويدًا إلى غرفة النوم الصغيرة؛ حيث يجلس قرب الطفل الذى نام أخيرًا. فى شبه الظلمة المسائية يبرز لهب الفراشة الكهربائية التى وصلتها أندريا بالقابس[1]. يخيم الهدوء برائحة بروناتينو اللبنية والجسدية. ويؤطر الصمت تنفسه الهادئ.

تدق أجراس الدوومو على أجنحة الريح الجنوبية. الساعة السادسة ! يدرك الشيخ أن الدويبة قضت كل يومها هادئة... واضح، لقد سحرتها هى أيضًا الفتاة التى هى مثل تلك الفتيات بمناسبة "سانتا كيارا" كان الناس يصعدون حتى غابة القسطل البلدية من درب المنسك، على طول الجدول، حاملين على أكتافهم أرغفة خبز القديسة، خبز يبتاعونه عند الظهر بالمزاد. فى الغابة وبعد آخر الكروم، ينبثق الينبوع فى حفرة صافية جدًّا؛ حيث لا يترك الماء الفائض الفرصة لملاحظته إلا بتموجات التدفق. حان فصل أكل العنب وعلى الرغم من أن الأمسيات كانت لا تزال بطيئة بألوانها الذهبية الصيفية، فالغروب يريق سويداء خريفية. إن الناس فى هذه المناسبات يكونون قد استراحوا من الحصاد ويستبعدون لعمل سنوى آخر كبير هو جمع العنب.

"لماذا أتذكر ذلك يا بروناتينو كما لو كنت هناك عندما كنت صغيرًا ؟... قد يكون لأن عملاً آخر ينتظرنى كأولئك الناس، يا

---

(١) القابس هو الثقب الذى بالجدار والموصل للكهرباء.

طفلى الصغير ! فبعد جنى عنبى. وهذه الفتاة، أتعـرف مـا معنـى شيوتشيلا ؟ لا توجد فى ميلانو كلمة أجمل وأحسن.. لكن ماذا يهـم من المعرفة ؟ لماذا تصلح ؟... أنا بدورى لا أعرف لماذا لم تتحرك حواسى الجنسية معها ولو للحظة، ولا حتى لمَّـا سـال النبيـذ مـن فمها... إنى كما ترى، لم يقلقنى أن أتخيلها بعد ذلك فى الفراش مـع رومانو !.. كان هذا يغضبنى فى السابق، أما اليوم فلا وليس لأنـى الآن لا دواء لى، ولو أن الروسكا قد بدأت تأكلنى فى أسـفلى. أمـا اليوم فقد حدث أمر ما."

يتروى قليلاً من غير كلام، ثم يفكر قائلاً للطفل :

"تذكـر دائمًا ما أقوله لك يـا بنـى ولا تنسه : إن النسـاء سيفاجئنك دائمًا. تظـن أنك تعرف كل أوراق اللعبة من الملكة إلـى الفرس، فتخرج لك ورقة جديدة.. ما الذى حـدث اليـوم ؟ فهـى تضـمك كأم حقيقية، بينما هى لا تعرف بعد معنى الرجل !.. وأنـا أمام تلك الأوراك وأمام شعورى بيدها فى شعرى، لا أتحرك.. أتفهم أنت هذا؟"

يزيل مع ذلك التجاعيد من جبينه ويبتسم.

"أيًّا كان الأمر فيا له من رفيق حصلنا عليـه النـوم ! ألـيس كذلك؟ أحسنهم لك، ولى... لو كنت بنتًا كان عليك أن تكـون مثـل سيمونيتا كى تُسعد جدك... لكن ما هذه الحماقة ؟ ولد، ولد، أريـدك أن تصبح رجلاً!... أخرف أنا ؟ هل بدأت أشيخ ؟... هذه الأفكـار،

ألا تكون علامة؟ أأنت تبعثين بها إلــيَّ يــا ســالفينيا ؟ أأنــت آتيــة لتضعيني مرة أخرى على طريقى، كما دللتنى لعبور الميــدان أمــام الجميع، لما وضعتنى فى مضجع روزا ؟... وإن لا، فلم تحدث لــى هذه الأشياء ؟... لماذا تظهر لى الآن بنات روكاسيرا أحيــاء حقًــا ؟ لماذا حضرت فتاة أخرى مثلهن، هنا ميلانو؟" فكرة تبدو له ممكنة :

"أمن أجلك يا بنى ؟ أمن أجل مساعدتى على جعلك رجــلاً ؟ ألذراعيك الصغيرتين ذلك الجسم، ولك ذينك النهدان، ألفمك الصغير؟"

يتأمل الشفتين الصغيرتين فى الوجه النائم، ويضحك من نفسه فى صمت.

"لكن هى ليست أمك يا كنزى، ليست أمك ! فلا نهود لك غير ما عندى. نحن الآن وحدنا، وعلى أن أقوم بكل شيء، بالكل... آه، يا حصادى، أرى الآن كل شيء واضحًا !"

وفى الحين ومن دون أى قرار واعٍ، يــنهض ويفــتح برفــق خزانة الطفل ويخرج منها منامة الصغير المخبــأة تحــت عباءتــه. أندريا لن تلاحظ هذا الحمل إذا صادفها فى الممــر، فهــذا الجــسم صغير جدًّا !

يصل إلى غرفته ويخفى منامة الطفل فى فضاء آخــر عنــد رأس السرير. وفى الليل سيتمرن على زر وفك الأزرار الــصغيرة التى هزمت يديه قبل أيام.

فعلى الرغم من أنهما يدا رجل، ويا ويل من يشك فى ذلك، فهو سيصيرهما يدى أنثى أيضًا من أجل بروناتينو.

(١٨)

هبات ريح جبال الألب تهز بالبرد الشجرات الحضرية المسكينة بجذوعها المطوقة بالثلج فى أسفلها؛ حيث يتجمع الماء. يتخيل الشيخ الدم فى شرايينه بالضيق نفسه الذى يعانيه النسغ كى يصعد إلى أعلى الجذع. لكن تؤلمه أكثر من ذلك الضربات التى تهز الحديقة كضربات رفش حفار القبور. ضربات فأس ينتهى عدم التمرس عليها بإثارة غضبه كالكلب الهائج.. يالها من طريقة وخيمة لتقليم الأشجار! أدار ظهره كى لا يرى ذلك. يتوقف الفأس ويحاول الشيخ التفكير فى أمر آخر، لكن الذى يغزو عقله لا يهدئ من غضبه، بل بالعكس. ريناتو لا يمكن إصلاحه. لقد روضته. فبعد صيحة تلك الليلة عاد تحت نير أندريا. إنه يبدو نادمًا أيضًا: فبالأمس هاتفت لتفيد بأنها ستتأخر عن مواعيد العشاء؛ من أجل اجتماع أكاديمى مطول وريناتو يوافق فى وداعة:

- نعم سأغسله وأعطيه عشاءه ... نعم، سأدخله فراشه، لا تشغلى بالك يا عزيزتى...

كانت تواصل مسهبة كالعادة، وسمع الشيخ ابنه يبرر نفسه هكذا:

– اعذرى لى الفظاظة، يا حياتى، لكن سأتركك فالطفــل فــى الحمام.

"يعتذر لمثل هذا ؟ – يواصل الشيخ يومه، فى كل مرة يتذكره كما هو الشأن الآن – الاعتذار لهذه المرأة، وهى الفظاظة مجسمة ؟"

تعود ضربات الفأس فترجعه إلى الحاضر. يــسمع صــريرًا وبعد صمت قصير جدًا، تسمع شكوى طويلة مــن خــشب مكــسر، وصوت سقوط أغصان مقطوعة، ودوى اصطدام بالأرض. يلتفــت الشيخ من دون أن يستطيع كبح نفسه، ويطلق نظرته الغضوبة نحــو قمة الشجرة.

فى أعلى السلم المسند إلى الجذع، رجل بالسترة الصفراء التى يرتديها بستانيو البلدية. بفأسه المرفوعة يهدد غصنًا آخــر. ينفجــر الشيخ، وجاءت صرخته كضربة بحجر:

آى، يا سيد ! احترم ذلك الفرع يا حيوان !

ويقول لنفسه : "سينزل الآن ونشتبك."

يبقى البستانى برهة كالمشلول ثم يشرع فعلاً فى النزول "الآن" يكرر الشيخ لنفسه، ضامًا قبضته ومفكرًا فى الطريقة التــى يعــوض بها نقصه الدفاعى ضد الفأس. لكن يغير من موقفه عندما قرب منــه البستانى، شاب بابتسامة حيرى وحركة ودودة.

– لا أحسن العمل، أليس كذلك ؟

– أكثر من سيئ، نعم ! ذلك الفرع هو الذى يجب أن يبقى. ألم ترَ أنك قطعت آخر تحته وفى الخط نفسه ؟.. أين تعلمت الحرفة؟

– لم أتعلمها

يا للعنة ! أو يسمحون لك بأن تواصل قتل الأشجار؟

– أحتاج إلى شىء يقوتنى.

– ابحث لك عن عمل آخر !

– بستانى مؤقت بالبلدية أو لا شىء. هكذا قالوا لى فى مكتب البطالة... فما الذى أستطيع أن أفعله ؟.. أنا آسف – يضيف بعد توقف – تعجبنى الأشجار. لهذا أقطع قليلاً، وأقطع أصغر الأغصان فقط.

– فعلاً، الأغصان الجديدة... وتترك القديمة جدًّا! الأمر بالعكس يا رجل.

– أنا آسف – يكرر الشاب.

ينظر الشيخ إلى يديه : يدا كاتب، خامشِ أوراقٍ. ينظر بعد ذلك إلى وجهه : وجه لطيف وخفيف الظل.

– ماذا كنت تفعل قبل هذا ؟

- أدرس.

- الدراسة لا تشكو البطالة - يعود الشيخ إلى غضبه، ظانًّا أنه وقع على غشاش.

- أبى لا يعطينى مالاً إلا لأدرس الحقوق، وأنا لا أريد أن أصبح محاميًا. أدرس شيئًا آخر.

يبتسم الشيخ "مرحى، شاب طيب ! مخطئ؛ لأن المحاماة تدر مالاً كثيرًا، لكنه شاب طيب. بستانى خير من متلاعب قوانين. مرحى!.. المحامون آفة الفقراء..." يمد يده نحو الفأس.

- أعطنى هذه.

رازحًا تحت وطأة اللهجة، يعطيه الشاب الأداة، فيتجه الشيخ نحو الشجرة يخاف الشاب أن يسقط هذا الشيخ، لكن يلاحظه يصعد الدرجات من دون تردد. وفى الحال، يا له من ثبات فى الضربات ! يتأمل برهة الأيكة، يفكر وينتهى مقررًا أى فرع يقطع. "تشس"، يسقطه بنظافة. يترك فى النهاية السلم ويستقر على دعامة منخفضة ومنها ما حولها. يعود إلى السلم. ينزل. يغير مكانه ويصعد ثانية. وأخيرًا ينزل نهائيًا. يحتفى به الشاب فى حيرة ويهمس :

- يا للخجل !

- هيَّا، هيَّا يا فتى ! لم يولد متعلمًا. لكن من حسن الحظ أنهم لم يعطوك منشارًا كهربائيًّا. لو فعلوا لأتلفت كل القطاع.

– يعترف الشاب بابتسامة تفتر على شفتيه، أعطونى واحدًا فى اليوم الأول فأفسدته، ومذذاك الحين أعمل بالفأس... أنت تعرف... يا مشذب.

– لست من الحرفة ولكنى أفهم فيها. أنا رجل ريف، ألا ترى ذلك؟

– من أين؟

– من روكاسيرا، من جهة كاتانزارو – يصرح الشيخ متحديًا.

– من كالابريا ! – يفرح الفتى – هناك علىَّ أن أذهب الصيف القادم.

أحقًا ؟ – يتحمس الشيخ أمام هذا الاهتمام : لأية غاية ؟

كيف يفهم هذا القروى أهداف دراسة عن المكان لفهرسة ما بقى حيًّا من أساطير الفلكلور الشعبى ؟

– أجمع عادات، قصصًا، أشعارًا... أسجله كله ثم أدرسه، أتفهم ؟

لا.

"كم يخترعون من أشياء غريبة هؤلاء الكتبة؛ كى لا يعملوا !... القصص تحكى للضحك، والأغانى للانتعاش. فما الذى يدرس فى هذا؟

حسنًا، بعد ذلك ينشر ما جمعت ودرست... إنه عمل جميل – يضيف الفتى الذى لا يعرف كيف يُبسِّط الشرح أكثر. ويضيف كي يقطع الصمت :

– أنا فلورنسي.

يعود الشيخ إلى الابتسام. "أحسن من لا شيء. فهو أولاً ليس ميلانيًّا."

– أتريد سيجارة ؟ – يضيف الشاب خوفًا من أن يكون قد جرحه باقتراحه دراسة التقاليد. لقد نبهوهم بالقسم إلى عظيم حساسية الخاضعين للدراسة عندما تجرى هذه على العين.

– شكرًا. انتهى الأمر، ولو ضجرت الروسكا.

– الروسكا ؟

صديقة لي، يعجبها تبغي، لكن فلتضجر.

"جاء الآن دور الفتى في عدم فهمي" – يفكر الشيخ مبتهجًا ويواصل :

– انظر، أنا لست متعجلاً. أصعد إلى هذه الشجرة الأخرى وسأرشدك عن القطاع. لكن أجد الإصابة ! أمسك الفأس من هنا، هكذا، أرأيت كيف تهتز؟... وبيد ثابتة. هيا ليس الأمر صعبًا.

يشتغلان إلى ما بعد منتصف النهار تحت ملاحظات الأمهـات والأطفال. ينتعش الشيخ بأنه مفيد وأنه أنقذ أشجارًا مـسكينة تـشكو البرد فى ميلانو، ثم إنها تقتل بغباوة الإداريين و الكتبة. الشاب طيـع وليس بالأخرق.

"هكذا سيكبر طفلى بروناتينو، إلا أنه سيعرف أكثر مـن هـذا بكثير. أنا سوف أعلمه... وهذا يمكن مساعدته، ولو أنه لـيس مـن الحق العمل فى ما لا يعرف. لكن الذنب ذنبه، وفوق هذا فهو لـيس من ميلانو."

لما انتهت المهمة، شكر الفتى الشيخ واقترح :

– أتقبل منى قهوة يا سيدى ؟

يتردد الشيخ.

– فنجان قهوة ولقب دكتور لا يرفضان من أحد، كما تقول فى الجامعة. يلح الشاب.

ينفجر الشيخ ضاحكًا :

– من عاطل بلا مال ؟

لم تكن الضحكة مهينة.

– معى دراهم... لقد أحرقت أمس مراكبى، كما يقال. بعـث قانون الأحوال الشخصية.

أحسن نشرة بتعليقات، نشرة "رووانا بروشياني". جديدة جدًّا.

يضحك الاثنان. يسند الشاب السلم إلى جذع ويربطه بسلسلة وقفل، ويعلق الفأس في المحمل الخلفي من حزامه البلدى، ويشير إلى مقهى مقابل. لكن تتوقف إذذاك بجانبهما شاحنة صغيرة تابعة للبلدية ويطل من شباكها عريف.

– يا أنت... ! تعال، سنأخذك إلى وسط المدينة.

ينظر الفتى إلى الشيخ نظرة اعتذار.

أنا آسف.

– قد يتم ذلك يومًا آخر. ستبقى القهوة دينًا، وسنشربها على نخب القانون.

– كلمة شرف..! ابحث عنى، سأبقى أيامًا فى هذا الحى، أليس كذلك يا عريف ؟

يومئ العريف بالموافقة. كان يتأمل الأشجار فأبدى دهشته :

– اسمع يا أنت، حسن جدًّا. ها أنت قد تعلمت الحرفة !

يتبادل الشيخ والشاب ابتسامة تواطؤ ويتصافحان.

– فرلينى فاليرى – يقدم الشاب نفسه رسميًّا.

– رونكونى سالفاتورى – يصرح الشيخ متوددًا.

تقلع الشاحنة الصغيرة واليد تحيي من الزجاج. كانت المصافحة للتوديع سليمة وثابتة. مصافحة رجل.

"نعم ولكن بروناتينو سيصبح أكثر رجولة."

(١٩)

لا، لا يريد مشاهدة ما يحدث.

يغمض الشيخ عينيه، فيظهر له آنذاك لا مبرينو أول صديق له فى حياته، وأول عاطفة له.

فأمه... نعم، هى أمه، لكنه تعود عليها ثم إنها لم تكن تصعد إلا مرة كل أسبوع إلى الجبل... بينما لامبرينو، كان له فى كل حين أعجوبة العالم، ذلك الخروف الأبيض واثبًا مرحًا بين اللاذن والشجيرات الفواحة. تلك العيون العذبة المولعة. تلك الليونة الدافئة بين ذراعى الراعى الصغير لما ينامان معًا، والصوف الجديدة تلاطف الصدر الطفولى العارى، فيختلط النبضان.

لامبرينو الذى لا ينسى، إذًا هو أول درس حب فى تاريخه العاطفى الطويل، يعيش الآن من جديد فى تجويف جفنيه المغمضين. لكنه يتذكر بالتحديد نهاية الخروف فيفتح الشيخ عينيه كى لا يراها : العنق الأبيض مطوى بذراع الجزار، بينما تشهر يمينه السكين... كان الرعاة يضحكون من ألم الغنام ويأسه.، كما ضحك، بكل تأكيد، الجلادون المتوحشون الذين صلبوا المسيح.

عند فتح عينيه لم يكن أحد يضحك، وسط الدائرة المكونة مـــن متظاهرين بالألم، ولم يكن يشملهم نور الجبل الساطع، أما غير هـــذا فكل شيء كما كان مع لامبرينو : جسم صغير بـــلا حـــراك، رأس صغير مكسر إلى الأسفل، ورقبة رقيقة مسلمة إلى الجلاد. غيـــر أن الرأس آنذاك كان رأس لامبرينو بعينيه المعبرتين عن شـــديد ألمـــه وبثغائه الموجوع. أما الآن فهو برونانتينو الساكت، المحجوبة نظرتـــه بأجفان تكاد تكون شفافة كأنها من مرمر منثال.

طلب من الشيخ قبل قليل أن يأخذ الطفل، لكنه رفض فى عنف تواطؤاً فى هذه الشدة، وانسحب، حتى بلغ الباب فاتكأ على قائمتـــه؛ حتى لا يخرج أحد من دون أن يعطى تفسيرًا لما يحدث. ابتداء مـــن هذا الحين؛ أخذت يده تضغط على الموســـى المطبقـــة فـــى جيـــب سرواله." لو هذا الشخص أصابه بكارثة أغمدتها فيه هنا فـــى هـــذا المكان. "هكذا يصدر حكمه متأملاً ذلك الجلاد، الذى يحبس بـــسبابته اليسرى الشريان فى ذلك النحر الضعيف.

هذا الجلاد لا يمسك بسكين جزار، بل بحقنة صغيرة فارغـــة يستعد لوخز إبرتها. "وإذا أساء الوخز، يستنزف آنـــذاك ويختنـــق... اقتله يا روسكا، اقتله ! "الإبرة تنفذ وتغوص..."

خلافًا لهذا، ليس فى استطاعة هذا الجبان وخز بطن خـــصم، يكفى النظر إليه."

تمتلئ الأسطوانة الشفافة شيئًا فشيئًا بدم بروناتينو الثمين. "إنه كدم القديس جينارو".

يفكر الشيخ؛ لأن الدم تحت النور الأبيض لا يبدو أحمر، بل يبدو، وفى غرابة، داكنًا وحتى مشؤومًا. "هل هو مسموم ؟" يخطر هذا فجأة متذكرًا أن رافاييلى ذلك الشاب الذى كان فى حظيرته، راح ينزف من فمه، لما ركلته بغلة فى بطنه مات يتقيأ دمًا. واضح أنهم أصابوه بالعين – تعرف ذلك كل القرية – لمغازلته باسكوالينا. "أيوجد من يصيب ذلك الملاك بالعين ؟"

انتهى الجلاد من عمله – يفرغ الدم فى زجاجة صغيرة فيها مادة ما، ثم يسدها ويحفظها فى حقيبته. يبدو أن الطفل يشعر بشىء. صدرت منه أنة خفيفة فقط لما وخزوه. يودع الجلاد أندريا، بما أن الشيخ لا يتحرك من عند الباب، يشرح منتظرًا المرور:

– للأطفال الصغار كهذا أضمن شىء هو الودج، أتفهم يا سيدى؟

لكن أندريا هى التى تحرك الشيخ.

– أتستطيع أخذ الطفل قليلاً يا أبى ؟

بينما ترافق هى الممرض يُجلّس الشيخ بروناتينو بين ذراعيه. يقبّل الجبين الصغير الملتهب، وفى شىء من الغم يُصيّر نفسه عشًا

للطفل. يمسك بإصبعه القطن الذى يرقئ الدم فى الرقبة الصغيرة، فيستلم هذا الإصبع النبض السريع ضربة وراء ضربة. ما أشد الحمى ! يتأمل الطفل. مُذ ليلتيْن، راح يسعل فى تتابع. سعال عميق، شديد، سعال شيخ، ولكن بصوت مسموع رفض الأكل فى الصباح، وعند الظهر أغمض عينيْه الصغيرتيْن وغرق فى سبات الحمى. مُذ ذلك الحين لا يفتحهما إلا قليلاً فينظر حوله كأنه يسأل لماذا يعذبونه، يئن، يسعل، يتنفس بصوت عالٍ. أما فى الليل فقد لزم غسله بالماء البارد، أمام ارتفاع درجة الحرارة، وكان لمس بطنه الصغيرة مخيفًا لشدة حرارته.

لم يسترح الشيخ. فكان كل ما يفعله هو الانحناء من حين إلى حين على المهد، والتيه فى صمت من غرفة إلى أخرى، والمساعدة كما يطلبون منه، ويسهر على الطفل متأملاً مغمومًا. أسوأ شىء كان هو هذا "البيدياترا" وهو، على ما يبدو، اسم طبيب الأطفال باللهجة الميلانية. "كيف يمكن الثقة فى شخص كهذا ؟" فكر الشيخ لما رآه يظهر من الباب صباح يوم أمس : هذا الطبيب كان لابسًا كما فى الإعلانات، وكان شعره ممشطًا على نحو ما نراه فى صور دكان حلاقة اللصوص فى شارع روسينى. لقد ترك أريج الطيب بالممر لما تقدم بمحفظته اليدوية المصنوعة من جلد ناعم لم يرَ مثله أبدًا، وبخنصره خاتم مرصع بحجر أزرق... ثلاثون سنة؟..أربعون ؟ ونظرًا إلى قيامه بتحميل نفسه بتلك الصفة، فلا يمكن تقدير عمره.

نظارات من ذهب طبعًا. "وحديثه ! مادونا ! حديثه ! من المعــروف أن الإيطالية جميلة جدًّا فلا تناسب الرجال، لكن بنطقها كما يفعل هو، بكل المقاطع مشددة وبهذا الترنم تصبح كريهة. غــسل يديْــه عنــد الوصول وعند الذهاب : وكيف كانت تقدم إليه أندريبا المنشفة علــى نحوها يقدم الأطفال المساعدون إناء النبيذ للقسيس، كما لو كان ذلــك الشخص قديسًا.

"بالطبع، فأندريبا يعجبها هذا ! – يشرح الشيخ لنفسه – فهــو نوعها من الرجال... لا شك أنها كانت تريد الزواج بمثله، لكنها لــم يصطده. أما ابنى ريناتو فقد شاء له سوء الحظ أن يــصطدم بهــا... كانت تنظر إلى الطبيب مفتونة : يا دكتور من هنا، يا دكتــور مــن هناك... وهو مغتر كالديك، لم يفحص الطفل كما يجب : نظــر فــى أذنيه فقط وفى حنجرته بذلك الفانوس، وسأل عن درجــة الحــرارة (التى كانت أندريبا قد أخذتها واضعة المقياس بطريقة سيئة) وأخرج مصدعًا، ذلك الذى به المطاطات التى تبدو كأنها علق تمــتص مــن الصدر الصغير... الخلاصة، ما الفائدة فى فعله ما فعل ؟ فهــو لــم يتعب نفسه، ولا حتى بأن ينصت فى ظهر الطفل. هل لاحظت ذلــك يا روسكا ؟ كما لو لم يكن المسكين فى حالة خطرة "أهذا دتــورى ؟ هو عديم مسؤولية قادر على أن يفعل أى شيء !.. هل يساعدنا الحظ يا روسكا ؟ هل هى مشغوفة بهذا الأحمق؟... من المؤسف أن فلانًــا هذا لا يجرؤ على وضع القرون لأحد ! يا لها من فرصــة للتحــرر منها لو تورطا، وتثور رجولة ريناتو ولو لمرة."

يتنهد الشيخ مرتابًا... كاد وهو أمام الطفل المريض، أن ينسى الآخرين." إنه مريض جدًا، ولو أن هـذا الـشخص لا يعيـر ذلـك اهتمامًا! بما أنه ليس حفيده...! لأنه لو كان مجرد زكام، ما الـداعى لأخذ دمه هكذا، وهو يكاد ينحره ؟ ما الداعى ؟"

يسمع همسًا فى الممر، فيتساءل إن كان الطبيب قد عاد... لا، إنه ريناتو، متحدثًا فى الممر مع زوجته التى تـشرح لـه مـا قالـه الطبيب :

– لم يعر الطبيب أهمية للأمر. يقول إنه سيبل بعد يـومين أو ثلاثة، لكنه أفسد علىَّ السفر.

– يمكنك الذهاب إلى روما بعد ذلك يا امرأة.

– الآن وقد حصلت على موعد مع الوزير ! علىَّ أن أطلـب موعدًا آخر و... ثم إن العم دانيال شرع فى تحريك معارفه.

يسكتان لما يصلان إلى باب المخدع الصغير. يعطـى الطفـل لريناتو و هو يفكر : "هذه لا تفكر إلا فى مهنتها. فحتـى الطفـل لا يعرقلها !... مسكين طفلى بروناتينو !"

دخل الليل. وبينما هو يرعى الطفل فى أثناء عشاء الـزوجين، كان يتحاور مفكرًا مع الجبين الممتقع كثيرًا فوق الخدين المحمرتين.

"نعم يا بنى : هما يأكلان فى هدوء، بينما جسمك الصغير ميدان قتال. دمك ضد المرض، فالموت أو الحياة. كيـف يـستطيعان ؟ لكـن

دعهما. أنت لست وحدك. أبوك لا سلطة له فى المنزل، وأمك تسلمك إلى ذلك الدتورى القذر. لكن سيسير بك جدك إلى الأمام. أتفهم هـذا يا ملاكى الصغير ؟... أولاً وقد يرفضان، ستحصل غدًا، وهنا علـى ماء يغلى بورق شجرة الكافور وأزهار الكريميلاريا..أتعـرف ؟ إن الشجر طيب. الأشجار تحب الأطفال، وهى التى ستنقذك أحسن مـن تلك الوخزات. ستشم الجبل فى الربيع وستستطيع..آه، أتبتـسم ؟ أرى أنك تصدقنى. مرحى يا طفلى الصغير ! إلى الأمام ضـد الأعـداء، أنت الذى هزمت الدبابة !"

فى الصباح الموالى تسامحت أندريا بعـد استـشارة الكتـاب الملعون الخاص بتربية الأطفال؛ حيث يقول فى أية سـاعة بالتحديـد يجب أن يستيقظوا، ومتى عليهم أن يجوعوا..." كما لو أن هـذا لـم تعرفه نومًا الأمهات الأميات. "ثم إن الشيخ يـسمعها وهـى تـسأل الطبيب هاتفيًّا من الجهاز الثانى بالمكتب فتطيل هامسة... لكن تظهر فى النهاية بالممر وخداها موردان وبرعشة ابتسامة. "إن ما أقوله هو : هل هى مجنونة بذلك التافه ؟"

لكنها تسامحت. فينزل الشيخ جريًا إلى الصيدلية ليأتى بـأوراق الكافور – أما الكريميلاريا فلا يعرفون ما هى هـؤلاء الملعونـون – وهو سيرمى بالأوراق؛ لأنها تباع فى ميلانو داخل لفافـات مـصنع، وهذا ليس المبتغى. وخلافًا لذلك، ففى دكان السيدة مادالينا – ويا له من وقت لذيذ وهو ينظر إليها متذكرًا السيارة الخضراء بلـون معـدنى–

يوجد الكافور الحقيقى. وبالنسبة إلى الزهور، فهـم يعرفونهـا طبعًـا، ويشيرون عليه ببائع أعشاب قريب من هناك. "يا لها من سيدة، مادالينا هذه ! تحل كل المشكلات ! وهى أكثر بهاء من ذى قبل... لكن لم أعد أستغرب. فليس زوجها الرخو هو الذى يسقى هذه الزهرة."

بينما هو فى المصعد، يلف مشترياته فى ورق الصيدلية؛ كـى تفلت النباتات المنفذة من رقابة أندرييا فتهزم الدتورى. "يجب خـداع العدو فى الحرب يا بنى بروناتينو.

(٢٠)

إن الشيخ صاحب السترة من الفرو وبقبعة عتيقة تابع قبل أيام تشذيب الحديقة ثم اختفى، يعود اليوم إلى الظهور وهو يدفع أمامه فى كبرياء كرسى أطفال. الأمهات مع أطفالهن يستقبلنه كجد وديع يهـتم بالحضانة، ولو أن نظرة الرجل متوقفة عند أجسادهن تكفى لينظـرن إليه بطريقة أخرى، ويتكلفن من دون شعور فى هيأتهن بالجلوس، أو يرفعن أيديهن لتسوية الشعر. لكن الشيخ يسير طوال الوقـت تقريبًـا مهتمًّا بالطفل. فكل شىء فيه يدهشه : العينان الهادئتان أو النهمتـان، تحريك اليدين من دون أن يتعب، ليونة البشرة، الصرخات المفاجئة. إنه أكثر غرابة هذا المساء وهو أول خروج له بعد المرض. يـا لـه من كابوس ذلك الذى أسموه زكامًا ! لأنه بالنسبة إلى الشيخ، لم تكـن

سوى ذات رئة شديدة ولو أن الطبيب لم يتعرف إليها. لـــو علـــم أن بروناتينو لم يسلم إلا بفضل الكافور و الكريميلاريا المــضافة إلـــى الماء خفية عن أندريا! النباتة نفسها التـــى داوت ذات الرئـــة التـــى أصابت الشيخ سارينو بعد أن يئسوا من شفائه.

"بفضل جدك تتجول الآن يا بنى الصغير... الحقيقة هى أن لا أحد يعرف الأعشاب الصالحة للأمراض أكثر من الرعـــاة ! مهـــلاً، والسيدة مادالينا أيضًا تعرف بعض الشىء، لكن لا تعــرف كثيـــرًا. الساحرات وحدهن يعرفن، لكن هذا موضوع آخر. نعـــوذ بالمادونـــا منهن!"

فجأة يتسلى الشيخ وهو يتذكر ملامح آنونسياتا وهمـــا يعـــدّان الطفل كى يخرج فى جولة. يا لدهشتها وهى تراه يزر الثقـــوب مـــن دون عناء. لا أحد يعرف كم كلفه ذلك مـــن تمـــارين ليليـــة. نعـــم، فأصابعه لا تزال قابلة للتعلم. لم تتخشب بعد مفاصله. يتأمـــل يديْـــه القابضتين بقضيب الكرسى كما لو كان سكانا[1]، قـــويتين، خـــشنتين بالعروق، لكنهما لا تزالان حيتيْن خفيفتى الحركة. يقارنهمـــا بيـــدى بروناتينو الصغيرتيْن، وعندهما فعلاً يذوب قلبه. هاتـــان القبـــضتان الصغيرتان، وهذه الأصابع الصغيرة كيف ستصير عندما تتعامل مع خصم، أو لمَّا تُلاطف نهودًا فتية...!

---

(١) هو ذنب السفينة الذى به تعدل سيرها وتصون نفسها من الاضطراب.

"لن أرى ذلك يا طفلى الصغير، وأنت لن تعرف أنى جاعل منك رجلاً. أنقذتك من ذلك الطبيب غير الماهر، وسوف أنقذك من أمك ومن أى كان. أنا جدك، المقاوم برونو... أتعرف ؟ لا أطلب من المادونا إلا شيئًا واحدًا وألحف فى طلبه كل يوم : لممست سريعًا الكانتانوتى فأستطيع حملك إلى هناك؛ كى تطوف فى صحن الدار جاريًا وراء الدجاج. سترى كم هى جميلة روكاسيرا، فهى ليست كميلانو هذه القذرة. تلمع فيها شمس حقيقية لا تستطيع تخيلها وأنت ترى هذه. وعلى بعد ترى أجمل فى العالم "لافامينا مورتا" (الأنثى الميتة). يبدو وكأنه يلبس ويخلع ثيابًا كالمرأة. فمرة تكسوه زرقة، ومرة يبدو بنفسجيًا أو بنيًّا أو حتى ورديًّا أو يرتدى حجابًا، حسب الفصل... له طبيعته ومزاجه، أى نعم، فمرة ينذر بالعاصفة، ولكن مرة أخرى يلقيها علينا فجأة... هو صعب، ولكنه طيب كما يجب أن يكون. ستعشقه يا بروناتينو لما نصعد لتراه..."

يخطر له أنها أحلام فيبعدها عن عقله. لكن لِمَ هى أحلام ؟ هو، فى الواقع، بصدد إنقاذ الطفل. فهذا وجهه يبدو أكبر سنًّا بعض الشىء، وهذا ليس حلمًا ولو أنكرته أندرييا أمس لما اهتم بملاحظته. انتهى بها الأمر معترفة، ولو أنها أرجعته إلى الزكام الذى امتص له الخدين قليلاً. "غباوة ! الحق هو أنه صار رجلاً صغيرًا." يفكر الشيخ وهو يتذكر ذلك. فكل يوم يحبو، أحسن من ذى قبل، ويبلغ به الأمر حد محاولة الانتصاب متعلقًا بأى شىء... لكن يجب عدم إلزامه :

فالتزييو (العم) بينيدتو بقى بساقين مقوستين؛ لأنهم دفعوه إلى المــشى قبل الأوان. واضح أن هذا لا يؤثر إذا كان الواحد بائع كراس مثلــه، لكن الأمر يختلف إذا تعلق براع أو مقاوم. يمزح البعض معه فيقول: "أيثقلك كثيرًا ما تحمله ؟" ولكنه كان مسرورًا جدًّا؛ لأنه نجا بذلك من الخدمة العسكرية. إن هذه ميزة حزينة لما نــرى النــساء لا يــسلمن أنفسهن إلا للأشخاص منتصبى القامة، باستثناء من له مال. "سأعلمك كيف تمشى شيئًا فشيئًا يا برونانتينو. ستصبح فتى رشــيقًا... طيــب، أنت كذلك منذ الآن ! أنت فى هــذا الــصغر وينتــصب لــك مثــل خنصرى!"

ينظر الشيخ إلى خنصره ويصلح خطأه : لا، لا يبلــغ ذلــك ويسمع إذاك كلمات عند مروره بمقعد مشغول. "من يتحــدث عــن الشمس ؟ امرأة غبية من ميلانو." – يفكر الــشيخ رافعًــا نظــره باحتقار نحو القرص المصفر الخافت بفعل الــضباب. مهمــا كــان الأمر، فها هو يغير وجهته، كى يتحاشى النور فوق عينــى الطفــل؛ فيقترب هكذا كثيرًا من السبيل التى تحيط بالحديقة على طول قارعــة الطريق. وفجأة تقترب سيارة كثيرًا من الرصيف، وتمر عجلاتها فى نقع فتلوث الكرسى والدثار وترسل قطرات ملوثة على خــد الطفــل الذى انفجر باكيًا. يجمد الغضب الشيخ هنيهة، لكن لما رأى الــسيارة تقف عند النور الأحمر على مسافة قريبة أخذ يجرى و قــد أعمــاه السخط، صائحًا شاتمًا وفى رأسه فكرة واحدة : اقتله، اقتله، اقتلــه!"

يكررها فمه وينفذها ساقاه ويضرب بها قلبه. أمـا الموسـى فهـى مفتوحة بعد فى يده عندما يقترب من السيارة التى شاء حظ سائقها أن مكنه تغيير نور المرور من الابتعاد مسرعًا من دون أن يشعر بشىء.

لم يبقَ للشيخ إلا إفراغ جعبته من الشتائم، موجهًا للهارب إشارة قبيحة بذراعه "فرتساتا"، ولكن كل شجاعته لم تمنعه من أن يرى نفسه فى ذلك الوضع المضحك وضع المطارد المخدوع، عاجزًا هناك على الرصيف، عارى الرأس ومعه موساه غير المفيدة جالبًا إلى نفسه نظرات تتسلى... وفجأة تفزعه فكرة :

"أنا مجنون، تركت الطفل وحده، أنا شيخ مجنون!".

يعود جاريًا أيضًا ملتقطًا فى طريقه قبعته التى سقطت، متخيلاً ألف شىء يكون قد حدث للطفل. يصل فى الوقت؛ لأن امرأة غير معروفة تنحنى على الكرسى. هل تحاول أخذه منه ؟ مادونا ! (يا إلهى). وتغزو عقله فى ذلك الحين قصص قديمة عن غجر يسرقون الأطفال !

يصل إلى جانبها. الجرى والغضب والفزع يمنعونه عن الكلام مع خفقان قلبه المؤلم. لم يتمكن إلا من النظر شزرًا إلى المرأة التى التفتت والطفل بين ذراعيها لما سمعت الخطى. تتكهن هى ما به فتطمئنه بابتسامة وتقول:

– لست سارقة لك إياه يا سيدى. سمعته يبكى ورأيته وحيدًا فاقتربت.

توقف الطفل عن البكاء. تمسح له المرأة خده بمنديل صغير، ناصع البياض. لا يزال الشيخ يستعيد قواه، ولا يزال معاديًا لذلك التدخل، ولو أن الوجه الوديع قد هدأ من روعه. شفتان طريتان بين تجاعيد مليحة، وتعبير فتى على الرغم من النضج غير الخفى.

– شكرًا يا سيدتى – يستطيع القول فى النهاية، بينما نظرته تنزل وهى تتفحص النهدين البارزين من دون إراط والردفيْن المستديرين والرشاقة.

– تسأل المرأة : ماذا حدث ؟

– تيس ! ألا ترين كيف ترك الطفل والدثار والكرسى؟ سيد ابن سيد فى سيارة. أيفعل هذا بطفل ؟... تيس ميلانى !

يندم على الكلمة لكنها تبتسم.

– وسروالك أيضًا : انظر إليه. يجب تنظيفه.

– لا يهم. لو حصلت عليه لقتلته. تيس ومعذرة.

– تيس، تكرر هى الكلمة مدهشة الشيخ. أخذ الطفل يعبث بشعر المرأة وهى تواصل : من أية منطقة من الجنوب أنت يا سيدى؟

الآن يفهم الشيخ : لقد تعرفت على لهجته، ولا بد أن تكون هي أيضًا من هناك، إلى الأسفل ولو أن ذلك لا يكاد يلحظ فيها. شعر حالاً بالراحة فسوّى قبعته.

- من روكاسيرا بالقرب من كاتنزارو. وأنت ؟

- من البحر الآخر، أمالفى.

- طارنتيلونية ، آه ؟

- وبكل فخر !

الصوت الأنثوى يرن معتزًا بأرضه. وقامتها كأنها تزداد ارتفاعًا عندما ترفع رأسها إلى الوراء بتيه وكِبر.

- يا للعنة – يصرخ الشيخ أمام الوحل الذى أخذ يجف على الكرسى الصغير

- لا يمكن العودة هكذا ؟ أليس كذلك ؟ ستنتهرك الأم... ابنتك؟

- لا، هى كنتى!... ومن أين لها أن تنتهرنى تلك أو غيرها؟!

كانت لهجته عنيفة إلى درجة جعلت المرأة تعدل عن مواصلة المزاح، وتنظر إلى الشيخ باهتمام كبير وتفكر : ما من شك أنه ليس جدًا هرمًا. يا له من شخص.

– اهدأ يا صغير – تقول بتعجب محررة شعرها من قبضة الطفل الذى تشبث بالمرأة: انظر ها هو يريد اللعب معى !

– ومن لا يريد ؟

تضحك المرأة بكل رغبة. لا، ليس جدًا هرمًا !

– فتى جميل ! – تقول وهى ترجع الطفل إلى كرسيه – ما اسمه؟

برونانتينو... وأنت ؟

– هورتنسيا.

يتلذذ الشيخ بالاسم ويماثلها :

– أناسالفاتورى.

ويتردد قليلاً ويضيف :

–لكن أرجو أن تدعونى بـ برونو... وقولى لى : هل تتجولين يومًا آخر فى هذه الناحية ؟

(٢١)

"إنها ذاهبة ! ذاهبة إلى روما !"

استيقظ الشيخ وهذه اللازمة فى رأسه. يواصل ترديدها، بينما يضع قهوته على النار، "هذه ليست نارًا" – يفكر مرة أخرى مقارنًا هذه الأسلاك المحمرة بشرر الموقد القروى ولهبه.

"لن تذهب لترى الأتـروريين طبعًـا ! لا يعجبانهـا . همـا للآخرين، للرومان أحباء موسوليني. هى الخاسرة ! الأمر هو أنهـا ستغيب بضعة أيام وستتركنا نعيش أحرارًا... نعم، أحرارًا !... يبدو الأمر كذبًا : امراة قليلة الكلام، لا تخرج مـن وراء كتبهـا ويكفـى التفكير فى أنها هناك، يبدو الموقف كما لو كنـا إزاء الكارابينيـارى (الحرس الوطنى). النساء خارج المضجع لا يحدثن إلا الضجر.

ودعت أندرييا الليلة البارحة تاركةً تعليمات لريناتو؛ كى يدير المنزل فى غيابها، ثم عقبَّت على كل واحدة من تلك التعليمات كـى تتأكد من وضوحها. سيرافقها ريناتو عند الظهر إلى المطار. بقيـت ساعات قليلة. يفرك الشيخ يديْه.

تصل آنونسياتا ويعيد ريناتو عليها القانون المكتـوب. يغتـنم الشيخ الفرصة ليخرج فى جولة قصيرة، من دون الطفل هذه المـرة. فاليوم بارد جدًّا. كان عند الباب فسمع كنتى تسمح لآنونسياتا بإخطار ابنة أختها إن هى احتاجت إلى مساعدة. "سـيمونيتا" يتـذكر الـشيخ مسرورًا ومفكرًا فى أن بداية اليوم حسنة وحتى الروسكا هادئة.

ويواصل اليوم حسنة. فى كورسو فينيتسيا يتقابل مع فـاليريو. يشرح له الطالب أنهم نقلوه إلى "الطرق العامة" لمـا انتهـى تقلـيم الأشجار، وسيستمر أسبوعيْن آخريْن فى العمل فى تزيين الـشوارع، استعدادًا لعيد الميلاد القريب. أحد النواب البلديين مـن المعارضـة،

اشتكى بأن بعض الأحياء منسية، وأن العميد أمر توضع فوانيس ملونة بسرعة حتى فى بعض الميادين بالضاحية وسيساعد فاليريو فى تعليقها من ميدان كاربونارى إلى ميدان لوغانو.

– بعد هذا ينتهى الأمر وعلىَّ البحث عن عمل من جديد. اللهم إلا – يتردد الشاب – إذا أعنتنى يا سيدى. فقد كنت أعتزم السؤال عنك فى البيت.

يندهش الشيخ وفاليريو يشرح قوله. فقد تحدث قبل أيام مع الأستاذ بوونكونتونى، عالم الأجناس البشرية والمختص فى الفلكلور، حدثه عن الشيخ الكالابرى فاهتم فى الحين وقال لى :

– أريد أن أتعرف إلى هذا الرجل يا فرلينى " فإنى لم أرجع إلى سيلا منذ شبابى؛ عندما أجريت بحثى بين سلالة الألبانيين الذين أتوا فى القرون الوسطى، والذين لا يزالون محتفظين بعاداتهم اليونانية... بقيت سيلا حتى الآن بلا تغيير وصديقك هذا بمقدوره إعطاؤنا معلومات كثيرة... ائتِ به إلى معهد الأبحاث."

يستمع الشيخ إلى الطالب ولم يفهم بعدُ. فيضيف فاليريو بأن هناك ميزانية لتسجيلات الشهود فى محفوظات الأصوات. تعطى مكافأة للشخص الذى يتعرض إلى البحث، ويظفر فرلينى هكذا بتعيينه مساعدًا بمقابل.

- ما المقصود بكلمة "هذا الشخص" ؟ - يسأل الشيخ منزعجًا: ماذا عساى أن أفعل هناك ؟ أنت مخطئ تجاهى يا فتى. المال بالنسبة لى قد...

يقاطعه فاليريو :

- آى لا أقوله لك من أجل ذلك، فهم يدفعون قليلاً! لكن لكى لا تضيع قصتك ؛ كى يحتفظ العالم بذلك... حكايات أشعار، أمثال، عادات، زيجات، جنائز... فكل شىء فى طور النسيان، التاريخ، ما نحن عليه.

- قصتى - يكرر الشيخ مفكرًا - الماضى فى طريق النسيان بكل تأكيد. فالفتيات يرمين بالثياب العتيقة الجميلة جدًّا كما لو كانت خرقًا.

- سيعجبك الحديث عن كل هذا يا سيد رونكونى. ستتسلى به... وتمنحنى وظيفة. افعل ذلك من أجلى !

نعم، ستعجبه مساعدة فاليريو. ثم إنه من المؤكد أن سيكون ذلك مسليًا... وتخطر عليه فكرة :

- من سيكون فى استماعى ؟

- موظفو معهد الأبحاث لا غير، وقد يدعى أستاذ تاريخ أو أدب.

يبتسم الشيخ : نعم تعجبه الفكرة. سيحكى لهؤلاء خدشى الأوراق بما فى ذلك فكاهات أصدقائه... فتكفى قصص "موروندنترو" أو قصص الشيخ "ماتيبى"، رحمة الله، ليتركهم فاغرى الأفواه... أكلة الكتب هؤلاء لا يعرفون الحياة... ثم ماذا تقول أندريبا عندما تعلم بأنه، أى سالفاتورى، يتحدث فى الجامعة للأساتذة ؟" هو ما تسمعين يا غبية – سيقول لها : أنا فوق المنصة، أنا سالفاتورى نزيل روكاسيرا... ألا تصدقين ؟ اسألى. سآتيك بصورة وأنا أتكلم هناك..." شىء خيالى .. ثم إن قصته ستحفظ... سيمكن لبروناتينو أن يسمعها دائمًا !

– سأتكلم أيضًا عن حياتى، عن الحرب ؟

– طبعًا ! أنت الحاكم يا سيدى : قل ما شئت !

– إذن اتفقنا. لكن لحظة... نُجرى تجربة أولاً فى أحد الأيام، وإن لم يرقنى أولئك الناس صرفتهم. معك أنت، أى شىء حسن. لكن معهم يحسن الاطلاع. فأنا لا أتحدث إلا بين الأصدقاء.

– سيصبحون أصدقاء لك، أنا متأكد الأستاذ بوونكونتونى رائع والدكتورة روسى فلا غبار عليها. هى ليست أستاذة حتى الآن ولو أن عمرها أربعون عامًا؛ لأنه لا يوجد كرسى خاص بمادة الميثولوجيا، لكنها شهيرة.

– ميثولوجيا ماذا ؟

- أساطير القدماء، قصص قديمة. سترى، سترى.

"توجد نساء إذن... ولعلها أندريبا أخرى" يفكر الشيخ وهما يدخلان حانة ليحتفلا بالاتفاق. سيبدأ عملهما بعد العطل، لذلك يودع أحدهما الآخر متمنيًا له عيدًا سعيدًا.

نعم، اليوم مناسب تمامًا. عند باب العمارة يعطيه البواب رسالة حديثة الوصول. هى من روزيتا. طويلة ومعقدة، كالعادة، وبها ترهات كثيرة كادت أن تدفع الشيخ إلى العدول عن مواصلة قراءتها. لكن من حسن الحظ، أن نظرته التقطت خبرًا عظيمًا."هذه الغبية ابنتى، ألم يكن من الأجدر بها أن تبدأ بهذا وبأحرف غليظة ؟" الكانتانوتى ساءت حاله كثيرًا. يعيد الشيخ قراءة الفقرة. نعم، هو ذاك: عدوه ينزلق نحو المقبرة، ستبتلعه الحفرة. لا يخرجونه من المنزل ولا حتى على الكرسى ولا ينزلونه للصلاة. يقولون إنه لا يحرك ذراعيْه، انهار عقله، ويبول كل حين. يا للفرحة !

يفتح الشيخ باب الشقة، ويقفز إلى المطبخ. ليس فيه سوى آنونسياتا؛ إذ الزوجان قد خرجا إلى المطار، وبروناتينو نائم.

- ساءت حاله، التيس، ساءت حاله !

- يا إلهى، ماذا تقول يا سيدى - تقول المرأة فى انزعاج.

- لا شىء، لا أحد. أنت لا تعرفينه.. ساءت حاله، يحتضر !

تطلب آنونسياتا الصفح من الله لهذا الفرح أمام موت الغيــر. يدخل الشيخ غرفته ويخرج جبنًا ورأس بصل. يعود إلــى المطــبخ ويبدأ فى نقر صنفى الطعام مع جرعات جيدة من النبيــذ. تــذكره آنونسياتا بأن الشراب لا يناسبه.

– لتضجر الروسكا ! اليوم يوم كبير ! يجيب الشيخ رافعًا من استنكار المرأة، يتلذذ راضيًا بمأدبته الصغيرة، وإذ بالطفل يأخذ فــى البكاء. يترك الشيخ كل شىء ويجرى نحو الغرفة الصغيرة. يمد لــه برونانتينو ذراعيْه، فيرفعه الجد من المهد ويضمه إلى صدره.

– يحتضر يا برنانتينو يحتضر ! التــيس يحتــضر ! أتفهــم ؟ سأعود إلى روكاسيرا وستأتى معى... ستقوى بأكل الخبز الحقيقــى والخروف الحقيقى.. سترى ما نبيذ الرجال ! ولا تتناول أنت منه إلا قليلاً آه.. تكتفى ببل إصبعك الصغير فى كأسى وتمصه.. يحتضر يا بنى، سيموت قلبى !

يصفق الطفل فرحًا ويتحمس الشيخ :

– نعم، هكذا، افرح أنت أيضًا ! فنحن متشابهان ! أرأيــت أى جد عندك ؟ يحتاجونه حتى فى الجامعة !... ولا يستطيع معــه أحــد شيئًا. سنصعد إلى الجبل وستتعرف على كــل الطيبــين : ســارينو وبيكوليتى وتزامبا.. رجال بحق ! وأنت ستصبح مثلهم !

كل هؤلاء قد ماتوا ولكنه يعيش خارج الزمن. يشرع، وهو حامل حفيده فى حضنه، فى ترنم ألحان قديمة ويبدأ رقصة. كلمته المهموسة تبشر بانتصارات مستقبلية لبروناتينو. يرتفع صوته شيئًا فشيئًا. ترديده ترديد نبى، ورقصته رقصة درويشين. الطفل يضحك ويصرخ جذلاً. الشيخ يدور كالكواكب السيارة، ويجعل من نفسه ريحًا وجبلاً، قربانًا ورقية. يرقص وسط الغابة، على ضوء نار تزفر، يعانق بركات النجوم، يسمع عن بعد عواء الذئاب التى تخاف الاقتراب؛ لأن برونو وحفيده قوة لا تغلب ؛ فهما مشعلا الأرض وسيدا الحياة.

(٢٢)

ذهبت آنونسياتا بعد استحمام الطفل فى غرفة النوم الصغيرة صمت وظلال. فى الصمت تنفس بروناتينو وقد نام.فى الظلال صدف وجهه الصغير. الشيخ جالس على البساط مستمتعًا بهذه الحياة يحرس هذا النوم كما كان يرعى قطعانه : اكتمال انفرادى وتتابع بطئ لأوقات لا تنتهى. "أشعر بالحياة تمر" – قد يفكر لو فكر.

من دون إدراك، تحولت الظلال إلى ظلام. يوصل قابس الفانوس الأحمر. لم يعد ريناتو مُذ أخذ أندريا إلى المطار ولم يتأخر من قبل هكذا. هل حدث له شيء ؟ حصل الشيخ على وقت لإتمام كل شيء : اعتنى بالطفل إلى أن نام وأعد المفاجأة. لكن ريناتو...

وأخيرًا صوت المفتاح بالباب ! حركة معهودة عند دخولـه : خطوات حذرة، وظهور صامت. يدخل ويقبل بلطف بروناتينو، بينما الشيخ ينهض. يخرجان إلى الممر.

- أهلاً يا أبى، هل أتعبك كثيرًا ؟

- الطفل ؟ إنه ملاك !

بَرَّر ريناتو، باختصار تأخره، بتأخر إقلاع الطائرة ويوجز :

لننظر أى عشاء تركت لنا آنونسياتا. فأندرييا. أوصت كتابـة بإحضاره للمساعدة ولا علينا إلا تسخينه.

- تعسًا لآنونسياتا - يصرخ الشيخ عند باب المطبخ- نتعـشى الليلة مثل الرجال !

يدقق ريناتو النظر فى وجه أبيه : إله الحقول بابتسامة متعـة. ما به ؟ كم حيوية تبدو فى العينيْن المحاطتيْن بالتجاعيد !

فكرة مفاجئة تحزن ريناتو : يؤلمه أن غياب أندرييا يدخل هذا السرور على أبيه. لكن الشيخ كان دومًا هكذا : إذا اعتـرض أحـد سبيله، لا ينفع دواء، وهذا ما حدث له معها مُذ أول إقامة له بميلانو.

آه، لكن ليس الأمر كذلك، والخبر يزيل كابوسًا عن رينـاتو : السبب هو أن كانتانوتى على شفا الهاوية. مشرف على الموت. يعلق الشيخ على ذلك وهو يضع الأطباق والسكاكين والشوك على المائـدة

من دون أن يترك ابنه يساعده. ابنه الذى اطمـأن فـشعر بالراحـة. رائحة معهودة ولكن غير محـددة. رائحـة قديمـة وحبيبـة. هـذه الرائحة... يراه الشيخ وهو يشم.

- ألم تعد تذكر ؟

وفى الحين

هذا ثريد.؟

طبعًا ثريد مرفوس !.. من حسن الحظ أنك لم تفقد حنينك كليًا لن يكون له طعم ثريد أمبروزيو، فلا أحد يتقن إعداده مثله، لكنه ثريد الجبل، ثريد العادة.. ففيه حتى "الفازاليكو" (الحبق) وجـدت العـشبة عند التارانتينا. فمادالينا هذه عندها كل ما هو منا !

- تزور كثيرًا هذه السيدة يا أبى.

- فات الوقت ! وصلت متأخرًا - يقول الشيخ مدافعًا - لكـن يسره تلميح ابنه المقصود ويسره أيضًا أن يسهم الولـد فـى المـزاح بفرحته. وهكذا يـضيف : "أو سنيورا مانـدا فيـسكوتى أكـووى أون آفادنتى.." (سيدة تبعث بالخشكنان[1] لمن لا أسنان له) ألا زلت تذكر لهجتها ؟

---

(١) نوع من البسكويت الصلب.

- أنت يا سيدى لا تزال بأسنانك كى تعض هذا الخشكنان - يجيب ريناتو مضاعفًا جذل الشيخ الذى يأخذ فى أثناء ذلك بثريدها ويضعها وسط المائدة.

هكذا ينفتح باب كبير فى ذاكرة ريناتو يفضى به إلى الريف ومنه يدخل رعاة، وغابات قسطل ونيران كرم وأغانٍ وجوع صبية وأيدى أمهات. أمهات، نعم، ولو أنها الآن تخدمه وقد تحولت إلى يدى الشيخ، أجفان كرم خشنة معوجة. "أبى يخدمنى" - يفكر ريناتو. الحدث غير العادى يغيم عينيه برهة. لا، ليس بخار الأكل الساخن، بل هو طفولته كلها موجزة فى دائرة الطبق السحرية.

أمه دائمًا بجانبه، دافعة إياه، وهى فى مظهرها الرقيق، إلى التحرر من العالم القروى ؛ كى لا يتحمل الابن مثلها العبودية نفسها. ومن فوق الاثنين، الأب قوى كإله، جواد بسياطه ولكنه شخصية ملتذة أيضًا. المدرسة التى كانت فى الأول لا تصلح إلا أن تجعل الحرية متعة حقيقيّة، تحولت أيضًا إلى نفق للهروب. وفوق كل شىء حفلات الدار، غزو المطبخ، والضجيج والتبذير والشبعٍ وبقع النبيذ على السماط - فأل خير، فأل خير - وهو يفرض بل الإصبع فى تلك البقع ورسم صليب بها فى الجبين، ودخان التبغ، وبخار بشرى، قرص وضحك وأناس يحترمون الأب فيبدون له الامتثال... وبعد المأدبة تأتى الموسيقى والرقص، قنورات تدور فتصبح كالأجراس؛

فتجلب النظرات وأزقاق النبيذ من يد إلى يد، وأزواج يغيبون، والليل بنجومه والتعب الذى ينزل مرة واحدة لمَّا ينزل الصمت...

– مالك ؟ ألم يعد يعجبك ؟

يرجعه الصوت إلى الحاضر. يذوق لعقة، وملامحه كملامح طفل سعيد، تكفى لتفرح الأب الذى ينفجر ضاحكًا ويقبض على زجاجة النبيذ :

– هذا أحسن يا رجل.

– احذر من النبيذ يا أبى ! الطبيب...

– طبيب ؟ أتذكر تلك المقولة : "دووى جيريتى إى فينو بريما دا مينسترا.. إى دجتا أو ماديكو دا فينسترا." (جرعتان من النبيذ قبل الأكل، وألقِ بالطبيب من النافذة).

كيف يمكن أن يحرم اليومَ من مجد المنتصر على الكانتانوتى؟ يواصل الابن مضغ الثريد، متلذذًا فيه بالماضى. الأغنام فى الجبل، ذلك العالم الرجولى كهذا الذى بعث الليلة هنا.

يتذكر إحدى أوائل المرات التى صعد فيها إلى المراعى الصيفية، وكيف رفعه الأب من حلقة الرعاة، وأخذه معه إلى مرتفع قريب ومنه أراه قمة أخرى، تعلو غابات القسطل : "أترى يا بنى ؟ من هناك يشاهد البحر الآخر، بحر ريدجيو. ستصعد مرة إلى هناك."

لكن لم يرجعا قط. وبعد سنوات لم يذهب للدراسة فى ريدجيو، بل فى نابولى، لما أصبح من الواضح لديه أن أهل سيلا لا يشدونه، وهو لا يستطيع الحياة هناك... لكن، ذلك المساء وفى أعلى تلك الصخرة، فى قمة الصيف، وذراع أبيه ممدودة نحو البعيد، كانت فى مثل سبابة إصبع الإله الخالق، وقد مده لآدم فى الكابيا سكستينا (لوحة لميكال أنجلو فى كنيسة الفاتيكان).

جوزة العنق فى رقبة ذلك الإله المترهلة تصعد وتنزل، وهو يلقى برأسه إلى الوراء كى يفرغ الكأس. يمسح فمه بعد ذلك بظهر يده ؛ فتفاجئ الحركة ريناتو. لماذا ؟ فتلك هى العادة ؟

لكن – يلاحظ ريناتو – أن أباه يقمع هذه الحركة، وأكثر من ذلك فهو فى الأسابيع الأخيرة قد أقلع عن التدخين وهو لا يلبس الحذاء فى المنزل. وهو أيضًا يحلق يوميًّا، ونزل يومًا فى حوض الحمام من دون أن يطلب منه ذلك أحد. سمع ريناتو آنونسياتا مرة وهى تمزح قائلة: "هيا ! هيا ! نصلح من أنفسنا الآن، آه ؟" نعم – أجاب الشيخ – أريد أن أموت جميلاً."

"ميلانو تمدنه" – علقت أندرييا بعد ليالٍ. لكن ريناتو يعرف أنها ليست ميلانو، بل الطفل. بروناتينو يغير ما بجده. والآن ها هو الابن، فى موجة لطيفة جدًّا من الحنان، يعطى قلبه قربانًا للشيخ. شيخ نعم ! ففى هذه الصورة حيث يبدو كشريب مرح، أخذ الهزال يبدو فى الأنف، وبدأ الذقن يرتعش : شيخ على أبواب الموت.

هذه الرؤيا الكاشفة تمزق قلب ريناتو، فينحنى على الطبق، ويبتلع بعض اللعقات؛ كى يخفى عينيْه النديتيْن. إن البكاء المكبوت يهدده من الداخل. كيف يمكن أن تنتهى حياة الأشجار الضخمة أو النسور مثل أبيه ؟ ذلك الرجل كان السماء فى عليائها : قويًّا كالإعصار، تعسفيًّا، لا يرحم أحيانًا، لكنه كريم أيضًا، خلاق، خيرى... تعلق بالحياة فى عناق دب، وشربها جرعة فجرعة... وتنطفئ هذه الشعلة!

يتلذذ الشيخ برؤية ولده يلتهم الثريد. طبعًا ليس ثمة رجل على الأرض يرفض الثريد المرفوس، وفوق هذا فإن ريناتو فى الأصل شاب طيب. وكان دائمًا كذلك. يسير الشيخ معترفًا بذلك، ولو أن الابن عديم المبادرة. "لم يكن قط كأهلى، يا للأسف !.. كان دائمًا لينًا، هكذا ربته أمه؛ لأنه آخر مولود أتى بعد اليأس من إنجاب المزيد من الأبناء... ثم إنى لم أستطع العناية به. كانت أشد أيام الإصلاح والصراع ضد كانتانوتى المؤيد من طرف بارونات روما... لم أستطع العناية بهذا، بينما فرنشسكو ذهب ليجمع المال... المال! وما الفائدة منه إن لم يره ناسنا ؟ منزل كبير، أرض، أغنام، غابات قسطل ! هذا ما يملأ العينيْن والقلب، وهذا عندى منه ! والآن سيستغله ذلك الثعلب ختنى... آى يا ريناتو ! لماذا تزوجت هذه الدالية الجافة؟"

- اشرب يا ابنى، اشرب لم ننته بعد.

– أبعد هذا من مزيد ؟ بعد هذا الثريد ؟

لقد طبخت قسطلاً أيها الفتى، ووجدت تينًا مشمسًا ! بحثت عن "موستاتشيولى" التى كانت تعجبك كثيرًا، لكن لا توجد هذه الحلويات هنا. لا شيء غير ما هو من ميلانو. فليس عندهم كذلك ولا حتى "الموريندهى" الخاص "بالنوتالا"، عيد الميلاد !

ذكر هذا يفجر شيئًا كبيرًا فى ذاكرته.

– ها نحن تقريبًا فى عيد الميلاد. ألا يشعر أحد هنا فى ميلانو بالأعياد ؟ ليس ثمة... أتذكر ما يقال فى ديسمبر : "جورنو أوتو ماريا، أو تراديشى لوتشيا، أو فنتيشنكو، أو ماسييا !" (اليوم الثامن ماريا والثالث عشر لوسيا والخامس والعشرون المسيح.) أتذكر ؟علينا أن نقيم حظيرة للطفل. لم تفكرا فى هذا، أليس كذلك ؟

(من عادة الإسبانيين وغيرهم كأهل جنوب إيطاليا، إقامة ما يشبه الحظيرة بتبنها و حيواناتها، ويضعون فيها تمثال العذراء والطفل المسيح، ويضعونها منورة فى مكان بارز من البيت. إنها تعوض شجرة عيد الميلاد عند الآخرين).

عيناه تلمعان من الفرحة والحنين معًا.

– أنزلت لحظيرتك الفلين من الجبل وبعض أغصان الليارنغو وبعض الشجيرات... أما التماثل فكانت من مهام أمك. لعلها لا تزال

بالبيت إن لم تتكسر. اشـــترتها جـــدتها مـــن نـــابولى... حلويـــات "الموريندهى" كانت أمك تغطسها فى العسل. أما أنـــا فكنـــت أجلـــب المسطار[١] من كاتنزارو، فهو أحسن مما فى الجبل !... لكنك كنـــت تفضل القسطل على كل شيء... النوتالا !... نعم، فبروناتينو يحتـــاج إلى حظيرة عيد الميلاد وسأتولاها أنا.

- يا أبى... يتأثر الابن متذكرًا حبات القـــسطل، تلـــك التـــى تحرق الأصابع عند إخراجها من الرمـــاد بجذوتـــه ويهـــديها الفتـــى للفتاة... ذلك عندما لا توجد "الغوغياتدهى" وهى المطبوخة فى المـــاء مع حبات من الإنيسون... "آى، يا أبتاه ! - يفكر - ما ذنبى إن لـــم أكن إلهًا مثلك ؟ "تقع اليد الفتية على اليد المسنة، وتبقـــى مـــن دون حراك؛ تجنبًا للملاطفة التى سترفض لليونتها. وفجأة يرتعب رينـــاتو أمام تعبير مؤلم فى وجه الشيخ.

- هل تشكو شيئًا ؟

- "آيو" أو "شيلو" - يبتسم الشيخ معترفًا بحنينه - لكن كفـــى ! أن نكون مسرورين ! ذق كوبًا صغيرًا. لقد خلطته بنفـــسى. يتعـــرف الابن على المشروب "مبسكو"، أنيسون بالروم. كان دائمًا يعجـــب الأب فى المناسبات الكبيرة، مرفقًـــا بـــالقهوة... يعـــرف كـــذلك "الـــشيلو"، فالذكريات تؤثر فيه أحيانًا. لكن الماضى بقى إلى الوراء، وهو قد شعر

---

(١) أول عصير الخمر بعد طبخه.

دومًا بنفسه غريبًا بطريقة ما عن ذلك العالم. هل هو ميراث من الأم ؟ رد فعل تجاه الأب ؟... "لماذا لا نتفاهم يا أبى، وأنا أحب ذلك؟... لكننا فى هذه الليلة – على الأقل – نسكن البلد نفسها، نحن معًا."

-كان يومًا عظيمًا يا بنى ! – يصرح الشيخ وهو يشرع فى جمع ما على المائدة.

– دع ذلك يا أبى؛ فغدًا تأتى آنونسياتا.

– ومعها سيمونيتا، سيمونيتا ! يا لها من فتاة. لكن سأجمع كل شىء؛ كى لا تشك العجوز فى سهرتنا الحمراء هذه. كانت سهرة جميلة، آه.. واحتضار كانتانوتى أهل لذلك.

– وأنت يا سيدى بعكس ذلك، صحتك فى تحسُّن كل يوم.

يأخذ الشيخ الأطباق إلى حوض الغسيل من دون إجابة. يفضل عدم الكذب. فالحقيقة أنه لما رقص ببروناتينو تقطعت أنفاسه؛ فهو لا يستطيع تسلق الجبل كذى قبل. كان الطفل يصفق مسرورًا، وكان لزامًا مواصلة الرقص، لكن الشيخ تعب وتصبب عرقه. كان قلبه فى قفص ضلوعه، كالطائر المجنون محطمًا نفسه ضد القضبان.

"احذر يا برونو، احذر... نعم، تعديت الحدود هذه الليلة، لقد وثقت، لكن لن أعود لمثلها. يجب أن أربح السباق مع التيس فأبقى أكثر منه... وسأبقى. فقد وضح ذلك. إن طفلى بروناتينو يمنحنى

الحياة... من أجله سأصل إلى الجلوس تحت الدالية وأراه يلعب.. صيفًا واحدًا فى الأقل... ولم لا حتى فصل جمع القسطل".

هذه الأفكار تعطيه ملامح أمن يعوزه ريناتو إلى مشروب "المبسكو"، وهو الذى يحركه فيترنم وهو يغسل الأوانى. يساعده الابن، ولمَّا انتهيا اتجها إلى غرفة نوم الصغير، وانحنيا على نوم الكنز الهادئ. يخرجان، وفى الممر، وهما متجهان نحو غرفتيهما، يدفع تقاطع نظراتهما كلاً منهما إلى حضن الآخر. إنه عناق قوى، قوى، جميل وحزين فى الوقت ذاته. "مثل الرفاق أيام الحرب" – يفكر الشيخ فى كآبة.

ريناتو فى غرفته يشتاق إلى عناق آخر يختلف عن ذاك "بما أنك تحبنى هذا الحب يا أبى، فلم ترفض أندرييتى؟... من المؤكد أنها أبعدتنى عن تلك البقاع؛ لكن لأكون أكثر شبهًا بك يا سيدى، أكثر رجولة !... نعم، بجسدها ! ألا تستطيع فهم ذلك ؟ جسمها ! يلتهب لحمها المتين، وتجمح عروقها وتضمنى ساقاها، وتطالب وتطالب وتطالب حتى تدفعنى إلى الإستيلاء عليها وحصارها حتى الإغماء والانهيار !... فبالقرب منك لم أستطع النمو ولم أزد عن أن أكون محاميًا صوريًّا لك. أما بجانبها وبدلاً من ذلك... وأشتاق إليها هذه الليلة. فبهذه الذكريات أشعر كأنى طفل منفى.. يكربنى غيابها، وهذا الفضاء بجانبى...!

كان الشيخ يتدثر ورائحة دثاره القديم تزيد من تخيله برونانينو وهو يجرى وراء الدجاج أو القطط، بينما يتلقى وجهه دفء الشمس المتسرب من خلال الدالية.

أمام هذا الأفق اللماع كالجبال نفسها، عبثًا تتحرك الروسكا – وقد أسكنها أيضًا المبسكو – مغيرة وضعيتها فى الأحشاء المسنة.

وما أهمية الدويبة ؟ لا أهمية لها بعد هذه الليلة مع ريناتو المستعاد والمتأثر لدمه، وهو جدير بالأرض السحرية المرسومة حدودها بأصابع الطفل. هذه الليلة الجنوبية التى اشتعلت فى ميلانو لهما وحدهما. لثلاثتهم : الجذر والجذع والزهرة من شجرة رونكونى.

حطت فوق شفتى الشيخ ابتسامة كأنها فراشة، الفكرة التى كانت ترفرف فى قلبه لما غلبه النوم :"عظيمة هى الحياة."

(٢٢)

آنونسياتا تهتم بالممر. يالهم من رجال. لا يمكن تركهم لوحدهم. كل المنزل فى فوضى، ولم تذهب السيدة إلا أمس... والتبذير ؟ السمك فى المرق عشاء البارحة مرمى فى القمامة !... تعشيا فى المطعم؛ لأنهما لم يتركا أطباقًا غير نظيفة... احتقرا طبيخ العجوز آنونسياتا.. يا إلهى، يا للرجال. لقد أحسنت ببقائى عزبة.

يمر الشيخ. لم يسأل حتى الآن، لكنه ضاق صبرًا.

- ألم تكن ابنة أختك آتية هى أيضًا ؟

- عندها امتحانات لا أدرى فى ماذا. ستأتى متأخرة، وتضيف متأثرة: ثم إنى لا حاجة لى بها.

يدخل الشيخ غرفته وتتسائل آنونسياتا مرة أخرى: ماذا عساه قد حدث فى ذلك اليوم الذى تغيبت فيه وأرسلت سيمونيتا ؟ فالفتاة حدثتها متحمسة عن السيد رونكونى : فمرة أنه كان مقاومًا، وأخرى أنه رجل مهم...ومُذ أخذت تخرج مع المحظوظ رومانو، حتى أصبح كل الشيوعيين مهمين عند هذه الفتاة... إن الجد شيوعى ولو أنكرت ذلك سيمونيتا، وإن لم يكنه يستحق أن يكونه.

تفهم آنونسياتا أن ابنة أختها تتعاطف مع الشيخ : إنهما من الطينة نفسها." ثم تفكر : سيمونيتا لا عذر لها وستكون نهايتها وخيمة. أصبحت مثل أبيها، ذلك الآتى من باليرمو. لا شك أنها تجامع ذلك الأحمر صديقها. خلافًا لذلك، فالشيخ المسكين معه عذره. إنه يموت وهو يعرف ذلك، ولو أنه من الأفضل له الجلوس فى هدوء على مقعد وتسليم نفسه لله. لكن من أين له الهدوء، وهو لا يتوقف عن الحركة وفرح أبدًا... ليس معنى هذا أنه يضحك كثيرًا، ولكنها الحركة منه والهدوء... لعل المرض نفسه يخدعه. فالله له أحيانًا هذه الرأفة.. "آى، ما أشد حزن الشيخوخة! أعطنى ميتة حسنة أيتها القديسة ريتا !... عندما تحين ساعتى طبعًا."

يطرق الباب، وعلى الرغم من إسراع آنونسياتا، فهى لم تطل من الممر، حتى كان الشيخ قد فتح الباب لسيمونيتا التى تمنحه قبلة فى كل خد مثيرة استغراب خالتها. ظهرت اليوم الفتاة؛ بسبب المطر، وعلى كتفيها عباءة رعاة أمريكا الجنوبية، ومن تحتها ذلك السروال الأزرق البالى، حسب الموضة، أزرق كزى عمال الميكانيكا وصدار بنفسجى فاتح بكميْن طويلين وسروال فضفاض ملون، فيذكره مظهرها برسم غلام بجوار إحدى لوحات المتحف يوم أن اكتشف تمثال المحاربين. يندهش. فهذه أول مرة لا يغضب فيها لارتداء امرأة سروالاً. برونانتينو بشوش فى مهده. يصل الشيخ أولاً وسيمونيتا على إثره ناطقة بكلمات عذبة للطفل؛ فتشعر آنذاك آنونسياتا بأنها زائدة، فتعود إلى أعمالها. هكذا عاد برونانتينو ليجد نفسه، كما كان فى اليوم الآخر، قابعًا وقبالة نهدى الفتاة، وكما لو أنه تذكر ذلك، يتخذ فى الحين الوضعية نفسها والابتسامة نفسها، وهمس الرضا نفسه.

تقع نظرة الشيخ على ردفى سيمونيتا ملاطفة إياهما. كم هما بارزان؟ ويالهما من ركين أنثويين ! وعلى الرغم من هذا، فهما بريئان كبراءة وركى الفتى... يعنى – يتردد الشيخ وقد عجز عن فهم نفسه – وركى فتى، نعم لكنهما بريئان، لا بل جذابان.."ماذا جرى لى؟ – يندهش من جديد – فقد كان الأمر لى واضحًا دائمًا كامل الوضوح: الأنثى هى الأنثى، والرجل رجل وغير هذا فإلى المزبلة.

فالأمر هو أن هذا.." يتذكر محتارًا ذلك الذى ظهرت لــه فيــه يــداه أنثويتين. هل أعماله الحاليــة، كقيامــه بالحــضانة وتثبيــت أزرار وشمائل، يمكن أن تغير الرجل؟

تفاجئ سيمونيتا النظرة الرجولية :

- هل أعجبك هذا يا تزيبو برونو ؟

ابتسامتها وصوتها المستفز فى براءة يسهدان الشيخ، ويضمنان له أن إعجابه كان موجهًا إلى امرأة

- وكيف لا. ينفجر وهى ترافقه فى قهقهة، ثم يضيف متحاشيًا الموضوع :كيف كانت الامتحانات ؟ هل كانت النتيجة حسنة ؟

- لم تكن امتحانات.

بدت الإجابة شبه مسارة، فينظر إليها الشيخ محتارًا، بينما هى تقترب بالطفل، والشيخ يتقهقر قليلاً خائفًا من أن بروناتينو سيجمعهما بذراعيه، كما فعل فى اليوم الآخر... خائف ؟ لماذا ؟... ماذا أصابنى يا ترى؟

- خدعت خالتى - تعترف سيمونيتا - أنا آتية مــن اجتمــاع لإعداد إضرابنا الجامعى؛ من أجل زملائنــا المقبــوض علــيهم أول أمس... لكن لا تقل لها هذا. تضايقنى عظاتها.

يبتسمان فى تواطؤ، وإذا بآنونسياتا تطل.

– يا بنية، إنك لم تأتِ إلى هنا لتلعبى بالطفل.

تضعه سيمونيتا بين ذراعى الشيخ الذى خصته بغمزة، وتخرج وهى تقول :

–الآن، حالاً يا خالتى. دعينى أخلع الحذاء، لا غير. وحافية بجواربها الخشنة، كما كانت فى المرة الأولى، تظهر فى المطبخ عندما نادتهما آنونسياتا للأكل. يصمم الشيخ على تناول الغداء معهما، معارضًا هكذا رأى آنونسياتا. إنه يفضل البقاء مع الفتاة ولو أنهما لا يستطيعان التحدث كرفيقين. يتحرك الغلام بسرواله القديم فى رشاقة وسرور حيوى كفتيات روكاسيرا فى المهرجانات الشعبية فى بعض المرات، لما تمر سيمونيتا بالأطباق وراء خالتها، تخص الشيخ بنظرة باسمة فى تواطؤ. وهكذا يزهر حضورها الفتى كالليلج[1] فى القلب المتعب.

لهذا، لما نزل الليل، أدى عشاء الأب والابن، ولو أنه كان أبسط من عشاء الليلة الماضية، أدى إلى الاطمئنان والتفاهم نفسيهما بين الاثنين. لا يزال أريج طيب عاطفى أنثوى يطفح فى الهواء، فسره ريناتو – وهو يجهل السبب – بحنين لأندريا بينما الشيخ يستحضر...

---

(١) زهر عذب الرائحة، ويسمى أيضًا "ليلك" .

بعد ذلك، وفى السحر، يتسرب إلى المضجع الصغير والطفل نائم، محاولاً فى الواقع تفسير الأمر لنفسه:

"أكرره لك يا طفلى الصغير، النساء لا يمكن فهمهن أبدًا، ولكن مفاجآتهن أجمل ما فى الحياة... وسيمونيتا امرأة ولو أنى... ألا يدهشك أنها عند وصولها ظهرت لى كأنها غلام، ومع هذا أعجبتنى؟ يا للبشاعة ! طبعًا، بذلك الإست المخصَّر جدًّا... لكن النهدين... عنهما تعرف أنت بعض الشىء يا برونانيتو فقد لمستهما. مستديران وصلبان، أليس كذلك ؟ أنا أفضلهما أكبر من ذلك، ولكن كل النهود جميلة. كم من جمال ينتظرك فى الحياة، يا بنى أنا متمتع به مُذ الآن، كما ترى، لمجرد الشعور بأنك ستتمتع به أنت.. ولا تَشْرُدْ بتفكيرك أبدًا. اقبض على ما يعجبك مع التحلى بالرجولة كما يجب، بلا خداع لكن من دون جبن... عندما تريد امرأة أن تضعك تحتها، كن أنت كالديك فوق الدجاجة. لما كنت فى سنك، كنت أبعد الجدى عن أمه لأرضع... حسنًا، لم أكن فى سنك، ولكن لما كنت لا أرتفع بمقدار كهذا عن الأرض... خذ أنت جرعة كبيرة من كل شىء؛ لأنه لا بد أن تأتى خطوات متعثرة، وما لم تتمتع به فى حينه، لن تستطيع التمتع به وأنت فى عمرى... لكن، ماذا تفعل ؟ لا تفتح عينيك الصغيرتين، فالوقت لا يزال مبكرًا، ولا تبكِ وإلا اكتشفونى هنا.. ما هذا؟ أصبحت الآن تطل من فوق الحظار ؟ لا تواصل وإلا سقطت على رأسك. إذا كنت مصممًا فبالعكس ! كم أنت كبير ! وكيف

تفهمنى. طبعًا، الرجلان أولاً، ضعهما على الأرض وأمسك بتـؤدة.. هل أنت تريد من الآن الطواف فى العالم يا ملاكى الصغير؟ ألا ترى أننى عندما أطلقك تسقط جالسًا.. لا، البكاء، لا! نـم بـين ذراعـى، وبعدها أضعك فى مهدك. انتهى خروجك الأول، سوف تكرر ذلك... هكذا بعينين مغمضتين وفى هدوء.. أنت فعلاً عذب وصـلب ولـين وطفل وكبير وكل شىء. أنت حقًّا تملأ قلب الشيخ برونو.

(٢٣)

"ميلانو هذه كم هى غدارة !

كان الشيخ غاضبًا. خرج إلى الشارع تحت سـماء كالعـادة، واغتنم الفرصة للابتعاد أكثر، وإذا بشؤبوب يفاجئه. "ريح البحيـرات الباردة كما يقولون؛ فأية بحيرات هـذه ؟ بعكـسها نهرنـا الآرفـو وبحيرتنا أمبولينو." يحاول اختصار الطريق عبر شوارع أخرى، لكن لم يترك له الوقت. وهو إن كان لا يخشى الماء، فقد اشتد الوابل؛ مما جعله يحتمى بباب عمارة مفتوحة صدفة. أمامه فـى الـركن لافتـة الشارع : يا بورغوسبيسو. الاسم ليس غريبًا!

تمر بضع دقائق. يفتح باب المصعد فى داخل البهـو، وتتقـدم امرأة بمظلتها مرفوعة وهى على استعداد لفتحها. لما عرفت الـشيخ توقفت وابتسمت :

– هذا أنت يا سيدى ؟ صباح الخير. أجئت لتزورنى... أم هو المطر؟

يحيى الشيخ مسرورًا باللقاء. لقد تذكرها بكثرة، هى السيدة هورتنسيا :

قدها الرشيق، وعنايتها التلقائية بالطفل، وعيناها الفاتحتان تحت الشعر الأسود. الآن يتذكر. لقد أعطته عنوانها. لهذا لم يكن اسم الشارع غريبًا عنه !

– ومرة أخرى السروال. – تضحك المرأة – لكن ليس وحلاً هذه المرة، بل ماء. أنت مبلل ألا تشعر بالبرد؟

– تعودت على هذا، ثم وأنت أمامى كيف أشعر بالبرد ؟ هكذا يضيف مُضاعفًا عدد التجاعيد حول عينيه.

تعود هى إلى الضحك. "إن الضحكة تصدر من داخلها كالحمامة" هكذا يفكر الشيخ معجبًا بهذا الصدر المستدير.

– أى رجل هو هذا ؟ كالابرى حقيقى... وبروناتينو كيف هو؟ يفرح الشيخ لهذه الذكرى.

– أحسنت صنعًا أنى لم أخرجه اليوم. فهو يشكو إسهالاً. لقد أصابه برد على ما أظن.

– الذى سيصيبه البرد هو أنت؛ إن واصلت البقاء هنا... اصعد معى ! أنت فى حاجة إلى التدفئة وإلى كأس تشربها. لقد دقت ساعة النشوة[١].. تعال

يمشى الشيخ ببسالة نحو المصعد.

يصعدان حتى الطابق الأخير، وهناك فى عل، كانت المفاجأة. تغيير كامل للمنظر : ليس الأمر أمر شراهة، بل مسألة تذوق.

ما إن فتح الباب حتى قامت بالترحيب. فى الممر لوحة لخليج نابولى العذب معلقة على ارتفاع مستوى العينين، ويرى بركان الفيزوبيو هادئًا، لكن مذكرًا بأن الهدوء لا يتأتى إلا والنار من تحته. بهذه الرؤيا وحدها؛ يضع الشيخ نفسه فى الجنوب، وزاد شعوره بذلك عندما دخل قاعة الجلوس والأكل الكثيرة النور، على الرغم من السماء الغائمة. شرفة صغيرة ونافذة فى كلا الجدارين، وقد زهت الفتحتان بنباتات معنى بها، ومنهما يسمح بمشاهد الشفوف الميلانية التى يبرز من بينها الدوومو بتمثال المادونا الذى يتوج أعلى مسلة. هذه الشقة عش حمام من فوق فخ المدينة؛ ولذا فهو ملجأ دافئ ولو أن المطر مستمر فى قرع الزجاج.

---

(١) تطلق عليه عادة العبارة الإفرنجية : آبيريتيف.

يحيى الشيخ من جديد ذلك الشعور بالأمن، كما كان يشعر بـــه فى تنقلاته السرية فى أثناء الحرب، عندما يأخذه ضابط الاتصال إلى مخبأ؛ حيث يـستطيع إلقـــاء نفـسه علـــى فـــراش، وينـــسى فيـــه الحراسةالمتوترة فى كل دقيقة. بهذه المشاعر يستقر فى المقعد الوثير الذى قُدِّم له، وساقاه العاريتان ملفوفتان فى دثار لا يجعله يشعر بأنـــه مسن ولا مريض، بل بالعكس هو مركز العنايـــة الأنثويـــة. إن ضــــربات المكواة التى تحدو بالسروال أن يجف، جاءت لتخلق بينهما شيئًا يشبه التعايش القديم.

إثر ذلك، وبعد أن ارتدى سرواله، ها هو يتذوق نبيذ الحنطيانا الروحى الأصفر، كالزبرجد فى الكأس، وكالنار فى الحلقـــوم، وقـــد رافقته شرائح من لحم وأُعدت كقديد أهل الجنوب بزيادة نفحـــة مـــن ثوم... "ويفكر الشيخ : ما أكثر ما تعرفه هذه المرأة، فهى تتكهن مـــا بنفسى.

نعم تتكهنه، تفسره وتسبقه دائمًا على طول الحوار هذا، بينمـــا صوت المطر يسمع كأنه فسقية قروية... يتحدثان عن البلد وحياته... وهذه اللوحة الصغيرة ؟ بلاد هورتنـــسيا، أمـــالفى. الـــدرب الحـــالم الصاعد إلى دير الرهبان الكابوشيين والبحر تحته مزبد عنـــد أســـفل الجرف... كان المندولين معلقًا ؟ كان يجيد زوجها العـــزف عليـــه، بينما هى تغنى أغانى من نابولى طبعًا. كان صـــوتها جمـــيلاً فـــى صغرها.

– فى صغرك – يعلق الشيخ – هذا يعنى يوم أمس إذن !

تشكره على الإطراء وتواصل الحديث : هــذه الــصور هــى للمرحوم زوجها :

يبدو فى إحداها بزى البحرية، وفى أخرى بقبعة مــن التــبن، مستديرة ومحلاة بشريط.

– نعم، يا سيدى. كان صاحب زورق بندقى واسمه توماسو.. وبالمندولين كان يحصل على الحلوان[1] من السائحات الأمريكيات.. تخيل يا سيدى أى خليط هو هذا: هو من البندقية، وأنا من أمالفى !

يبدو أن الزوجين كانا على وفاق – الشيخ وهو يستمع إليها – ولو أن وجه الرجل يبدو لى شرهًا بعض الــشىء. بــالطبع فمهنــة أصحاب الزوارق تكفيه على هذا النحو : "مالافيتوزو"؛ لذلك لم تقــل توماسى أنا. لكن لا أسيئ التفكير؛ فهو، فى الأقلرفيق خاض الحرب.

يتواصل نزول المطر وهى تدعوه لتناول الغداء معها بطريقة بسيطة تجعل الرفض غير ممكن. ثم إن الشيخ لا ولــن يفكــر فــى الرفض. وعلى أية حال، فقد فات الأوان؛ فهى قد طلبت رقم الهاتف، وها هى تسرع لتهاتف مخبرة بأن السيد رونكونى لن يأتى للغداء.

---

(١) البقشيش.

يا لها من ربة بيت مستعدة. ففى لحظة قدمت "مكرونة" لذيذة. ترى هل الوقت يمر هنا من دون أن يشعر به، ويكفى التنفس بلذة ؟

– هنا فى كاتنزارو نسميه "بريمو" – الطبق الأول، هكذا يقول الشيخ مادحًا درجة نضج العجين ولذة المرق.

–أما هنا فلا. ليس لى طبق ثانٍ؛ تعتذر: قليل من البسطرمة إذا شئت أو من الجبن ثم الفاكهة والقهوة : أقدم لك ما عندى.

جبن الجنوب لذيذ جدًّا، والقهوة عجيبة.

– قوية وساخنة مثلك.

– وكثيرة المرارة. تستفزه هى؛ فينطلق الشيخ :

– أنت مرة ؟ أنت.. مهلاً وبكل احترام، ماذا ننتظر؛ كى نترك المجاملات ونتخاطب كند لند ؟ نحن أبناء الوطن الواحد.

–أنا مواطنة لرجل كالابرى مثلك. الجبال تفرق بيننا.

– الجبال يمكن اجتيازها ! ويقول لنفسه : "خاصة إذا كان لبلوغ هذا العش".

إن الشيخ كرجل من كالابريا حقًّا؛ يحتقر أهل نابولى الطائشين، لكن هى مختلفة كليًّا، ثم إن أمالفى تقع خارج الخليج.

أخذ المطر فى الهدوء من دون أن يشعرا. فى الخارج عـالم آخر. تفتر الكلمات؛ لأن الشيخ فى مقعده، وهـى تـشجعه، يأخـذه النعاس شيئًا فشيئًا، لكنه وَسَنٌ خفيف، لاغير.

كانت آخر فكرة راودته قبل الاستسلام للنوم هى أن برو ناتينو، وهو يهتز بين ذراعيه المترهلتيْن يشعر ولا شك أنه فى عشه، كمـا يشعر هو الآن فى مقعد هورتنسيا. لهذا تبدو الابتسامة السعيدة بـين خدى الطفل الممتلئين الموردين !

تتأمل فيه المرأة وهى جالسة أمامه، ويـداها علـى التنـورة، ورأسها مائل قليلاً، وفى عينيها حنان عميق يفيض نحو هذا الرجـل. فى قلبها حزن لا يوصف، وعلى شفتيها ابتسامة هادئة.

الشيخ النائم لا يـستطيع أن يـرى هـذه النظـرة، ولا هـذه الابتسامة. ولكن بعد ساعة، يعود نحو شارع بيافى، تتقشع شيئًا فشيئًا زرقة السماء الضاربة إلى الرمادى، وفى عينيه يطل، مـن دون أن يعرف ذلك الحنان نفسه، ويملأ قلبه حزن ثقيل.

(٢٤)

يسمع دوران مفتاح أندريا فى القفل. آنونسياتا والشيخ يطلان على الممر، كل من ناحيته. يدخل ريناتو وراءها؛ فهو الذى أتى بها من المطار. أندريا وهى تسلم تنظر إليهما فاحصة. يقترب قبل كـل شىء من غرفة الصغير، فتتأمل فيه وتمنحه قبلة خاطفـة. "الـسيدة

هورتنسيا تقبله بطريقة أخرى ولو أيقظته". يفكر الشيخ هكذا، بينمـــا أندريبا تتفقد متجولة فى غرفة الصغير. الطبق الفارغ لم يكن علـــى اليمين بالتحديد فوق غطاء المنضدة فوضعته أنـــدريبا فـــى مكانـــه. تخفض آنونسياتا رأسها مرتبكة؛ فقد غفلت عن هذا الإهمال.

– أتخلعين المعطف ؟ يعرض ريناتو نفسه متوددًا.

أندريبا متفضلة كما لو أنها تقول : "الآن نعم". تتركه يخلع لها معطفها، ويأخذه إلى غرفة النوم كى يعلقه.

تجول أندريبا فى الشقة باستثناء غرفة الشيخ التى اكتفت بـــأن أطلت عليها. "حسناً، حسناً، تكرر. لذيذ العودة إلى المنـــزل. تجيـــب عن أسئلة آنونسياتا السلسلة : نعم، رحلة حسنة جـــدًا. وفـــى رومـــا بالوزارة، انطباعات جيدة. كان لأبى أصدقاء كثيـــرون ! وأصـــدقاء عمى دانيال أيضًا."تفتح الثلاجة فى المطـــبخ، وتفحـــص المحتـــوى بنظرة." حسناً جدًا يا آنونسياتا، الكمال بعينه. "وتكـــرر ذلـــك مـــرة أخرى، وهى تتبادل نظرة متواطئة مع المساعدة لمـــا رأت نـــصف رغيف خبز أسمر. أما الشيخ الذى، لو رأى ما رآه الآن لسخط، هـــو الآن يبتسم : فبعد ولائمه العائلية الدسمة، يستطيع تحمـــل العـــادات الغريبة عند كنتى. تصل أندريبا – فى النهاية – إلى منضدة عملها، فى القاعة. تأملت بعد برهة عبر النافذة ناطحتى الـــسحاب، مـــسلتيها العصريتين. يتوقف أمام أوراقها فتلين ملامحها : لقد رســـت فـــى مينائها.

ما هذا ؟ تسأل فجأة بشدة، مشيرة إلى ركن فوق المنضدة الإضافية؛ حيث أقام الشيخ بالأمس حظيرة ميلاد المسيح.

- ألا ترين يجيب الشيخ بحدة: حظيرة الطفل ؟

- أنا كنت قد قررت، بالاتفاق مع ريناتو طبعًا، وضع شجيرة عيد الميلاد. أراه عمليًا أكثر وأكثر عقلانية.

لا يفتح الشيخ شفتيه. "عقلانية !... ماذا تقول شجرة من هذه لطفل صغير، مقارنة بالمسيح والتماثيل الحقيقية الأخرى وبالحمار والثور الحقيقيين ؟ لتضع هى ما شاءت. أما هذه الحظيرة فلن تتحرك. وأشرح ذلك بنفسى لبروناتينو."

- الوقت متأخر لآنونسياتا. تقول أندرييا بعد برهة صمت، وتخرج نحو المطبخ.

يسمعها الشيخ تقول لريناتو عندما مرت من أمام غرفة النوم :

- انتظرنى هناك. سآتى حالاً لإفراغ الحقيبة.

تتحدث أندرييا بعض الوقت مع آنونسياتا "مستفسرة عن تغييرات هذه الأيام طبعًا". يفكر الشيخ ويبتسم ساخرًا؛ لأن التغيير الكبير، والمعجزة، لا تستطيعان، ولا حتى تخيلها.. إنها التعايش الكالابرى العميق بين رونكونى الثلاثة.

تستأذن آنونسياتا - فى النهاية - وتخرج، بينما تدخل أندرييا غرفة نومها مغلقة على نفسها ومنفردة بريناتو.

تمر فترة ويستيقظ الطفل. يذهب الشيخ إلى غرفة الصغير، ويفلح فى إعادته لنومه.

أندريبا لا تخرج من غرفتها إلا بعد وقت طويل، مرتدية الطيلسان، ومغلقة على نفسها غرفة الحمام. إفراغ الحقيبة قد أخذ منهما كل هذا الوقت !

(٢٤)

– أنت اليوم غاضب يا سيدى، ولا تنكر ذلك. هكذا تؤكد السيدة مادالينا بابتسامة محنثة. يعترف الشيخ بذلك وهو يدمدم. هو بالأحرى متألم، يشعر بأن الطفل خانه قليلاً ؛ لأنه يميل إلى شجرة الميلاد، أكثر من ميله إلى الحظيرة.

– هذا طبيعى – تحاول تسليته التارنتينا – فهو جد صغير، ولا يقدر على تقييم الحظيرة.

– صغير إنى قد شرحت له ذلك وفهم كل شىء. فهو لم يعر ولا نظرة للثور ولا للحمار، وهما حقيقيان جدًّا. بـألفى ليرة كل منهما، وهذا بقرنيْن حسنيْن، والآخر بإذنيْن جميلتيْن ! غير أن الأمر – ينفجر – لأن أندريبا لا تتصرف بنزاهة. فقد علقت فى الشجرة فوانيس ملونة تشتعل وتنطفئ تلقائيًّا. فيأتى الطفل طبعًا كقُبَّرة نحو المرآة الصغيرة. وهل تعرفين – يا سيدتى – ما هو أسوأ من ذلك ؟ فبعد جذب الطفل، تعود هى إلى أوراقها ولا تعيره اهتمامًا. إنها لا

تفعل ذلك لتفرح الطفل وتتمتع معه، يا سيدة مادالينا، إنهـــا تفعلـــه لتضجرنى.

فكرة مفاجئة تغير مزاج الشيخ، وتجعله يبتسم.

– على كل حال هو أمام الشجرة على غاية من الظرافة ! كم يضحك وكم يصفق !... يعود جبين الشيخ إلى عبوسه – لكـــن كـــان عليه أن تعجبه الحظيرة أكثر من الشجرة ؛ لأن الحظيرة من عاداتنا.

– اسمع، ولماذا لا تقدم له شيئًا آخر يلفت الانتباه؟ انظـــر، إن كل ما عندنا هنا يصلح لعيد الميلاد.

يعجب الشيخ مرة أخرى بهذه المرأة التى تملـــك حـــلاً لأيـــة مشكلة. ليس غريبًا أن تبحث لنفسها عن خلان جيدين؛ لتضفى علـــى حياتها الفرح؛ لأنها مع شخص كهذا يستمع إليها كالمغفـــل واســـمه مارينو، وتسميه هى مارينالو.

وهكذا لما عاد إلى المنزل لم يحمل معه مأكولات لبيت مؤونته السرى فحسب، بل معه أيضًا طرد سيقدمه رســـميًّا للطفـــل عنـــدما يستيقظ من قيلولته : دف صغير، إطاره الخـــشبى أحمـــر، وجلـــده مشدود، وصنوجه تلمع كالفضة. يحركها الشيخ. والطفل، وقد سحر، يضحك ويمد يديه طربًا.

لكن الصنوج هى التى أثارت معارضة أندرييا.

– هذا لا يصلح لطفل صغير. فقد يعضها فيجرح نفسه. هكذا يصدر هذا الحكم عن هذا الصوت القاطع من وراء الجد.

– لن يعضها. فبروناتينو ليس غبيًّا ! يجيب الشيخ من دون أن يلتفت وهو يفكر : "تستطيعين أنت، إذن، الإتيان بحيلة الفوانيس، وأنا لا حق لي في دف عيد الميلاد الحقيقي؛ لأن الحظيرة ليس فيها نور كهربائي.. إن لم يرق لك هذا فعليك بالصبر."

يحكم الطفل بالنصر للشيخ. يرفع الصنوج إلى فمه، نعم. ولكن بلا إصرار. بلغ به الأمر حدَّ شمها، ولكن لم يتعدَ ذلك. خلافًا لهذا يطرب للضرب على الجلد، وهز الآلة، وسماع رنينها. يحرك الدف أمام الحظيرة بجنون موليًا الفوانيس ظهره، وعندما تغتنم أندريا فرصة استراحة لتأخذ منه اللعبة الخطرة، يتمسك بها الطفل بقوة، ويطلق صرخات نافذة إلى أن تنسحب الأم منهزمة إلى المطبخ لتحضر العشاء.

"إحضار العشاء كلمة من دون معنى. يفكر الشيخ. كثير من الورق الفضي، وكثير من البلاستيك؛ كي تباع البضاعة غالية، ولا أحد يعلم ما يضعون في الداخل. مواد كيميائية مثلما يفعل بالنبيذ الردئ... وهل هذا عشاء ليلة عيد الميلاد ؟ تتأكد تخوفاته أمام المائدة: حتى حساء الخضرة يبدو كثير الماء. لهذا رفعوا الكؤوس – في النهاية – ليشربوا الشامبان. لكن لماذا كل هذه الجدية ؟ أين

الفرح والمرح ؟ – ينكمش فى ذكرياته عن عيد الميلاد : النار فـــى الموقد، رائحة المقالى والشواء، دغدغة النبيذ الحامضة من فم الـــدن الذى يلثم بالتوالى، ضوضــــاء النــــاس دخـــولاً وخروجًـــا، اللقـــانق المصنوعة فى المنزل والوشيقة المملحة، والبهجة عند أخذ الفـــروات والعباءات للذهاب إلى صلاة "الميتزانوتى" (نصف الليل) متمتعين فى الشارع بسوط الريح الباردة على الخدود المحمرة... وبعـــد العـــودة، لعب "الطونبولة" حول "الفراشيرو" (المجمرة) بجذوات مـــأخوذة مـــن الموقد، وإعلان الأرقام بألقابها المفرحة، والضحك من دسائس الرعاة حول الفتيات، والانتهاء بالشدو والغناء فى الطريق إلى الفراش بأفكار غائمة، بينما الجسم فى ثوران، مملوء بالدم أكثر من امتلائه بالنبيذ... أكثر من واحد فى روكاسيرا جرى تعميده بعد تسعة أشهر، وهو، فى الحقيقة، مولود ليلة عيد الميلاد..! عند السحر، أيقظته فـــى فراشـــه الروسكا متقلبة. "واضح أن هذا العشاء أقلقـــك أيتهـــا المـــسكينة... انظرى كيف يوضع النبيذ فى الثلاجة ! ولئن كان شـــامبان ؟! كـــل شيء بارد فى ميلانو هذه. لا أدرى لماذا يسرع ريناتو إلى الفـــراش فى صحبة ميلانية ؟

بينما يحاول تهدئة الدويبة، يرتدى سرواله ويلقى دثاره علـــى كتفيه، ويتقدم كالعادة فى صمت عبر الممر. يبلـــغ المهـــد مـــن دون إحداث أى صوت : لهذا كان يكلـــف مـــن بـــين أعـــضاء الفرقـــة بالاكتشافات الأكثر صعوبة. ينحنى علـــى الوجـــه الـــصغير : هـــذا

المغناطيس الأبيض الذى يضئ كالبدر فى كل لياليه. "كان يجب أن أكون غاضبًا يا بروناتينو؛ لإمعانك النظر إلى تلك البلاهة الألمانية، بلاهة الشجرة... لكن أفرحتنى كثيرًا بالدفء؛ فهى لم يعجبها ذلك؛ وهذا حسن. أغضبتها، أنت قليل الحياء حقًّا مثل جدك، وليكن ما يكون... ألأمثالنا الفوانيس الصغيرة ؟ فهى – فى الجملة – ليست سوى خرق متدليات ولو أنها ملونة... بينما الحمار الجيد.. سترى، سترى لما نركب حمارنا.. هو أكثر أمنًا من حصان. "يتأمل الشيخ تلك القبضة الصغيرة العنيدة الماسكة بطى الغطاء، ويتأثر أمام هذا الجسد الصغير الذى لا يزال كثير الطراوة، وهو من الآن قادر على إثبات رجولته. يحدثه عن عيد الميلاد الحقيقى "النوتالا"، التى ليست الحفل المقلق الذى تم هذه الليلة. عيد تلك البقاع هو الليلة التى يشعر فيها بميلاد شىء كبير فى الجسد، وميلاد وقت جديد فى العالم.

"أتعرف يا ملاكى الصغير ؟ يفكر للطفل. فى ذلك اليوم يتم حتى الاجتماع بالأغنياء، ولا يستطيعون الوشاية إلى للدرك... لأنى بدأت فقيرًا جدًّا، لم يكن عندى ما عندك الآن، وسيكون لك المزيد منه؛ لأنى لن أترك ختنى يستولى على كل ما لى فى روكاسيرا... أنا كنت طفلاً بلا حذاء أرافق آخرين للغناء تحت نوافذ الأغنياء الموجودين آنذاك، ومنهم أبو كانتانوتى والسيد مارتينو الذى أصبح، بعد مرور الأيام حماى. كاد يموت غمًّا لما أخذت ابنته، وأجبروا على تزويجنا. كان ذلك ظريفًا. أنا لا يعترض طريقى أحد، وهذا ما

جعله يقوم بتلك الجولة حول العالم. إنه كأرجوحة خيل. اعلم أن على المرء أن يركب الحصان الأبيض وهو يمشى؛ فذلك أجمل شىء. سوف أعلمك... لكن تم حفل الزواج بعد ذلك بكثير. لم أكن لأحلم بذلك، وأنا طفل تحت نافذته. كنا نغنى له "سترينا" وهى أهازيج عيد الميلاد؛ كى نحصل على دريهمات، وإذا هم تأخروا عن الرمى بها شتمناهم، وتمنينا أن تصيبهم العين... يا لتلك الأهازيج. كانت مضحكة، واذكر إحداها :

"لا تكن مثل الحمار الذى يصم أذنيه إن لم تعطنا ثمن النبيذ خصيًّا كالثور وجدت نفسك".

لكن لم يكن المال لشراء النبيذ، فحتى الخبز كان منعدمًا فى دارنا. لكن هذا يجب عدم الاعتراف به وإلا أخضعوك... كنا نحمل دفوفًا كدفك، يا ملاكى الصغير، وطبولاً أنت لا تستطيع القرع عليها. كنا نصنعها. بأنفسنا بجلود الأرانب الجبلية وأباريق صغيرة مكسرة قعورها. كان لى رفيق ذكى جدًّا، قادر على نظم الأغانى.. اسمع هذه فسوف تضحكك. كنا نغنيها لرجل "كرابيو باغاتو إى كونتنتو" ديوث مدلل. سوف تفهمنى لما تكبر وتضع القرون للآخرين، إنها لذيذة جميلة. كان يعرف ذلك كل أهل القرية. اسمع وستضحك :

"ابنك المسيح، وأنت كالقديس يوسف. فأنت أيضًا لست الأب، ولو أنه ابن زوجتك".

أليست حسنة حقًّا ؟ أتستطيع أن تصدق بأن "الكرابيو" (الديوث)[1] أعطانا أكثر من أى كان ؟ بما أنه أخذ الأمر مأخذ المزاح..."

يا للملاحة التى كانت لتونوليو المحظوظ. شجاع ورشيق. كان يبدو وكأنه آكل الدنيا. النساء يأكلنه بأعينهن، وهكذا طبعًا، وفى الثامنة عشرة تقريبًا أخذته "الماركيزة" إلى إحدى ضياعها؛ هكذا تقول هى كى يعمل هناك. نعم، نعم، أشغال جميلة قد ينفذها لها... حسدته آنذاك. وانظر من أين تأتى الأمور : ففى تلك الضيعة القريبة من روما، مات تونوليو حالاً مصابًا بحمى الملاريا. وفى هذه الأثناء، كان نجم السعد ينتظرنى من دون أن أخرج من روكاسيرا."

كى يزيد فى قوة هذا السعد يلمس الصرة الصغيرة المعلقة فى عنقه؛ لأن ظلاً بدا فزاد فى ظل الغرفة. يقف فى يقظة شديدة عله يحمى الطفل، لكن لم يكن شيء فلعله خوفه ؛ لأنه تذكر "سترينا" (أهزوجة) أخرى مخالفة تمامًا للأولى، وهى كطعنة حزن... يترنمها بصوت خافت :

"عيد الميلاد يأتى، وعيد الميلاد يذهب، ونحن أيضًا سنذهب، ولن نعود بعدها".

---

(١) الديوث هو الذى لا يغار على أهله، ولا يخجل.

"أسمعت يا بروناتينو ؟ إنها حقيقة وأى حقيقة ! لكننــا حميــر بشكل يجعلنا نغنيها ضاحكين... الآن فقط أتعرف على مــا تعنيــه؛ لأنى لم أخف الموت أبدًا فالموت قد يكون سيئًا إذا عرفت بعده أنــك لم تعد حيًّا. تصور، لكن بما أنك لا تشعر بموتك فماذ يهم ؟.. ولــو أنه يهمنى الآن فعلاً ؛ لأنك تحتاج إلىَّ فلا أستطيع تركك وحدك فــى ميلانو هذه القذرة... أتعرف ؟ لم أشأ أن أقول لك هذا، لكــن انفلــت منى، ومن الأحسن أن تعوِّد نفسك على الفكرة. فعيد الميلاد هذا هــو آخر عيد لى، وإلا فمن المؤكد أنه الذى يليه... لا تجزع، لــى مــن الوقت ما يمكننى من وضعك على الطريق السوى. وها أنــت بعــدُ سائر فيه... بقى لنا الصيف بأكمله والخريف. سأبقى لك الوقت الكافى. مــا إن تنته لعبة ذلك التيس ويرحل، نذهب معًا إلى هناك لأفهمــك كــل شىء ؛ فتغرس جذورك فى أرض رجال. بعد ذلك لا يهمنى الموت ؛ لأن ما أعلمك إياه لن تستطيع نسيانه. ستصبح شجرة عاليــة وقويــة مثلى، يا بروناتينو، أقسم لك على ذلك."

يسكت الشيخ ؛ لأنه وهو يعد بهذا المستقبل الزاهــر، تخنقــه الكآبة؛ فيضغط بعينيْه.. وينفجر نشيج على الرغم من كل شىء...

كم كنت أتمنى أن أراك شابًّا، شجاعًا، رشيقًا، وآكــلا النــساء بعينيك... لو كان ذلك لأعجبنى كثيرًا."

فى تلك اللحظة، تأتى المعجزة. العينان الصغيرتان تتفتحــان، سوداوان، بئران بعيدتا الغور وبهما تصميم عميق. حالاً، ومثلما كان الأمر لما وقف الشيخ ضد الظل المزعج، يتحرك الجــسم الــصغير،

يتعرى، يترك رجلين صغيرتين تقعان نحو الأرض من فوق الحظار، ولما تطآن الأرض يرفع قامته منتصبًا، ويطلق القضبان، ويلتفت نحو الجد الجالس... ثم يخطو ثلاث خطوات متمايلة وحده، إلى أن وصل إلى ذراعى الشيخ المتأثرتين. ذراعان تأخذانه، تضمانه، تشدان عليه، تلينان حول هذه المعجزة الفاترة، وتبلان الخديْن بقطرات مالحة تدحرجت فوق شفاه عجوزة مرتعشة...

– خطاك الأولى، لى وحدى، الآن أستطيع...

السعادة الكبرى تؤلمه وتغمر كلماته.

(٢٥)

– أتزيد من القهوة يا أبى ؟

الاثنان فى المطبخ يفطران. قريبًا من هناك، فى الحمام، آلة حلاقة ريناتو تهر أندرييا رافعة إبريق القهوة، تبدى قلة صبرها.

– نعم، شكرًا، ولا تعودى إلى مناداتى أبى.

– أنا آسفة. تفلت من فمى دائمًا.

لا بأس فى هذا. من الآن فصاعدًا ناديني جدى، نونو.

أندرييا وقد غضبت برهة تنظر إليه متأثرة بالمفاجأة وتفكر. "كم يحب ابنى" وجاء دور الشيخ فى الغضب لهذا الحنان الذى شعر به.

– ماذا تنتظرين ؟ ألست جدًا ؟ إذن جد وكفى، يا للعنة.

"جد". تذوق الشيخ هذه الكلمة طول الفجر وهو في حراسته إلى جانب بروناتينو. نونو، نونو باللهجة الكالابرية : إنها ترن كجلجل كبير في عنق الذكر الذى يقود القطيع. وكذلك كهديل قرب المهد. "تونو".همسها مرات متتالية من دون أن يستيقظ الطفل. وشرح ذلك للدويبة : "أنا جد فعلاً يا روسكا، أكثر من أب أو عم، أكثر بكثير : جد. الوحيد الذى بقى لطفلى بروناتينو، بينما آخرون لهم اثنان وجدتان.. أقل من هذا كان لى، ولا جد واحد. لهذا لم أكن أعرف من هو الجد، وإلى الآن لا أبدأ فى فهمه. وهكذا كبرت "دزغراوو" (وقحًا) آه وكذلك رجلاً طبعًا. ولو أنه بالإمكان أن يكون الواحد رجلاً كذلك.. لا أدرى، لكنى أشعر فى داخلى بشىء أكثر من الرجولة، شىء جديد يبرز.. ماذا ؟... طيب، أنت تفهميننى. لا؛ أنت لا، لأنك مثلى. تمشين إلى ما تبغينه وبالعض أيضًا... الجدة، نعم، كما ترين. الجدة قد تفهمه لكن ليس له غيرى... وإنه لجميل جدًّا ضم هذا الجسد الصغير إلى الصدر وسماع همهمته كحمام مروض... ينمو فى داخلى شىء لين، طرى، أرأيت ؟ كنت من قبل أضحك من هذه الأشياء. أشياء نساء. لكن ها هو ذلك الحمل هناك..."

هذه الفكرة الأخيرة أدهشته، واندهش أكثر لشعوره بها من دون حياء.. "هل هذا ممكن ؟ لو عرفت فى السابق..."

وكما لو كان يشد الزمام، أوقف تأملاته عندما أطل – كما صار يفعل أخيرًا – على أغوار داخلية مجهولة يقترب منها طيف، لكنه لم يغمض عينيه لذكرى دونكا المفاجئة؛ لأن هذه المشاعر كان يمكن أن تفسرها هي : هي التي حاولت أن تأخذه وسط هذه الظلال، ظلال، رجولة..." ما هذه الأشياء التي تتجول في رأسي ؟ من أين مصدرها؟"

والآن وبعد هذا تبرز فجأة هورتنسيا.كيف تكون قد قضت عيد الميلاد ؟ في بيت ابنتها، من المؤكد، وفي غاية الجمال. لها ابنة يا روسكا وكذلك حفيدة صغيرة،. أتعرفين ؟ يكاد يكون هذا كذبًا، امرأة شابة كهذه وهي جدة... تقول لم يعد لها صوت. مستحيل. لا بد أنها غنت لهم. لعلهم قضوا السهرة راقصين "التارنتيلا". موسيقى حقيقية مغايرة لتلك التي تضعها أندريا. لا بد أن لهم موسيقى وحظيرة... ولا أشجار ألمانية."

والآن وهو يشرب القهوة، أجنبي عن جيئة ابنيه وذهابهما. يواصل اجترار الفكرة التي وضعها فجأة البارحة. هل من المستحسن إهداء هورتنسيا بعض الزهور؟ وأيها؟ فيكفي أن يتخيل نفسه في الشارع، وبيده باقة زهور، كأبناء الذوات؛ ليشعر بالتوتر. لكن عليه أن يفعل شيئًا مقابل كل اهتماماتها، علاوة على زيارتها في هذه الأعياد... يتذكر عندئذ أن بالحدائق كشكًا لبيع الزهور، ومنه الطريق قصير ليبلغ شارع بورغوسبيسو؛ وهذا ما يجعله يتخذ قراره.

هكذا، كان بعد وقت بالمصعد الضيق وباقة الزهور بيده، خائفًا دومًا من دخول هذا الصندوق فى مدخنته... سبق وأن دق الجرس من الباب السفلى، ودعته هى إلى الصعود. تنتظره عند مدخل الشقة.

كالعادة : نظيفة، بسيطة، متحمسة. وفوق هذا استقبلته الآن بفرح مدهش :

- لكن ما الذى فعلته يا سيدى ؟ كيف خطر ببالك ؟ ادخل، ادخل.

يقدم الشيخ الورود بطريقة خرقاء، وهى زهور ملائمة حسب صاحب الكشك. تدنى هى الباقة من وجهها وتستنشق.

- رائعة !... لكن لم يكن عليك يا سيدى...

- اسمعى، لقد اتفقنا أن نتخاطب بلا مجاملة يا امرأة... ولك أجمل التهانى بالعيد.

- شكرًا ولك أيضًا.

تقدم له خدها والشيخ يقبله. رائحتها أجمل من الورد. شعرها، يا له من حرير قوى... متماسك.

- هل أعجبتك ؟ يسأل الشيخ وقد جلس وهو يتأملها، وهى تحرك ذراعيها منظمة الزهور فى الزهرية.

– أنت تعرف جيدًا أن الزهور تعجبنا نحن النساء.

– يجيب الشيخ بوقار مضيفًا : أظن أن هذه أول مرة أقدم فيها زهورًا لامرأة.

وهذه حقيقة. فمع دونكا كانت هى التى تهدى الزهور. لكن هورتنسيا تجهل ذلك، ومندهشة. تلتفت نحوه، وقورة بدورها ونظراتها من وراء بريق عينيها الدائم، عينيها اللتين تذكران بنهر هادئ تتموج فيه أشعة الشمس.تجعلها المفاجأة الآن متطفلة :

– ماذا تقول يا رجل ؟ لا شك أنك عرفت الكثيرات!

الابتسامة الرجولية تؤكد وتزيد.

– لكن لم أكن قط فى حاجة إلى الزهور.

لا تجرؤ على الإجابة. تنتهى من تنظيم الباقة، توسطها على المنضدة، ومن دون أن تقول شيئًا، تغيب برهة وتعود بمشروب روحى grappa، وكأس صغيرة :

– كيف كانت ليلة عيد الميلاد ؟

– مع الحفيد. أما البقية، لا شىء، هما الاثنان... عيد ميلاد ميلانو... أنت قضيتها ولا شك مع ابنتك !

– أنا ؟ هنا وحيدة.

– وحيدة – يندهش الشيخ مفكرًا : "لو عرفت ذلـك... لكـن ماذا؟ لم أكن لأترك بروناتينو".

– كل الأبناء سواء، يعيشون حياتهم. طيب، أنا أيضًا عـشتها فى شبابى. عندما خرجت من أمالفى، لم يرق ذلك لأبى، لكننى غيـر نادمة. لم يكن لى ما أفعله هناك.

ينظر إليها الشيخ : "أى حياة قد عاشتها ؟ ما من شك أن لهـا عالمًا."

– وستبقين وحدك ليلة رأس السنة ؟

تكبر الابتسامة الأنثوية.

– انتهت الوحدة. سترافقنى أزهارك.

لم يُجب الشيخ، وآثر الصمت.

تنظر إليه : "ماذا عساه يفكر هذا الرجل ؟.. فى شىء جميـل من دون شك.. طيب، لن أسكت."

– فيم تفكر ؟

– فى شعرك يا للجمال !...

"كنت أعرف أنها ستضحك مقهقهة". يفرح الشيخ لسماعها.

– شكرًا : لو كان قبيحًا، لكان إشهارًا سيئًا.

– لماذا ؟

كنت مَشَّاطةً. "كابيرا" نقول نحن.

– نحن أيضًا ! مرحى، لأول مرة تتفق أمالفى مع كالابريـــا.! كانت لى حريفاتى، ثم إنى كنت أبتاع الشعر وأبيعه لصنع الجمم[١]... كنت أربح بعض المال أستعين به فى بيتى.

تواصل ترجمة ملامح الشيخ المتصاعدة.

كانت هناك مشاطات ذوات سمعة سيئة، نعم، لكن أنا لم أقــم قط بحمل الرسائل أو بالوصال بين المحبين. ثم إن الحرفة كانت فـــى انهيار : فقد ظهرت التسريحة الدائمة ومعاهد التجميل.

انطباع الشيخ وقد شعر بأن سره قد فضح : أتكون هذه المرأة عرافة ؟ لا، الأمر هو أنها تتحدث هذه المرة بلا خوف.

– وهكذا قَدَّمن جميعهن شعورهن، بينما أنت...

تسوى المرأة من غديرة شعرها وتقبل الإطراء.

– لم أجعد شعرى قط، أقصه وكفى... لو يصل إلى أن يبيض كله فسيكون جميلاً.

---

(١) جمع جمة، وهى الشعر المستعار.

"طلق، طلق، هكذا أحب أن أراه – يفكر الشيخ. لكن يتكلم عن حفيده وعن شعره المجعد كثيرًا.

– أصبح يمشى الآن، أتعلمين ؟ مُذ البارحة، ومشى لى وحدى.

– أنت مسرور جدًا !

إنه ليس فى حاجة إلى أن يقول ذلك لكن تظهر مشكلة. طفل بدأ يمشى يحتاج إلى حذاء آخر. أندريا وهى تنتظر مشيه من حين إلى آخر،اشترت له حذاء رديئًا تسميه موكاسينو، وهو كالقارب.

– حفيدى لن يسير كالراعى. يصدر الشيخ الحكم وهو يشرب "الغرابا" جرعة واحدة. لا بد أن يلبس كالسادة: نعم، بجوارب بيضاء وحذاء أسود من النوع اللماع.

هكذا يرى الشيخ أبناء السادة. لقد بقيت مطبوعة فى ذاكرته الصورة التى ارتسمت لما نزل يوم أحد من الجبل فى روكاسيرا، حاملاً على عنقه جديًا صغيرًا للسيد الماركيز، حديث الوصول؛ ليصطاد رفقة صديقيْن.. الماركيز الذى اشترى منه كرومه وغابات قسطله فى آخر الأمر. كانت أول مرة رأى فيها سيارة. ومن تلك المركبة المعجزة، نزل طفل ضعيف أشقر : كانت جواربه بيضاء تخرج من حذاء يلمع كالمرآة. وبالمناسبة، فالماركيز قد أعدم لما انتهت الحرب، كان مسؤولاً فاشستيًّا ساميًا.

يا هورتنسيا.. أتظنين أن الأحذية اللماعة هى أحذية فاشستيين؟

– يا لها من غباوة ! تضحك هى. لكن بدلاً من أن يكون حذاء من برنيق، فلتكن جزمة صغيرة. فهى تطوق الكعب ويمشى بها الطفل برباطة جأش.

يصعب على الشيخ العدول عن مثله الطفولى، ولكنه يفهم أن الجزمة هى أكثر رجولة. مشكلته شراؤها. أيها ؟ ما حجمها ؟ أين ؟ وإذا ما خدعوه فى النوعية ؟ لأن الميلانيين هؤلاء إذا رأوا ريفيًا...

تعرض هورتنسيا نفسها لمرافقته إلى دكان أحذية ممتاز. فهكذا ستكون الجزمة هدية ملوك الشرق للطفل، ولو أن العادة ليست هكذا. ستحتفظ المرأة بالجزمة إلى اليوم الأخير. وبذلك تضمن المفاجأة. بأى وجه ستبدو أندريا ؟ يضحكان معًا.

يستأذن الشيخ، ولكنه يترك فى هذا المنزل المضىء رباطًا عزيزًا لسر يتصل ببروناتينو، وتشاركه فيه هورتنسيا. ينزل السلم نشطًا مرحًا كما كان ينزل من الجبل فى روكاسيرا ليلة الأعياد.

(٢٦)

أو هذه هى النساء الشهيرات ؟

سجلته أندريا فى ناد يُزجى فيه المسنون أوقاتهم للتسلية وللترفيه، نادٍ عجيب يتردد عليه سادة وسيدات. هكذا قالت.

نساء ؟ سأل الشيخ.

– طبعًا نساء. ابتسمت أندرييا بجهد.

والآن ينظر الشيخ إلى النساء فى القاعة المزينة بأكاليل عيد الميلاد، وفى أحد أركانها شجرة عيد الميلاد طبعًا بفوانيس لا تنطفىء، بل تظل مشتعلة طول الوقت.

بعضهن يلعبن الورق، وأخريات مجتمعات جالسات على الأرائك والمقاعد والقهوة أو الشاى على مناضد قريبة منهن. هناك رجال أيضًا، وكان الحديث يدور بحماسة. ومن حين إلى آخر تتفجر ضحكة حادة. توقفت إحدى النساءعن عزف البيانو ملتفتة بمقعدها الدوار نحو الباب، وكالبقية تنظر إلى الشيخ الذى كان بالعتبة صحبة أندرييا ومديرة النادى. وينظر الشيخ بدوره إليهن: "نساء ؟ بل قطيع عجائز !... مستديرات، مزينات الوجوه، ملطخات بالمساحيق..لكن كلهن عجائز !"

والرجال من الطراز نفسه. كان أحدهم واقفًا بجوار عازفة البيانو. اثنان يلعبان الشطرنج، وهما الوحيدان اللذان لم يلتفتا نحو حديثى الوصول.

–واصل يا سيد أمادييو؛ فصوتك أحسن من أى وقت مضى... بديع !... الكومندادورى، صادح عظيم (مغنى أوبرا) توضح المديرة للشيخ. حسنًا، هى تلح بأن لا تدعى مديرة. "أنا لا أدير شيئًا؛ فكل

شيء يقرره أعضاء نادينا. فما أنا إلا ناشطة متواضعة، رفيقة بين الرفاق. "لكن الشيخ يفهم بأنها المديرة : فيكفي النظر إليها، وخصوصًا السماع إليها. فمظهر السلطة هذا...!

– آه، لما كنت أغني على مسرح السكالا... ! يلجلج الشيخ قرب البيانو، منحنيًا في حركة متكلفة، تعبيرًا عن امتنانه. يدير صفحة على المقرئ ويشير إلى العازفة. لنعد من فضلك.

توقع العازفة بعض النغمات. بعد ذلك، وبينما الصوت الهرم يشرع في أداء "لاماتيناتا" (الصباح) لليون كافالو، تقود المديرة أندرييا وحماها نحو مقعدين شاغرين، أمام أريكة جلست عليها سيدتان وبينهما رجل.

– لا أقدمكم؛ لأن التقديم هنا غير لازم : فالكل تم تقديمهم لمجرد عضويتهم. قانوننا هو التلقائية، الاندفاع العاطفي الحر. أليس كذلك ؟

تهتز الرؤوس الثلاثة من على الأريكة موافقة. المديرة الناشطة تبتسم. كل الناس هنا يبتسمون إلا الشيخ. وكذلك أندرييا التي تلاحظه في حيرة. أنا آنا لويزا. تقول إحدى العجوزين، في الوقت نفسه الذي تصرح فيه الأخرى بأنها تسمى تييودورا. لقد أجبرتا على الإعادة؛ لأن الأمر قد اختلط بكلامهما في وقت واحد. من سوء الحظ لم تفهما في المرة الثانية أيضًا؛ لأن الشيخ الآخر أطلق ضحكة

متتالية انتهت إلى حالة سعال، تمكنت فى أثنائه السيدتان – فى النهاية – من التعريف بهويتيهما صائحتين تقريبًا.

لا تصدقهما أيها الرفيق. يكذبهما الشيخ لما استطاع الكلام. لا تتركهما هكذا، تخدعانك. هما مزاحتان... خى، خى، خــى، هاتــان الصبيتان كثيرتا المزاح.

تضمان إذاك قهقهتهما إلى قهقهة المزكوم الــذى يغمــز فــى إفراط بعينه تجاه حديثى الوصول. ينقطــع فــى آخــر القاعــة أداء "لاماتيناتا"، وضربة جافة من غطاء البيانو وهو يغلق؛ تعبيــرًا عــن غضب الفنانين اللذين قوطعا. تأتى المديرة لتهدئتهما، وتتقطع أيــضًا فجأة ضحكة الثالوث الجالس على الأريكة، وعندها يــضع المزكــوم يديه على الفخذين الأنثويتيْن الملاصقتين له حــالاً وبوقــار. تنحــى السيدتان كلتا اليدين وبحركة الاشمئزاز نفسها.

– كفى يا سيد بالتازارى. تقول آنالويزا أو هى تييودورا.

– هذه ليست أخلاقًا، ولا أدبًا – تقــول تييــودورا أو لعلهــا آنالويزا.

– من لا يتذوق الفن، فليعدل عن الحضور. أى نعم، لا يجــئ – يعيد من الخلف ذلك المغنى المهان بين همسات المــديرة المهدئــة التى بعد أن حصلت على غايتها المضمرة، عادت إلى جانب العضو الجديد فى الوقت الذى كان يسأل فيه من قبل السيد بالتازارى.

– وحضرتك من أى دفعة أيها الرفيق ؟

– كنت غير صالح تمامًا.. أنا أصم يصيح الشيخ متضايقًا من تلك العين الغمازة دومًا أمامه. يكشف عن أسنانه، فى محاولة مجهدة للابتسام ويعود نحو الباب. تتبعه أندرييا وكذلك المديرة التى تجهد نفسها فى تقديم التفسيرات والتبريرات.

– السيد بالتازارى المسكين لا يتحكم فى مداركه كما يجب، لكننا لا نستطيع إغلاق الباب أمام أى كان... هذا المكان عمومى، بلدى، أتفهمان ؟.. ومن جهة أخرى يأتى أناس كثيرو اللطف.. تنجح أندرييا فى أن يزور حموها بقية التجهيزات الممدوحة بإسهاب من طرف المديرية.

– هنا المكتبة... مساء الخير يا دكتور، لا نقاطعك... مطالعات ممتازة، ممتازة... هذه القاعة الصغيرة بالتلفاز مريحة جدًا.. قاعة المحاضرات واسعة، أليس كذلك ؟ إننا نلقى الكثير من المحاضرات... المهمة جدًا. وكذلك السينما، ونقدم أحيانًا بأنفسنا بعض المسرحيات... انظر، قبل شهر قدمنا مسرحية "إلباس عريان" فحصلنا على كثير من النقد القاسى. هل يعجبك "بيراندللو" يا سيد رونكونى ؟ اسمح لى بأن أناديك "دون سالفاتورى "فنحن هنا نستعمل الاسم فهو أكثر تلقائية... هل يعجبك "بيراندللو" ؟

عادوا – فى النهاية – ليجدوا أنفسهم فى البهو؛ حيث تعلن لافتة حائطية : "منزل السرور، الضحك هو الحياة." تشرع المديرة

فى الاستئذان بالانصراف. أندرييا، ولو أنها كانت متضايقة، شكرت معجبة بصمت حماها الحذر. لم تكن تعلم أن الصمت مرده بلاغة الدهشة المعبرة. فمذ دخل والشيخ يتساءل إن كان كل ذلك موجودًا حقًا، وإن كانت تلك الأشكال بشرية، فهو لا يستطيع تفسير ذلك بنفسه ولو كانوا ميلانيين. لم يستطع رد الفعل ولذا صمت فى النهاية. فقط يسأل مترددًا :

- هل كلهم هكذا ؟

- كيف هكذا ؟ - تسأل المديرة رافعة عينيها الصافيتين كماء البحر. تتقلص أندرييا داخليًّا منتظرة ضربة السوط.

- هكذا.. مسنون، وما شابهه.

لكن سلامة نية المديرة لا تجرح.

- كم يخطر عليك من أشياء يا سيد رونكونى. لا يوجد مسنون هنا يا سيدى العزيز. نحن العمر الثالث. أفضل العمر إن عرف كيف يعاش. عُدْ وسترى، عد، نحن سنعلمك.

أندرييا وهى تمشى متقدمة على الرصيف تشكو فشلها. لقد قدمت لنفسها الأمل فى أن حماها، فى ذلك النادى القريب من البيت، سيتغيب أكثر ولا يدلل الطفل كثيرًا؛ فيجعل تربيته الحقيقية أكثر صعوبة. لذا فقد بهتت لما سمعته يقول، وهى تستقصى فى حذر، بأنه سيذهب أحيانًا إلى النادى.

قد يأتى أناس آخرون – يشرح الشيخ وهو بنظرته غير المفهومة التى يرميها أحيانًا، مغمضًا قليلاً عينيه الذكيتين فوق ظل ابتسامة.

لقد ظهر له النادى فجأة وسيلة للإفلات. فبعد الظهر وأندرييا تربكه فى المنزل؛ إذ لم يعد له من وقت طيب إلا وقت استحمام بروناتينو. لكن قبل ذلك سيكون له متسع من الوقت ليزور هورتنيسا، مدعيًا أنه ذاهب إلى النادى.

"مهلا ! وما حاجتى بالأعذار ؟. يلوم نفسه. أنا أفعل ما بدا لى." هذا مؤكد، ولكن يبدو له فعلاً أنه يتكلم عن هورتنسيا. فإخفاء ذلك عن أندرييا فيه تسلية أكثر. يهدئ بهذه الفكرة من روعه مقنعًا نفسه بأن لا أحد يراقبه.

(٢٧)

هل مرا من قبل من المكان نفسه ؟

الشيخ يجهل ذلك. لم يته قط الجبل، لكن هنا... كل الشوارع تبدو له اليوم متشابهة مثل ممرات المتاهة، ومنها تقوده هورتنسيا من دون تردد. تشابهت :كاكين الأحذية فبدت كواحد، ولو أنهما سألا لتوصلا إلى معاينة بعض الأحذية التى رفضتها دليلته، وفى معظمها لم يتعديا مشاهدة نوافذ العرض فيجولان من دكان إلى دكان بين شراة نهاية السنة المتعجلين المتحدين حركة المرور.

اشتريا في النهاية الحذاء الصغير من متجر ماندوني وهو أول دكان دخلاه : هذه مناسبة، تقول هورتنسيا وتلفت نظر الشيخ إلى ذلك.

– كانت متأكدة أن هذا هو أحسن متجر، لكن إذا اقتصرنا عليه، ولم ننظر إلى غيره، فقد نجد شيئًا أرخص في أول منعطف.

الشيخ غير موافق كل الموافقة، لكنه كان سعيدًا طوال هذه الرحلة الموفقة المدققة، متلذذًا حتى بشعوره بالضياع؛ لأن ذلك يضعه في يد هورتنسيا. متعة أيضًا مرافقتها : كانت تتدثر بجمازة جميلة من الجلد الرمادي، وفي رجليها حذاء جيد. وأكثر من هذا فقد أمسكته من ذراعه، فكان الشيخ يشعر في مرفقه بزخم أنثوي لا يقاوم فيزهو لذلك ويقول :

– كم ينظر الرجال إليك !

ينظرون إلينا معًا.

– إليَّ أنا ؟ إن لم يكن النظر إلى سترتي القروية...!

– ينظرون إلى قامتك ومشيتك.

–هذا صحيح. ساقان جميلتان، وساقان جبليتان. لا أزال أستطيع أن أغلبهم كلهم في تسلق الجبال نحو القمة... وأنت ؟ ألم تتعبي ؟ فيا لها من أمسية عمل !

– عمل ؟ نحن يعجبنا التسوق من دكان إلـــى آخـــر. فهكـــذا تشترى فعلاً الأحسن والأبخس ثمنًا.

– رخيص ؟ فالشيخ قد أنفـــق علـــى الحـــذاء آخـــر ليراتـــه الاحتياطية، ومع هذا فقد احتاج إلى ستمائة دفعتها هورتنسيا التى لـــم تشأ الموافقة على حذاء آخر أرخص من تلك.

– لا كلام، فللطفل أحسن شىء. ثم إنها صفقة جيدة، أكرر لك ذلك. أنا أفهم فى هذه الأشياء. لقد عملت ستة أعـــوام كبائعـــة فـــى مغازات لومبارديا لما بقيت أرملة ومعى بنيتى... هيا، هيا، ســـوف ترجع لى الليرات. لهذا نحن أصدقاء. ألسنا صديقين ؟

– لكن سيتأجل ذلك؛ لأنى بقيت بلا مال.

يصرح بذلك فى جد وفى حزن تقريبًا؛ مما جعلها تنطلق فـــى قهقهة تضخمها قبة رواق فتوريو إيمانويلى؛ هربًـــا مـــن تـــداعيات مثيرة. وقد نزل الظلام. الناس يلتفتون وهو يبتـــسم. كيـــف يمكـــن مقاومة هذا الوجه البشوش وهذه الأسنان الساطعة البيـــاض ؟ لكـــن يثور لتوه.

– يا للعنة ! الأراضى و الأغنام ملكى، لكن ختنى المـــستغل يماطل فى مدى بالمال. وعندما يهاتف، أصيح فى وجهـــه، بمـــا أن هراوتى لا تصله.. وفى منزل كنتى لا أريد توجيه السؤال.

– لا تتعجل يا رجل، ولا تظهر هذا الوجه؛ فقد يظن النـــاس أننا نتخاصم، وليس الأمر كذلك، حقيقة أم لا ؟

– الأمر هو أنه علاوة على ذلك...

– لا تقله لى، أعرفه. إنه يطيب لك الآن أن تدعونى لتناول شيء، أليس كذلك ؟

"هى عرافة" يقول الشيخ فى نفسه مرة أخرى، وهو فعلاً يتألم لعدم تمكنه من ضيافتها كما تستحق. وتوقفا فعلاً أمام مقهى من المقاهى الكبيرة.

"لقد تكهنت !" تفكر هورتنسيا وهى سعيدة لفكرة أن هذا الرجل لا يستطيع أن يخفى عنها شيئًا. إنه شفاف أمامها كالصبى. وتضيف:

– إذن ادعُنى يا رجل.. استضفنى. خذ هذه النقود، هى لك، كما لو كنت قد سحبتها من مصرف، وستسدد عنها فائضًا فى ما بعد.

– آ، بالفوائض ؟ موافق إذن... يبتسم الشيخ قابلاً المال.

تعود هى إلى الإمساك بذراعه، لكن لتتركه يقودها هذه المرة. والرجل هو الذى يدفع الباب الدوار ويقودها إلى منضدة تحت نور خافت، ثم يجلس إلى جانبها على الأريكة المغلفة بالقطيفة. يصيب الكِبر هورتنسيا وهى ترى الشيخ القروى، وقد استعاد القيادة، يكلم النادل من دون ارتباك، وبارستقراطية تفصح عن نبالة وتحضر. "يكفى، يكفى إلى أين نذهب بكل هذا ؟" تحتج هى مبتسمة لكن متمتعة بنهم، خاصة من قرص حلوى يصادف هوى لديها. يمر الوقت عليهما سريعًا، مولهين بجزيرة الألفة هذه التى خلقاها لنفسيهما وسط الضجيج والصخب.

لقد تأخرنا.. تقول هورتنسيا ناظرة إلى الساعة: لعلهم في انتظارك في بيتك.

- يظنون أني أتسلى في نادى البله.

- ألم تقل لهم إننا نخرج معًا ؟

- الحذاء الصغير سر تذكرى ذلك.. ثم يضيف في وقار: لا أريد سماع اسمك من أندرييا.

"أنا سر" تفكر هى وتتبه :

ألا ترى أننا أقمنا معًا مأدبة ليلة سان سلفسترى ؟ (ليلة رأس السنة) لأنى لن أتناول شيئًا في منزلنا.

هذا ما كنت أبغى. هل أنت راضية ؟

- بدرجة تجعلنى أشكر القديس سان فرانسسكو... أترافقنى ؟

- أنا في الكنيسة ؟ لست ممن يأتون هذا.

لكن يقف معها طبعًا ويساعدها على ارتداء الجمازة. يفهم إذذاك لماذا يقوم أهل الرقة بهذه الحركة، فهى تشبه معانقة المرأة.

توقف الرذاذ. تشرح له وهما يصعدان شارع مانزونى بأنها هى أيضًا غير معتادة على الذهاب إلى الكنيسة، لكنها تذهب إلى سانتانجيلو لترى سان فرانسسكو القديس الذى يعجبها، خاصة عندما تعلم أن ليس هناك قساوسة يعظون؛ لأنها لا تؤمن بهم... يسيران مجتمعين مسافة أخرى في صمت، وإذا بها تقول :

- ويمكنك أن تراه حتى من الخارج. انظر إليه !

- من ؟

سان فرانسسكو.

كانت فى الميدان بركة صغيرة مثمنة الأضلاع، كحوض نبع، لكن بلا نافورة فى وسطها، وكان راهب متكئًا على الدرابزين يتأمل عصفورًا حط على الجانب الآخر. الصورتان مصنوعتان من البرونز، لكن الوضعية طبيعية بدرجة، هناك على مستوى الطريق، جعلت تصور الفنان مؤثرًا لا سيما فى تواضعه. كان النور الأصفر من فنار يتموج تائهًا فوق الماء؛ فيسكب على البرونز شيئًا من الحياة.

- أنت تعرف يا برونو أنه كان يتحدث إلى الطيور.. إنى أفكر دائمًا فى أن هذا التمثال يعجب سان فرانسسكو.

التحدث إلى العصافير ؟ لا يؤمن الشيخ بأن العصافير موجودة فى هذه الدنيا؛ كى نتحدث إليها. لكنه يتخيل برونائينو وفى يده دورى، من المؤكد أن الطفل سيتحدث إليه. لهذا تسحره هذه البركة. ثم إنه، كما هو واضح، يمشى إلى جانب هورتنسيا التى تدخله بعد دقائق إلى كنيسة.

رواق واحد كما فى روكاسيرا، وتكاد تكون خالية وهى مفتوحة إلى الآن بمناسبة رأس السنة. تتقدم هورتنسيا بتصميم نحو

مصلى جانبى، وتجلس على مقعد تشاهد منه صورة سان فرانسسكو. شمعتان ترتعشان على مذبح المصلى، وقد أشعلتا أمام "مادونا" وعلى الجدار المقابل لوحة كبيرة مسودة كثيرًا.

يتأمل الشيخ الصورة الجانبية للمرأة إلى جانبه، وهذه البساطة الحنونة نفسها التى للبركة، بهذا الشعر الأملس المشدود إلى الوراء، وبهذا الأنف الهادئ، وبهاتيْن الشفتيْن الساكنتيْن. يعجب الشيخ بها عندما لاحظ أنها لا تهمس بصلوات؛ لأنها لو فعلت لخالها واحدة من غلاة الأتقياء. بينما هى عكس ذلك تمامًا، إنها تجسد السلام الداخلى والكمال المحقق، وهى تضع يديها على تنورتها، وصدرها يهتز فى بطء وتؤدة. يفلت منها الآن شبه تنهد سعيد، أكثر منه حزينًا. يشعر الشيخ بنفسه مرتبكة، كأنه انتهك سريرة فيحول نظره إلى اللوحة.

تتعرف نظرته التى تعودت على شيء أدنى إلى الظلمة يرخى سدوله على سان كرستوبال. غير أنه غارق حتى الركبتيْن فى الماء، ومتكئ على عصا خشنة، وهو ينظر إلى الطفل الجالس على كتفه وهو يمسكه بالذراع الأخرى. تتراءى بين الأمواج ظلال باهتة كمسوخ خرافية، ولكن وجه القديس يبدو فى منتهى الطرب وهو يتأمل عيسى. يقلد الشيخ هذا التعبير من دون أن يشعر ؛ لأن الطفل يذكره ببروناتينو رافعًا الكرة الأرضية كأنها كرة لعب.

"لكن طفلى بروناتينو أذكي وأمكر. هذا الطفل أبله ككل الذين يرسمونهم. من ذلك أنه يبدو خائفًا من الوقوع قابضًا بشعر فلان... هيا يا كرستوفورو، أحسن إمساكه كى لا يبتل المسكين !"

هورتنسيا، وقد نبهها الهمس، تلتفت إلى الشيخ متعجبة وهى تراه يحرك شفتيه داعيًا مصليًا. لكن ذلك يدوم قليلاً. يعود هو إلى صمته متأثرًا الآن، وهو يشعر أن عليه أن يتذكر شيئًا. ماذا عساه أن يكون ؟

يغمض عينيه ليستحضره أكثر – هو لا شك شيء مرت عليه سنون طويلة – فيرى نفسه قد عاد إلى روكاسيرا وهو فى كنيسة المنطقة، متذكرًا اخشخشة الألواح، والخطوات الحذرة، وصرير الأبواب، وشرر الشموع نفسها،... رائحة الشمع والرطوبة نفسها... غير أن رأسه لا تعود بهذا كله إلى الذكرى الضائعة. أتكون مقبورة فى عالم الطفولة بروكاسيرا ؟

يعود الوقت الذى كان معلقًا إلى الدوران.. ينهضان ويخرجان إلى الشارع، ويعودان إلى شارع بور غيزى القريب، وقد تركاه خلفهما عندما حجا إلى سانتانجيلو. يشتد البرد فتلتصق هى بالرجل، ويسيران بأقصى سرعة...

يودع كلاهما الآخر عند بوابة بيت هورتنسيا.

– عام سعيد.

تقدم له خدها كما فعلت لما أتاها بالورود، وهو يخلع قبعته ويقبلها على الخدين. عندما يبتعد، بعد أن رآها تدخل أحسَّ بنعومة فى الشفاه، واحتكاك شعر فى جبينه، وصورة هادئة فى مخيلته.

(٢٨)

ليلة رأس السنة كانت عذابًا بالنسبة إلى الشيخ؛ لأنه بعد كل ما تناوله رفقة هورتنسيا، وجد نفسه مجبرًا على أن يذوق من الأطباق التى أجهدت أندرييا نفسها فى إعدادها، متبعة بدقة الوصفات التى جاءت فى "كتاب المنزل". أضر الإفراط بروسكا التى تحتج بالعض فى اللحم الحى. كان الشيخ يرغب فى دخول فراشه، ولكن قررت كنتى وجوب انتظارهم العام الجديد أمام التلفاز، كما تفعل إيطاليا كلها. استطاع الشيخ التحمل إلى منتصف الليل بفضل تناوله خفية، المُسكِّن الذى أوصى به الطبيب للحالات الأكثر حدة.

بعد تبادل التهانى والقبلات، ينسحب حالاً إلى غرفته، وكان البابا قد بدأ يتحدث. يدخل الفراش ولكنه لا ينام. إنه يعلم أن الدواء سينيمه فيمنعه من اليقظة عند الفجر؛ ولذا يقرر مشاهدة بروناتينو قبل النوم، فى الساعة الأولى من العام الجديد. وهكذا لما هدأت الحركة فى غرفة الاستحمام، ودخل الزوجان غرفتهما، أخذ الشيخ دثاره وانتقل بحذر إلى الغرفة الصغيرة. هناك يقبل بلطف الطفل النائم، ويتمنى له حياة طويلة مفعمة بالسعادة، وهو منحنٍ عليه كشجرة صفصاف. يجلس بعد ذلك على الأرض، ويلتف فى دثاره، ويستند إلى الجدار ليقوم بحراسته المعتادة.

الدثار هو الذى أخرج – فى النهاية – الذكرى الدفينة التى حار فى تعريفها مُذ بدأت ترفرف أمام لوحة سان كرستوبال. لم يُجْدِ

نفعًا بحثه فى عالم طفولته؛ لأن الذكرى لا تنتسب إليه، بل إلى ليلة أخرى من ليالى رأس السنة، وتتصل بحوض نبع عمومى. إن رائحة الدثار ليست رائحة طفولته الرعوية فحسب، بل هى رائحة مغامراته فى أثناء المقاومة أيضًا. وتلك الرائحة تخلع الحجاب، فتبرز تلك الذكرى، قوية جدًّا وهى تعود إلى أربعين سنة مضت.. ليلة سان سلفسترى تلك التى تعرف فيها إلى دونكا فى ظروف مأسوية.

وفجأة يعود فيحيى كل تلك الذكريات ؛ اندهاشه فى المقهى لما رأى أن ضابط الاتصال الذى وصل هو صبيه، وفى الحين، شمَّ رائحة الخطر، الهروب الملائم جدًّا، الطلقة التى أصابته فى جنبه، حيلته لتضليل الجستابو ؛ إذ اختفوا فى حوض البركة، غاطسين فى الماء مثل سان كرستوبال... ثم ها هى المرأة تدله بشجاعة عبر المدينة المجهولة، إلى أن أوصلته سالمًا إلى مخبأ للمقاومة حيث بدأت، وإذذاك فقط، ترتعد خوفًا... كم كلفه تذكر ليلة سان سلفسترى التى لا تنسى، والتى قادتهما إلى ريمينى ؟ يقول لنفسه : "إنى أخمل هذه الذكرى فى أعماقى بدرجة جعلتها كالقلب لا يتذكره المرء."

تهزه الآن الذكريات كأمواج حزينة من الجمر والرماد، ترتبط بالماضى والحاضر مختلطين. وبمعونة المسكن يغلبه النوم كما فى الليالى بلا ذئاب وهو يحرس الحظيرة. خلافًا لذلك يستيقظ الطفل وينتصب دفعة واحدة، كأنه خارج من حلم كريه، لكنه لما تعرف إلى الشيخ قابعًا، ارتسمت على شفتيه ابتسامه، وكالقط الفرح، يغمض عينيْه، ويغير من وضعيته، ويعود إلى نومه.

وتبقى مع ذلك فى غرفة النوم الصغيرة أحلام هائمة، قد تكون متآمرة لشذوذ هذه الليلة المقسومة بين عامين، فتتسرب كالرؤى إلى الشيخ النائم. امرأة ذات عينين صافيتين تميلان إلى الخضرة حينًا، وإلى الرمادى حينًا آخر. تجذبه بسرعة من يده عبر متاهة من الشوارع، وكانت مسايرتها كفاحًا شديدًا لفقدانه فرد نعله، ولو أن الأمر يزيد سوءًا بعد ذلك؛ إذ أخذ دمه ينزف. يعدلان بعد ذلك عن الجرى : فهما فى الماء إلى العنق، وظهراهما إلى الحائط، أمام تماثيل مظلمة تنيرها فجأة بؤرة نور قوى جدًّا يكشف عن وجه ملاك باهر الجمال. بعد ذلك ومن دون أن يعرف كيف، أصبح شعره طويلاً والمرأة تسرحه له بتؤدة، بأقصى تؤدة، أو لعلها امرأة أخرى، تجبره على عدم الحراك، بينما المشط يواصل النزول فيخدشه، ويتسمر فيه، ويحك له بطنه، بينما المشّاطة الغريبة تضحك كما لو كان الألم مزاحًا، وتهدئه عصفورًا يتكلم.. يحط على كتفه فيثقل، ويزيد ثقله فيثنيه ولو أنه يعتمد على محجن[1] خشن... لا بل على ذراع امرأة، أتكون المشاطة؟ أم أن هناك أخرى ؟ لا يدرى فيحتار.

ومن حسن الحظ، وعلى الرغم من المسكن، يستيقظ الشيخ فى الوقت المناسب لعودته إلى غرفته قبل أن يستيقظ الزوجان. ينام بعد ذلك حتى مضى الكثير من اليوم الأول من العام الجديد. أندريا وهى بلا دروس بموجب العطلة، تعترف له بأنها بدأت تفرغ.

---

(١) المحجن هو العكاز.

– لا موجب للفزع . الحقيقة هى أنى نمت جيدًا. لعلى غاليتُ فى الشرب البارحة. لا أتذكر. أندريبا تتذكر وتعجب : فالشيخ فى الواقع لم يذق النبيذ. لكنها لم تستطع شرح ذلك ؛ إذ أخذ الطفل يصرخ فى غرفته، والجد يسرع للتمتع بظرافة الطفولة الأولى.

(٢٩)

لم تصدق أندريبا الشيخ، لكنه خرج فى الساعة الخامسة إلى نادى السن الثالثة. يبدو أنه وجد هناك أناسًا آخرين؛ لأن الساعة التاسعة دقت وهو لم يعد بعدُ. يقترح ريناتو :

– اسمعى ! هيا نتعشى فهو لن يتأخر.

– ألا يكون قد حدث له أمر ما ؟

– لمن ؟ لأبى ؟

إن أباه قادر على التغلب على كل شىء. لكن أندريبا تلح :

– إنه مسن.

"صحيح – يفكر ريناتو فى حزن ثم إنه... لكن نراه دومًا قوى العزم وراضيًا ؛ فنسى مرضه. مرضه القاتل.

تهاتف أندريبا النادى، ولكن المديرة انصرفت، والبواب غير قادر على إيضاح وجود عضو جديد هناك هو السيد رونكونى... لم

يجب عن النداء عبر الميكروفون، لكن "هؤلاء الشيوخ لا يـسمعون قط"، كما يشرح الموظف باحتقار. أندرييا وريناتو يتبادلان النظـرات حائرين. عندما يسمع صوت المفتاح فى القفل، وقع خطـى حـذرة، يفكر فى الطفل النائم، ويظهر الشيخ بملامح تدل فعلاً على أنه تسلى. يعتذر فى غير وضوح وهما يعبران له عن قلقهما فيجيب :

- أأنتما غبيان ؟ ماذا عساه أن يحدث لى ؟ لى أنا؟

ريناتو يبتسم : أكيد، ذلك لا يعقل. يواصل الشيخ فـى مـرح وهو يخلع سترته الجلدية :

- أمسية رائعة، رائعة.

أندرييا المندهشة تدخل المطبخ لتقدم العـشاء علـى المائـدة المعدة. يبدى الشيخ شهية رائعة، ويشرب قليلاً من النبيـذ. رينـاتو وزوجته يتبادلان نظرات التعجب. ولما اضطجعا وأطفئت الأنوار لم تعد أندرييا تتحمل أكثر:

- الحق يقال، أبوك... - تتنهد - لا أفهمه... لا، لا أفهمـه. إنه من كوكب آخر.

كوكب الشيخ فى تلك الأمسية يسمى : "عام جديد سعيد" وهـو عنوان عرض شعبى من المنوعات قدمته البلدية على مسرح متنقـل أقيم فى ميدان أكورسيو. لقد دعته هورتنسيا لمشاهدته، وقـد جلـسا وسط جمهور من الأطفال والجنود، ومن هم فى سنه. والآن، وهـو

فى فراشه، يعود الشيخ إلى التمتع متذكرًا المناظرة. امـرأة ورجـل يركبان دراجتين تتفككان قطعًا، قطعًا "يا لإسـت هـذه الملعونـة." الساحر الذى يشطر مرافقته الهزيلة إلى نصفين داخل صندوق، ثـم تظهر فى الممرات بين المقاعد. وعراف أوراق اللعب وما يخطر فى بال المتفرج (لكن هذا فيه دائمًا حيلة). والبهلوانات مع ذلـك الطفـل المسكين وهو يقوم بالقفزات الخطرة، ومجموعة الرقص التى تخرج بين مشهد ومشهد عارضة عددًا من الأوراك الجميلة... لكـن فـوق الجميع مانغورونى، مانغورونى الشهير، الـنجم الأوحـد بنـوادره ولوحاتها الصغيرة المضحكة... "مانغورونى هات أخرى - يتصايح الناس- ما نغو - رو - نى."وهو يعود إلى الظهور بملامح مختلفة؛ ليعطى هبة أخرى لجمهوره الميلانى المحبوب والمحتـرم... يتمـد الشيخ قهقهة وهو يتذكر ذلك المشهد الذى أقنع فيه مانغورونى إحدى مغنيات الجوقة بأنه صيرها بقرة، ويدلل على ذلك ماسحًا لهـا ذنبًـا خياليًا وواضعًا إياها على أربعة كى يحلبها - "إنه يقلـد ذلـك جيـدًا علامة على أنه يفهم فى الحلب !" - فيرى الجمهـور اللـبن يتـدفق أبيض فى السطل الذى وضعه تحت الفتاة، بينما هى تخور متمتعة...

"كيف يفعلون ذلك ؟ لأن مانغورونى أخذ أحد المتفرجين مـن مقعده وأعطاه كأسًا من ذلك اللبن، لبن بقر حقيقى... "لكن الأحـسن جاء فى النهاية : صاح مانغورونى قائلاً إنه يشعر بصيرورته ثورًا،

ونزل على أربعة أعضاء وراء المغنية لغاية معلومة. فانطلقت الفتاة تخب وهو وراءها يرافقهما تصفيق مجنون.

– قالت له هورتنسيا : كم أنت مستمتع ! يسرنى كثيرًا أن أسمعك تضحك هكذا.

– هذا الشخص ممتاز... من الممكن أنه يقبض على الفتاة هناك وراء الركح... تصورى !.

– كم تخطر ببالك أشياء !

– أشياء الحياة. لا تشمئز منها الماعز فى أعلى الجبل ومعذرة.

نظرت إليه هورتنسيا مشفقة :

– أنت تضحك كالطفل.

– هكذا يجب الضحك. يجيب هو ناظرًا فى عينيها، تاركًا الضحك شيئًا فشيئًا، وهو يلاحظ فيها حنانًا ممتعًا كثيرًا وسنًا حيوية..." آى، يالها من أم لابنى بروناتينو ! – يتنهد الشيخ الآن وهو فى فراشه. يالهما. من ذراعى أم!."

(٣٠)

– هل أعجبتك الهدية يا أبى ؟... أردت أن أقول يا جدى. أيعجبانك ؟

– واضح أنهما جيدان جدًّا... شكرًا يا أندرييا.

"سانتا مادونا" (يا قديسة مريم)، لا يخطر إلا على بال هذه إهدائى قفازين، فنحن لا نلبس هذا. القفاز للسادة الميلانيين أو للسيدات اللاتى لا يعملن شيئًا بأيديهن... هناك فى بلادى لم يكن يلبس القفاز إلا ذاك السائق لسيارة الماركيز لما كانوا ينزلون من روما؛ كى يحلبوا قليلاً من اللبن ويأخذوه معهم. قذر ذلك السائق. كان يظن أنه بكمته[١] ومسماته يستطيع أن يستهوى أية فتاة.. فتياتنا طيبات لا يذهبن مع الغرباء، والتى تستسلم ليس أمامها سوى الهجرة؛ إذ لا أحد ينظر إليها بعد ذلك... أجبر السائق على الذهاب إلى كاتنزار، ودخول دار الزغارونا (بيت دعارة) بمقابل. ومن الغد لم يعد يتباهى كثيرًا، وعاد كالديك الحزين."

– مم تضحك يا جدى ؟ ألا يعجبانك ؟

– كثيرًا. يا له من جلد جيد !... لا شك أنه كلفك كثيرًا. لكن انظرى إلى يدى يا امرأة، لا يدخلان.

تندهش أندرييا؛ لأنها اقتنت فعلاً أكبر حجم. تقارن اليدين بالقفازين فترتبك معتذرة. يحاول الشيخ تسليتها، لكن الواقع لا يرحم. القفازان كبيران بما فيه الكفاية، لكن مخالب هذا الدب الجبلى لا تدخل.

---

(١) غطاء للرأس. المسماة حذاء من نوع الحذاء يصل إلى الركبة.

– أنا غبية، معذرة. تختم أندرييا. لم يخطر ببالى شىء أحسن لعيد الملوك.

(من عادة الإسبانيين وبعض شعوب أوربا الأخرى، الاحتفال بيوم ٦ يناير من كل عام بتتمة لعيد الميلاد يسمونها "لوس رايس" (الملوك) وهم فى اعتقادهم ثلاثة ملوك شرقيين زاروا المسيح عند ولادته، مهتدين بنجمه الساطع، وهم يزورون البلدان فى العيد حاملين الهدايا للأطفال).

يتأمل الجد يديه مفتخرًا، كما لم يفتخر قط : "لا مثيل لهما فى ميلانو. ثم علاوة على أنهما خشنتان تزران الأزرار الصغيرة للطفل!"

يسرد القصة على هورتنسيا بعد الظهر، وكانت تلفه فى شقتها بلفاع. تضحك هورتنسيا؛ لأنها فكرت هى الأخرى فى قفاز ولكنها تذكرت هاتين اليدين.

– أى صوف هذا ؟ من المؤكد أن بها موادَّ كيميائية. يشك الشيخ وهو يشعر بهذه الليونة حول عنقه.

– من أحسن صوف – تشرح هورتنسيا – إنجليزى.

– إن كان الإنجليز رفقاء جيدين. هم كثيرو الأوراق ومملون، ولكنهم منجزون. ذلك المستر.. كيف كان يدعى ؟ كنا نناديه تارى،

اسم الكلب، وكان يجيد المقاومة، وكانت تخطر له أكثر من مكيدة ضد الألمان.. كان يكتب كل الجزئيات ويأمرنا بتكرارها... لكن قتلوه لتنفيذه الأمر على الرغم من أن الأمور جاءت بشكل آخر... لا يجدى الإكثار من الحسابات."

يقبل الشيخ اللفاع الجيد، ولكنه يستمر محافظًا على لفاعه القديم في يده مترددًا. تشبهه هورتنسيا بالقرويين فى مكتب المحامى وهم لا يعرفون ما يصنعون بالقبعة.

– لا، لست فى حاجة إلى رمى القديم يا رجل. هل أحتفظ لك به ؟.. لعلك تشتهى يومًا وضعه. "تكهنت مرة أخرى بما فى نفسي... يا للمتعة !"

عزيز على – يجيب وهو يسلم كنزه كوديعة – وهو من صوف غنمي. صنعته لى ابنتي... بالمناسبة ! هاتفتنى أمس وسيرسلون لى مالى. ثم..

يتباهى بالخبر : التيس ساءت حاله. فالطبيب لا يزوره إلا ليخدعه بالآمال. الكانتانوتى يبكى لما يحدثه القسيس. شديدات التقوى يقلن إنه نادم على شيء، وتائب وهو سيموت كالقديس. "قديس ذلك الشخص ؟ إنه يبكى خوفًا ويتغضن؛ لأنه ليس رجلاً !"

يقدم الشيخ فى هذه الأثناء هديته من دون أن يجرؤ على تثبيتها بنفسه.

– هذه فعلاً جميلة، هذا كثير ! – تمدح هورتنسيا وهى تثبت الهدية فى فستانها.

لقد فكرت برهة ما فى أن تطلب منه أن يثبتها لها، ولكنها لم تجرؤ. المهم هو أنها تلمع الآن على صدرها.

قارب صغير مصنوع من الفضة المتشابكة. واضح أن "الجندول" بلا ربان، وحتى لو كان يوجد فى الدكان "جندول" بهذه الجزئية لما اشتراه؛ لأن ذلك يبدو له قلة احترام للمرحوم.

– جميل جدًّا –تكرر هى – مُذ ترملت لم يأتنى الملوك بشىء فى هذا الجمال.

– فى بلادى ليسوا الملوك، بل هى البيفانا الساحرة. ساحرة طيبة، فمنهن الطيبات، مثل ساحرة صخرة أنزوتا التى تفزع الذئب وتطفئ نيران السوء. كل الناس يعرفون ذلك.

صلاة الملوك فى نابولى – تضحك هورتنسيا – نلقى بالمتاع القديم من النافذة بما فى ذلك قطع الأثاث. نكدس كل ما عند الجيران ونشعل فيه النار. يا للهب ! يصعد الشرر فيبلغ النوافذ...

يعود الشيخ إلى المنزل بالحذاء الصغير المحفوظ حتى الآن لدى هورتنسيا، وكما لو أخرجها للتو من الخزانة، يعرضها منتصرًا ساعة إرقاد الطفل. يرفعها عاليًا بيده الخشنة، فيثير نظرة سعيدة من ريناتو إلى زوجته كما لو قال لها :

أرأيت كيف هو أبى ؟" وأندرييا تدهش فعلاً لحسن الذوق الذى اختار به الشيخ." من كان يظن هذا فى قروى؟"الوحيد غير الراضى هو برونانتينو، عندما أرادوا تجربتها له. جعل يقاوم فى البداية هذا التجديد، ولما وضعها فى رجليه الصغيرتين جعل يدعك فردًا ضد آخر، كى يخلعها ثم يبكى ويخبط برجليه جالسًا أولاً، ثم واقفًا. لكنه يشعر إذذاك بوطأته أكثر قوة، فيتأمل رجليه مندهشًا، ينظر بعد ذلك إلى الكبار ويخطو بعض الخطى المترددة، فتظل بسمة صغيرة بين الدموع. ينطلق بعد ذلك عابرًا الغرفة، معانقًا ساق الشيخ عندما كان على وشك السقوط.

هاتان الذراعان الصغيرتان تطوقان الركبة، كما يطوق الحلبلاب شجر الدردار قرب المصلى ! تصعد السعادة مارة بالفخذ والأحشاء من فوقها، ومغرقة القلب، وضاغطة على الحلق، حتى تبلغ عينى الجد. وقبل أن تنسكب منهما، يأخذ الشيخ الطفل ويرفعه إلى مستوى كتفه جالسًا على هذه اليد الكبيرة، عدوة القفاز، والتى تحوى كامل مؤخرة الطفل الصغيرة.

برونانتينو يضحك ويصفق. أندرييا وريناتو يصفقان أيضًا. يرى الشيخ نفسه مثل سان كرستوبال فى لوحة المصلى وهو يمرر الطفل إلى ضفة عام آخر جديد، نحو أعوام كثيرة... ثم يصرخ :

– يا ريناتو لا بد أن تصورنى هكذا. وبعد ذلك يفكر :

"وعندما آخذ الصورة سأعطى نسخة منها لهورتنسيا."

(٣١)

"أتعلم ماذا ؟ لو أمعنا النظر لرأينا أن القفازين أتت لـــى بهمـــا البيفانا، الساحرة الطيبة ! نعم، يا ملاكى الصغير، هى التـــى أوحـــت بالفكرة لأندريبا، هذا مؤكد ! ولو أنها تكدرت كثيرًا... أستاذة وكـــل شىء، لكنها كادت تنهمر بكاء."

يفرح الشيخ وهو ينظر إلى الطفل نائمًا... السماء صافية مـــن جديد، مكنوسة بريح البحيرات. هلال أبيض، رقيق كالمنجل، يلمـــع باردًا فى الزاوية العليا للنافذة.

"إذن، أنت تقول: أين القفازان ؟ انظر إليهمـــا، فـــى رجلـــى. سنبدل بهما هذا البابوج[١]... فتنال الشيخوخة ما لم ينله الشباب. لـــم أستهلك قط بابوجًا، لما كنت فى سنك حافيًا. وبعد ذلـــك نعـــال مـــن خشب وأحذية. هنا أحذية... لكن بالحذاء تسمع خطاى لـــيلاً خـــارج البساط، فى الحمام والمطبخ، أى بالضبط حيث تدفعنى الروسكا كـــى تهدأ بلقمة، أو كى أبول فأترك لها فضاء أوسع؛ فهى كما ترى، لمـــا تشعر بالضيق لا تكف عن الهيجان... بالحـــذاء فـــوق الـــبلاط قـــد يسمعوننى. أما بالجوارب فأشعر بالبرد. ليست كجوارب الماضى... إنها جميل، إذن، فكرة البابوج.

---

(١) نعل خفيف يلبس فى البيت.

"تستمع إلى أليس كذلك يا بنى ؟ ما الفرق إذا كان فمى مغلقًا ؟ يسمع المرء إذا فكر بروحه.! هل تعلم هذا : انظر مثلاً بثبات إلى شخص وأنت تفكر : "لو نبست لسحقتك"، وإذا بالشخص يجبن، صدقنى... وباللطف كذلك انظر إلى امرأة وأنت تتخيلها فى رأسك، عندها تحقق النموذج الذى تتطلع إليه... هكذا كنت كل ليلة أفكر فى شياهى، وأين أرعى بها فى اليوم التالى، فتكاد تتجه وحدها حيث فكرت... حتى الحيوانات تدرك.

"لهذا أقول إن البابوج فكرة خطرت على بال البيفانا. أمشى به فى صمت كما فى الجبل، وبأكثر انزلاقًا من سنور. كما كان الأمر وقت الحرب : بنعالى الخشبية، انتهى أمر الحارس العدو. كان لما يشعر بوجودى لا يخرج نداء النجدة من فمه، بل من شق المذبحة تخرج رقرقة دمه وصوت خفيف. حتى تورلونيو لم يكن يأتى عليهم مثلى ! هذا مع أن تورلونيو كما تعلم.

"هنا أفضل مما كان فى الحرب؛ إذ لا أغصان تطقطق، ولا حصى يتدحرج... فهذه البيوت فيها شىء حسن فى الأقل، وهو هذا السكون، سكون الأموات. واضح فالخرسانة تخنق الأصوات، كما تمنع سيلان الأنهار عند السدود... أموات هى هذه البيوت، نعم ! وخلافًا لهذا، فتلك المنازل هناك حية يا طفلى الصغير، تحيا فى خشبها وطوبها وحتى فى حجارتها؛ لأنها من الجبل نفسه حيث تقع. وبما أنها حية فهى تتكلم. تحكيه كله وخاصة فى الليل كالعجائز اللاتى أصابهن الأرق.

"تندهش ؟ سوف ترى ذلك يا بنى. فى صغرى لم أكن أفهم حديثها. كان مغايرًا كثيرًا للأصوات فى أعلى الجبل مع المواشى. كانت المنازل الكثيرة التجويف تخيفنى فكنت ألتصق بجسم أمى. باحثًا عن حماية. لكن إذا انقلبت، سقطت الذرة وأصابتها الفوضى. أسكن إذاك ولا أتحرك فإذا بالدنيا كلها خشخشة وقعقعة وصرير من حولى... من أين لى أن أعرف. فكما لو كان المنزل كله يتململ فوق الأرض؛ كى يسوى وضعيته فتطقطق مفاصله. لكن لم يكن الأمر هكذا، فقد بتُّ أفهمه.. كان المنزل يحكى أشياء، إذ هو غنى بالذكريات ومع الزمن تعلمت الإصغاء إليه، كما ستتعلم أنت يا ملاكى الصغير؛ لأنى سأعلمك كل ما يتعين عليك... أعرف، أعرف ذلك، لم يبقَ لى من الوقت الكثير لكن يكفينى ما بقى : ففى الحياة قليلة هى الأشياء المهمة. لكن، نعم، يجب معرفتها معرفة جيدة؛ كى لا ينشأ خطأ أبدًا، أبدًا."

يمد الشيخ عنقه وينظر داخل المهد. تحرك الطفل فى نومه.

"أنت تصغى إلىَّ طبعًا... طيب، فأنا تعلمت حديث المنزل. أكذب، بل الأحاديث؛ لأن كل ناحية لها لغتها... انظر، كان يسمع صوت السلم فجأة، تشس، تشس، درجاته واحدة تلو الأخرى والدرجة قبل الأخيرة واهنة؛ فتصرخ بأعلى صوت... وهكذا نعلم أن النازل هو السيد مارتينو صاحب الطابق العالى؛ حيث تنام أيضًا سيدة البيت والابنة.

"وإلى أين يذهب السيد فى مثل هذه الساعة ؟ قد تتساءل أنت. حسب الظروف. إذا أخذ الممر فى الحديث فإلى المطبخ، تا، تا، خطوات ثابتة جدًّا، وهذا يعنى أن السيد اشتهى أن يداعب السفارينا أو الخادمة التى كانت آنذاك تداعب عصفوره. وإذا لم يُسمع شىء بعد سكوت السلم، كان السيد يدوس أرض البهو، والأرض لا صوت لها، فهى لا تتكلم إلا عند لمسها وشمها. فالسيد، إذن، فى طريقه إلى الإسطبل ليلقى نظرة على الدواب التى تستقبله بصهيلها وخوارها ووقع الحوافر كما اعتادت... أتعرف متى يجب الحذر ؟ لما يسكت السلم فتدوى الألواح الخشنة، طن ، طن، ألواح الممر الذى يؤدى إلى غرفتنا، غرفة الغنامة؛ حيث كنا ننام." يضحك الشيخ فى صمت أمام الذكرى المفاجئة :

"فى بعض المرات، كان يدخل آنذاك شاب من النافذة وكان قد خرج منها لملاقاة فتاته، وكان قد سمع صوت الألواح فى الوقت المناسب. يا للغضب ! عدم إتمام السقاية... وكان السيد، إذا شعر بالأمر، يقول من عند بابنا وهو يرفع الفانوس عاليًا : "سنتكلم غدًا يا موتو أو توريدو أو أى كان – فمن يعمل ليلاً يكسل نهارًا." كما أقوله لك، إن المنزل فصَّاح. فهو لا يستر ولا ذلك. ترس، ترس، هذا الصوت الذى يسمع بسرعة ثم بأكثر سرعة يحدثه خشب سرير السادة الرقيق هناك فى علٍ... يقول المنزل كل شىء : الليالى المأسوية والشماتة والمرض والنفاس... أما الموت فحدِّث به، إلا أن

السهر على الأموات يكون عكس ذلك : يسكت المنزل ويهمس جميعنا كما فى حلم مزعج، أو كما لو كنا نحادث المنزل. ذلك الجد الذى يعرف معنى الحياة."

يبقى عقل الشيخ معلقًا مترددًا : لقد فاه الآن بحقيقة لم تخطر من قبل على باله قط. لما كان الموت يفاجئ المنزل، كان كأنه يقول لهم فى صمت : "لا تخافوا، ها أنا باقٍ واقف دائمًا كى تستمروا أحياء. هكذا كان يقول، نعم، وفوق هذا...

"أتعرف شيئًا يا ملاكى الصغير ؟ أكتشف الآن أن منازلنا لم تكن فاضحة كما كنت أقوله لك، بل هى تحدثنا عن الغير كى نعرف كيف نتعايش ونصبح جميعًا رفقاء كمقاومين فى هذه الحرب، التى هى الحياة؛ لأن الإنسان وحده لا يساوى شيئًا... هذا ما تعلمنا إياه تلك المنازل. ولهذا ففى بيوت ميلانو الميتة هذه لا سبيل لتعلم التعايش... ناطحات السحاب تلك التى تعجب أندريا، المملوءة لا يعرف بعضهم بعضًا، ولا يتبادلون الكلام كأنهم متخاصمون ! لو اشتعل حريق، ماذا يجرى ؟ فلينجُ من استطاع !... وهكذا فهم جميعًا: أنصاف رجال وأنصاف نساء !"

– يندهش الشيخ لاكتشافه غير المنتظر فيركع بجانب المهد. إذاك وفى اندفاعه يصل فعلاً إلى تحريك شفتيه فى همس مسموع :

– أراه الآن بوضوح يا طفلى الصغير. أرى ما أنا قادم من أجله كل ليلة، وهو أن أقيم هنا منزلاً لنا داخل هذا البيت؛ كى نحيا

معًا، أنا وأنت، رفيقيْن فى فرقة... إن لم يعرف هؤلاء الناس كيف يعيشون، فستعرف ذلك أنت لأنى أعرفه... من أجل هذا، لكن لم يخطر لى قط على بال، إلا الآن وبجانبك... لأنى بجانبك أتعلم أيها الرفيق. يا للعجب ! أنا أيضًا أتعلم منك. لست أدرى كيف ولكنك تعلمنى... آى، يا بروناتينو طفلى، يا معجزتى.

(٣٢)

حاسة الشعور بالخطر لديه لا تخطئ، فيفتح الشيخ عينيه. ماذا حدث ؟ خشخشة، احتكاك، خطى قصير... لا يمكن أن تكون خطى... هى غير راسخة... لكن، إذن...!

يجلس دفعة واحدة فى راشة "بروناتينو فى الممر !" يلبس البابوج كالبرق سرعة، وهى ميزة مقارنة بالجوارب. "إلى أين يا ملاكى الصغير ؟" يلقى دثاره على كتفيه ويطل على الممر الذى يأتيه ضوء ضئيل من المدينة عبر الغرفة الصغيرة المفتوحة. يلمح الشيخ فى أعماق الممر بروناتينو، كأنه عفريت أبيض فى منامته متجهًا، وهو يهتز ولكن فى تصميم، نحو غرفة نوم أبويه. وفى برهة، يغيب دخل،

"والآن ؟ – يفكر الشيخ محتارًا – آى يا بنى، أخطأت، أنت تتجرأ كثيرًا.. هذا الحذاء علمك السير بسرعة فوثقت ! لكن لا يطوف الأطفال لن يتركاك، يريدان أن تنام وحدك.." يدهشه فى

الوقت نفسه هذا الطفل، ويفخر باحتياله لينزل من مهده، ويمشى هادئًا هكذا فى هذا العالم المظلم. بلا بكاء باحثًا عما هو له، عن حقه، عن أبويه.. "مرحى يا بروناتينو !"

يعلو همس وغمغمة فى الطرف الآخر للبيت. خشخشة سرير وخطوات كبار... وعلى الرغم من أن الدثار البنى يخيفه فى الظلام، فإن الشيخ يدخل غرفته ويبقى بجانب الباب. يسمع أندريا تلقى على الطفل الصغير كل ما عندها من كلام التدريس الفارغ. يسمعها تدخل غرفة النوم الصغيرة. يسمع خشخشة المهد وأول أنين صدر عنه وعودة أندريا إلى غرفتها وبكاء الطفل الجديد الذى يثير الضيق : بكاء بين شكوى ومطالبة، بكاء يتصاعد؛ لأن الطفل يخرج مرة أخرى إلى الممر.

– عد إلى المهد يا بروناتينو !... لا تأتِ، أتسمعنى ؟ قلت : لا تأتِ

يبدو أن صيحة أندريا لا توقف الطفل.

هل أنت لا تفهم ؟... أنت شرير. لقد أيقظت الجميع فى ساعة نوم... ماما ستغضب !

يسمعها الشيخ تدخل من جديد غرفة نوم الصغير، وتضعه فى مهده.

"عندما تتركك وحدك سأجتمع بك أيها الرفيق." يقسم بذلك.

لكن تبقى أندريا هنالك بعض الوقت وتعود فى النهاية إلى غرفة نومها. لكن الشيخ لم يجد متسعًا من الوقت للإسعاف فاستأنف البكاء بتأثير. تصيح المرأة غاضبة :

– هذا الطفل ! ما الذى يبكيه ؟ ماذا يريد ؟ لا يشكو شيئًا ! ألا يفهم ؟

يكلم ريناتو زوجته بصوت منخفض، ويذهب فى النهاية إلى غرفة النوم الصغيرة؛ حيث يحاول إسكات الصغير.

بما أنه لم يخرج، يعود الشيخ إلى فراشه، ولكن لا ينام. كان حانقًا. "لا يفهم، لا يفهم.. أنتما المغلقان حقًّا ولا تفهمان. ألم تكونا طفلين ؟ ألم تخافا ليلاً أن تفتقدا جسدًا ملتصقًا بجسدكما ؟"

يعود ريناتو فى النهاية إلى فراشه، وتسود فترة سكون، لكن الطفل قد انقطع عنه النوم ويعود إلى اليقظة باكيًا. الشيخ لم يعد يحتمل فيذهب ليسليه، فيتقابل فى الغرفة الصغيرة مع ريناتو.

– اذهب لتنام.

– لا يا أبَتِ، نم أنت من فضلك.

يمد الطفل ذراعيْه الصغيرتيْن للشيخ؛ فيحتضنه بلهفة وحب.

– أرأيت – ينتصر صوته – أرأيت ؟

– لا يا أبى، هذا شأنى. شأن أندريبا وشأنى. شأننا نحن.

يصر الشيخ ولكن يشعر أن ابنه لن يستسلم. فينسحب. سيدير المعركة بطريقة أخرى. يفهم أن ابنه يطيع أندريبا، والطفل خاضع هكذا لأندريبا. حتى هو، برونو، ممتثل لها. ملعون الطبيب وملعون الكتاب. لو لم يكن من أجل...! فى جنة من الغضب المكبوت، يجلس فى فراشه من دون أن يضطجع؛ لأنه لو فعل لطار جسمه كمشواة على النار. يسند مرفقيه إلى ركبتيه ويحنى ظهره ويتأمل :

"يا للبشاعة ! العالم منقلب. يجب إنقاذ طفل من أبويْه... المتوحشون لا يأتون إلا هنا!.. مع حبهما له، حسب ظنى... هل هما مجنونان ؟... ليست أندريبا الجلاد. هى أيضًا تمتثل. الجلاد هو ذلك الوغد بخاتمه وسباله، ابن العاهرة، "الدتورى" أو كيف يسمونه هنا. ذاك، ذاك هو الحاكم بكتابه، كتاب المحامى فى يده، هذا القانون الذى يهمل الأطفال ليلاً. ذاك المأبون صاحب المنديل البارز من جيب سترته ! كان لزامًا قتله. لو..."

تراوده هذه الفكرة وقتًا قصيرًا ثم يتركها :

"لن يفيد هذا، فسيأتى آخر مثله..."

ينتهى الأمر بالشيخ إلى الاضطجاع، ولكنه يتملل فى الفراش منتبهًا للأحداث ومستعدًا للتدخل إذا ما أصبح الوضع خطرًا... لا يعزيه إلا معرفة أنه حاضر لمواجهة صاحب المنديل، والكتاب،

والعالم كله، بما فى ذلك ريناتو، هذا كما لو كان كذبًا أنه ابنه – الذى يحاول ترك الطل فى الوحدة التى يودعانه فيها... يغمر قلبه الإعجاب فى الوقت نفسه بشجاعة الطفل :

"فى هذا الصغر وبهذا التصميم. هكذا أريدك، متمردًا مطالبًا بما هو لك... لا، لم يكن الحذاء مصيبتك بتعليمك المشى، بل هو سلاحك كى تحسن الصراع... لو احتجت إلى أخرى فستنالها يا طفلى الصغير. أنا أعطيكما لأنك مثلى من المقاومة أيضًا... شجاع ليلاً وتخرج للنزال. آه يا برونانتينو، يا رفيقى :

ستنتصر أنت ! كما انتصرنا نحن. نعم، إنك ستنتصر.

(٣٣)

على مقربة من الفجر سقط الطل فى نوم عميق؛ نتيجة التعب. والآن تجرى تحضيرات الزوجين؛ كى يذهبا إلى عملهما فى مجرى يبدو عاديًّا، لكن الكلمات تبرز بجهد، والنظرات تتحاشى التلاقى، والزوجان يهمسان على حدة.

يقرر الشيخ : "سأخرج إلى الشارع بمجرد وصول آنونسياتا. لا بد أن أقص عليهما، وهى ستغضب أكثر منى؛ فهى – فى النهاية – أمٌ.

ثم إنه لا يريد الشعور باتهام صامت فى أول نظرة يوجهها إليه الطفل. سيكون ظلمًا؛ لأنه لم يهمله. فكرة الإهمال تذكره بعظة

أجبر على الاستماع إليها إبان الحرب؛ لما كان مختبئًا فى قبة كنيسة وكان ذلك المعبد كل عالمه، عالم يراه من كوة، هناك تحته. كان الوعظ فى عيد الفصح، وكان الواعظ رويهب قد تأثر كثيرًا وهو يعلق على كلمات المسيح مصلوبًا :

"يا إلهى، يا إلهى ! تخليت عنى ؟"

فيشرح الراهب ويقول : لكن الله لم يتخلَ عن ابنه، ولا تخلى عن إيطاليا المحتلة، ولو أن الألمان يصلبونها. هكذا أيضًا يبرر الشيخ لنفسه: "لا يا كنزى لم أتخلَ عنك، ولو بدا الأمر كذلك. أنا قديسك كرستوبال، وأفضل لى أن أغرق معك. أنا إلى جانبك وسننتصر !"

عند نزوله السلم، يتذكر وجه الرويهب المراهق الذى لا يصدق أحدًا من المقاومة، ومع هذا فقد أنقذ الكثيرين كالشيخ نفسه، مجازفًا بحياته. وبعد ذلك بقليل اكتشفه الجستابو، فأعدم رميًا بالرصاص. "كيف كان يسمى ؟.. أفق الذاكرة ؟ لم أعد أتذكر ولا حتى ما حدث فى تلك الأيام... والتيس الذى لم يثره بعد، يتمتع هناك بالشمس اللذيذة، بينما نحن هنا..."فالسماء لا يمكن أن تكون أكثر دكنة، والريح الجليدية تجبره على إمساك قبعته وهو يمشى. عند مروره بميدان موسكوفا أمام نبع فرانسسكو يتذكر ليلة رأس السنة "سان سلفسترى" صحبة هورتنسيا. القديس له وجه إنسان طيب، لكن...

"بدل العناية بالعصافير التى تأكل البرقوق – يواجه الشيخ التمثال البرنزى – يمكنك أيضًا أن تهتم قليلاً بالأطفال... فبعد كل شىء أنت صديق هورتنسيا."

ينادونه من خلفه، فيلتفت مندهشًا. ولما رأى فاليريو، تذكر أنهما تواعدا إلى ما بعد عيد الملوك. يؤكد الشاب ذلك :

– كنت فعلاً أتهيأ لمهاتفتك. سنسجل بعد غد – يلمح تعجب الشيخ فيضحك – أنسيت ذلك ؟ سنهديك يومية الجامعة !

– يومية من تلك التى تأمر الميلانيين بما يتعين عليهم فعله، والتى يسجلون فيها أشياء الشهر التالى ؟ أبدًا يا فتى ! هل تقول إنها نزهات؟

– إن كنت تفضل يومًا آخر، أغير التاريخ مع المخبر.

– رونكونى له كلمة واحدة. بعد غد وحيث شئت.

– سآتى وآخذك من بيتك.

يتودعان ويقول الشيخ لنفسه : "فاليرو جلب لى حظًّا سعيدًا" وبعد قليل يلتقى هورتنسيا خارجة من السوق الكبيرة. تفرح هى لرؤيته :

– وتلبس لفاعى !

– هو ملاطفتك فى العنق !

تبتسم المرأة. لم يجرؤ هو، على الإضافة بأن رائحتها فيه، وفى الوقت نفسه يلوم نفسه لسكوته عن ذلك. ما به ؟ كأنه رجل. يدعوها إلى تناول قهوة، وبعد الجلوس يفرغ غضبه ضد ذينك الأبوين :

-... لكن لا شيء يفيد. إنهما عنيدان كالكبش، وقد وضعوا لهما الفكرة فى رأسيهما. سمعتها هذا الصباح تقول : سينتهى به الأمر إلى التعود يا ريناتو. "الدتورى" يقول ذلك. يجب أن لا نترك الطفل يطغى علينا... "أترين ذلك يا هورتنسيا ؟ طاغ ذلك الملاك الصغير ؟ والذى يفعلانه معه أليس طغيانًا ؟ يا للوحوش !

- لا تغالِ يا برونو. فليس من الحسن أيضًا أن يسمح للأطفال بكل شيء. يجب تربيتهم.

ينظر إليها الشيخ وهو لا يصدق. "كيف لها أن تتكلم هكذا ؟ هل أصابتها العدوى بعيشها طويلاً فى ميلانو ؟" يجيب متلائمًا :

- أأنت تقولين هذا ؟.. السماح بماذا ؟ بأن يكون له أبوان ليلاً ويفقدهما نهارًا ؟ أن يرى نفسه بجانبهما إذا أصابه الخوف فجرًا ؟... أتهملين ابنتك يا هورتنسيا ؟ لا أصدق !

تبتسم المرأة مهدئة. تضع يدها فوق يد الرجل.

- إهمال ؟... تهمس هورتنسيا - هذا ليس إهمالاً.

"يا لطبيعتها ! – يعترف الشيخ وهو مصغٍ إليها – تفكر تفكيرى نفسه، ولكنها لا تريد إلهاب النار... لا حاجة لذلك؛ فهى تلتهب بما فيه كفاية !"

– مهما كان الأمر، هل فعلت ذلك مع ابنتك ؟ أجيبينى ! ثم يشتكون بعد ذلك من أن أبناءهم يغادرون البيت متى استطاعوا !

تجيب المرأة بتؤدة.

– آى يا رونو ! الأبناء تركوك تفعل معهم ما فعلت. وفى النهاية، تبقى الواحدة وحيدة.

كان فى هذا الصوت كثير من الحزن؛ مما حدا بالرجل أن ينسى غضبه. ويتذكر كذلك وضعيته الخاصة فيجيب بحنان :

– الحال هى أنك لم تفعلى ذلك.

– لا، لم أفعله.لكن ابنتى فعلته، وحفيدتى تنام الآن وحدها... أمهات اليوم يفكران هكذا؛ ظنًّا منهن أن هذا أحسن.

– أحسن من الشعور بالحنان... قد يقول هذا ذلك الكبير الملعون، الجانى فى كل هذا.. من هم الأطفال لديه ؟ لو مرضوا كثيرًا أحسن فأحسن. أليس كذلك ؟

تبدى هورتنسيا حركة استسلام :

– قد يكون معك الحق يا برونو، لكنــك لا تــستطيع تغييــر العالم... لست قاتلاً الطبيب ! سبق وأن فكرت فى ذلك.

لم يرفع صوته، ولكنه رن فى جد وعنف، حتى أن هورتنــسيا ارتجفت كما لو كانت قد رأت جثة. تضحك بعصبية.

ألا تصدقيننى ؟ – يسأل الرجل معاتبًا.

لا تتضايق، فأنت قادر على ذلك، لكنك لن تصلح شيئًا.

– أعرف ذلك. يأتون بآخر مثله؛ وفوق ذلك يفقدنى الطفل من جانبه. هذا هو ما ينجيه ذلك المأبون ذو السبال.

– ولا يمكنك أيضًا مشاجرة ابنيك؛ لأنك لن تــستطيع البقــاء معهما... افهم ذلك. لا تستطيع فعل أى شىء.

– هه، هذا ما سوف نرى.

الضحكة الجافة تجبر هورتنسيا على النظر إليه بعناية أكبــر. تكتشف وجهًا شبقًا، لوذعيًا وموقنًا. العينان الــصغيرتان شــرارتان ذكيتان بين الجفنين نصف المغمضين، ورسم التجاعيــد صــار مــن جلمود صخر.

– يستطاع، يستطاع – يكرر هذا الصوت القاطع – يــستطاع دائمًا إذا توفرت الإدارة.

تنقبض اليد فى بطء تحت يد هورتنسيا الموضــوعة فوقهــا، فتعبر عن كل الإرادة التى تملؤه.

- خذ حذرك... هما الأبوان، لهما سطوتهما على ابنهما كما نعلم.

- كان الألمان يحكمون أيضًا. كانوا الأسياد، أتذكرين ؟ كانت لهم الطائرات والدبابات. وماذا ؟ استطعنا. كان لنا الجبل والليل والشجاعة. فى الجبل كنا نغيب، وفى الليل نهجم عليهم كالذئاب... وبفضل الشجاعة حطمناهم.

الصوت الفاصل يضيف :

هذه هى الحقيقة. النهار للذين يحكمون. نعم ! ولكن الليل لنا.

(٣٤)

فى الصمت الميت الذى يسود البيت، لا ساهر إلا الشيخ.

وفجأة يشعر سمعه المتنبه بخطوات صغيرة. يجلس فى الفراش. مفاجأة : الخطوات لا تبتعد نحو غرفة نوم الأبوين. يخرج الشيخ ساقيه من تحت اللحاف، ويأخذ البابوج بيدين مرتجتين : "مرحى يا بروناتينو ! طريقى هو طريقك !" يلبس الخف ويلقى بالدثار على كتفيه وينتظر.

وعلى الرغم من أن ظهور الطفل كان منتظرًا، فإنه قد أثار شفقته. لم يكن طفلاً صغيرًا فى فراشه الأبيض، بل كان ملاكًا صغيرًا من نور، فاتحًا ذراعيه كجناحين فى ذلك الليل. يسقط الشيخ

على ركبتيه، والطفل يستسلم للذراعين القويتين اللتين تضمان الجسم الصغير الدافئ ذا الرائحة العذبة.

"هل هى ساحرة تلك التى أنذرت أندرييا بالخطر ؟" تظهر. تقترب من الشيخ الذى يراها، كما يرى الراعى الحدأة، وتستولى على الطفل.

– هذا لا يمكن أن يكون يا أبى – تقرر باستبداد – على الطفل أن يتعود.

– على ماذا ؟ ولماذا ؟ يحتج ثائرًا – ونادِنى بجدى، يا للعنة !

لكن، أخذت هى الطفل وهو يئن، وها هى تعيد عليه ألواح قانون طب الأطفال. لو لم يكن للشيخ مخططه الجاهز، لقفز عليها. لكن فى كل حرب، هناك ساعة للتمهل، كما أن هناك ساعة للهجوم.

يبقى فى غرفته ودمه يغلى، بينما يسمع كيف يغلق باب المضجع. هكذا صرّ قبل أربعين عامًا، المفتاح الذى أغلقت به عليه الجستابو فى ريمينى.

"دفع الثمن بترونى. لقد وقع عليه اختيارهم. كان رجلاً ولم يُفشِ بشىء. وبفضل ذلك نجوت... كان يمكن أن يقع علىَّ الاختيار."

يستحضر الشيخ وهو يتذكر الصرخات والشتائم أولاً، والأنات والحشرجة فى نهاية رفيقه المعذب من وراء الجدار الفاصل.

الصمت سائد فى البيت. ينتظر الشيخ مغتاظًا مما قد يحدث.

"لكن كنا رجالاً وكانت الحرب. أما هذا فمختلف.

لماذا ؟ لماذا يقولها مأبون من المؤكد أنه لا يعرف كيف يحب؟ فما الأطفال لديه سوى تجارة، مجرد تجارة.

يرتج الشيخ على الرغم من أنه كان يشعر بمجىء أول صيحة للطفل السجين. يتخيل الطفل عاجزًا أمام قفل الباب الذى لا يلحقه. الصرخة الأولى وهى كأول طلقة فى كمين تحل قيد جهنم. صرخات السجين الأولى، انفجارات الغضب، قبضات يد صغيرة تدق على الخشب... حشرجة بترونى المسكين تحت الضربات الأولى أو تحت الحرق.

تشنج الصوت لا يعقل فى تلك الحنجرة الصغيرة الحريرية، وهو عنف يائس من الرئتيْن الصغيرتيْن.

"أيستطيعان تركه هناك ؟ "يفكر الشيخ مغتاظًا فوق الفراش، كما لو كان فوق آلة تعذيب. بوده سد أذنيْه، لكن عليه أن يبقى منتبهًا. كان يفضل الهجوم، لكن عليه أن يواصل اليقظة. يداه المتشبثتان برأس أريكة السرير، تودان الالتحام بالخشب؛ كى لا تتحولا إلى قبضتيْن مهاجمتيْن، فتمسكا بمقبض الموسى المصنوع من القرن.

الصيحات تكويه كالسياط، ولكنها تتلاشى لتصبح بكاءً متقطعًا، ويداه الصغيرتان صابرتان تقرعان الباب مفتوحتيْن وهى فى غم ذاهل، أكثر منها فى غضب وفى ألم "لماذا ؟.." حتى صمت البيت المعادى ينسحب مغمومًا.

الشيخ فى غرفته ومنها قد يضع قنبلة، وقد يرمى بالمتفجرات، وقد يهدم ميلانو بأكملها. ولكنه لا يستطيع سوى أن يهمهم برسالة إلى الطفل ليشجعه : "اهدأ يا برونـاتينو، هـا أنـا آتٍ ! لا تَـصِحْ، فالصياح غير مُجْدٍ. ستبح فيحققونك. اسكت ! اخدعهما حتى أستطيع المجىء. لا تتألم : أنا معك !"

لكن المسكين لا يزال يجهل حيل الحرب؛ فيهرق دمه فى المقاومة المواجهة، وها هو قد أصبح نشيجًا منهكًا، شكوى جندى، يأسًا... تنفجر أحيانًا صرخة أخرى، شكـوى أخـرى، لكن ما هى إلا حشرجة الاحتضار من بترونى، بين فترات سكون تزداد طولاً فى كل مرة.. حتى الانهزام، الصمت التام : فراغ عظيم يجعل من البيت هوة.

يبلغ عذاب الشيخ قمته فيتحول إلى ألم ذلك الصمت، الذى وإن كان منتظرًا فهو يمزق قلبه. يتعرى وقـد تـصبب عرقًـا متخـيلاً. الضحية مغلوبة، والطفل وحيد أكثر من أى وقت كان، بلا إيمان ولا حتى فى هذا الشيخ الذى وقع معه معاهدة، والتجأ إلى أحضانه قبل قليل، والذى خانه الآن... هـل هـو مطـروح فـى غيبوبـة وراء

الباب؟... لعله فى يأسه يتخبط، كما يتخبط الأيل المحصور فيصطدم على غير هدى... من يدرى أنه بحث عن مخرج، لم يسند كرسيًّا إلى النافذة، ولم يتسلق ويفتح... مادونا ! (يا إلهى).

رؤيا هذا الخطر تعميه. ينسى الأبويْن، ويستوى لديه كل شىء؛ فالوضع قد انفجر كالصاعق بهذا الباب المغلق. دقت ساعة الهجوم، فيتقدم الشيخ فى حذر لإنقاذ الأسير واستعادة أمل الحياة.

(٣٥)

أمام سيارة فاليريو الصغيرة، يقف الشيخ مندهشاً :

- سيارتك ؟ أتكون قد عدت إلى تشذيب الأشجار لحاجتك إلى المال ؟

- هى سيارة أبى وهى قديمة.

- وأنت المتمرد ؟ بضمان الأب طبعًا !

إن هؤلاء الناس يفاجئونه فى كل خطوة، بمن فيهم فاليريو. "ليسوا إيطاليين." - يفكر الشيخ - لو لم يكن قد وعد قبل عيد الميلاد... هذا الباب فى زنزانة الطفل قد أفقده الرغبة فى كل شىء، وهو، بعد هذا وذاك، غير مستعد للتسامح.

يدخلان الكلية من باب جانبى. ممرات ضيقة مكونة من حواجز وأبواب صغيرة بلافتات. يدخلان معمل الصوانة (علم

الأصوات الكلامية) ويحييان فتاة ترتدى طيلسانًا أبيض. "إنها تشبه سيمونيتا المظهر نفسه." – أهلاً يا فلافيا. انظري، هذا السيد رونكوني الذى سيسجل.

– أتشرف بمعرفتك.

"حتى طريقة الكلام تذكرني بسيمونيتا."

– ماذا تفعلون هنا ؟

– ندرس الصوت.

– آ، تعلمون الغناء ؟

"إن هذه الفتاة عجيبة لو صعدت على الركح."

–لا، نحلله – تضحك الفتاة – أتريد أن ترى صوتك؟

– هل الصوت يرى ؟

– نعم، فى مطياف الأصوات (سبكتروغراف) نحتاج إلى لحظة فقط. اجلس هنا من فضلك.

يضعانه أمام ميكروفون وشاشة مستديرة. تعالج الفتاة بعض المفاتيح؛ فتكتسى الشاشة لمعانًا. يُسْمَعُ أزيز خفيف، ثم يظهر خط أفقي يعبر الدائرة كخط الاستواء.

– قل أى شيء.

يزداد الشيخ ندمًا، لتعاهده مع هذه الملاعبات الميلانية. ليسوا جديين ! لا يستطيع تجنب احتجاجه التلقائى، فيرمى لهما بصيحة الرعاة فى الجبل.

– هبا ! هبًا...!

يندم. سيبدو أمامهما شخصًا عاديًّا، مع أنه رونكونى سالفاتورى. غير أن مفعول صوته كان أخاذًا : خط الاستواء على الشاشة يتعدد فى شكل ثعابين مرنة، وتموجات كالسياط. فاليريو يبتسم راضيًا :

– هل رأيت صوتك ؟

يأخذ الشيخ فى النهوض، ولكن الفتاة تمسكه.

عفوًا، أتسمح بالإعادة ؟ سأصورك.

"أيهزآن بى ؟ لكن سيمونيتا الجديدة هذه جدة صغيرة. إن كانت تبحث عن التسلية، فلنلعب جميعًا، ماذا يهم ذلك ؟!

– هبا، هبا. كفى ؟

– نعم، شكرًا جزيلاً.

هل هو مفيد ؟ – يسأل فاليريو.

جدًّا. صوته كأنه صوته رجل فى سن الخمسين – تلتفت الفتاة نحو الشيخ – وأنت عمرك يزيد على الستين فى ما أظن.

– سبعة وستون عامًا، وأصر على ذلك. سأموت قريبًا.

ينظران إليه مندهشين، لكن يقرران أخذ الأمر مزاحًا. مظهر آخر من مظاهر فتوة الشيخ.

– سأرسل لك صورة يا فاليريو؛ كى تبعث بها للسيد. تقول الفتاة وهى تودع بعد أن طلبت اسم الشيخ ومعلومات عنه لتضعها فى ملفها.

– الأمر حقيقة إذن ؟ يسأل الشيخ فى الممر : هل هو صوتى؟ وستظهر صورة ؟

– كما لو كانت صورة وجه، أم كنت يا سيدى تظن أننا نمزح؟

"عجيب هذا ! لى صوت رجل فى الخمسين ! عندما يموت التيس وأعود إلى هناك، سأتركهم فاغرى الأفواه لما أريهم الصورة فى مقهى بيبو. لم يصور صوت أى منهم ولا حتى فى كاتنزارو ! إنهم يجهلون كذلك أن الصوت يمكن تصويره !"

فى هذه الأثناء، يعدّ فاليريو فى مكتبه الصغير آلة التسجيل.

– لنبدأ، أتوافق ؟ قص علينا شيئًا؛ كى يسمعه غدًا الأستاذ بوونكنتونى.

– وماذا أقص ؟

- أية حكاية كالابرية... ما تتذكره.

غير أن رأس الشيخ الآن ليس به سوى حكاية هى نفسها لكل الليالى.

- ما قد يخطر على بالك - يلح فاليريو أمام هذا الصمت ويضغط على زر. يشرع الشريط فى المرور من عجلة إلى أخرى، فيشعر الشيخ بنفسه مضايقًا. فيم تفكر يا سيدى الآن بالذات ؟

- فى طفل صغير... طفل فى بئر، بل فى حبس.

أفلتت منه. يستعد. "كن حذرًا مع هؤلاء الناس. لا يمكن أن تقال لهم الحقيقة، فمن يدرى كيف يستعملونها بعد ذلك."

حسن جدًا. هل هى حكاية قديمة ؟ أين حبسوه ؟

-نعم، مر عليها وقت... كما لو كان فى كهف. ولم يكن طفلاً، بل صار شابًا لما وضعوه فيه وسدوا المدخل.

العجلات تدور ويلاحظ فاليريو فى الشيخ تغييرًا، تركيزًا، تتدفع الكلمات من دون تفكير، تطفح من فمه فى هذا الصوت الذى صغر عشرين عامًا... يرتاح الشيخ لإطلاق العنان للفكرة المتسلطة على عقله.

- حبسه والداه اللذان كانا صاحبى تلك الأراضى. لم يكونا شقيقيْن، وكانا يحبان الأمير الجميل كالملاك. لكن لما ولد جاء مُنَجِّم

وفتح الكتاب، وأعلن أنه عندما يكبر سيقتل أبويه، وتنتهى المملكة... فما عساهما يصنعان ؟ نذبحه ؟ أنلقى به فى البحر ؟ كان كل ذلك يؤلمهما فسدا عليه الكهف. وعلى مدى ثلاثة أيام وثلاث ليال...

("هى دائمًا ثلاثة أيام وثلاث ليال... أو سبعة أيامْ أوْ سبع مرات. يفكر فاليريو محتفظًا ذهنيًّا بهذه المادة لأطروحته حول المثابرة والأسطورة فى المتزو دجورنو (جنوب إيطاليا) ما هذا إلا بقاء أوديب وأبيه لايو !")

– سمع من الخارج. كان فى اليوم الأول يغنى هكذا.

يا والداى أخرجانى من هنا \ فأنا ابن حقيقى \ ولا أستحق هذه المعاملة \ مقابل الحب الذى أكنه لكما \

ترنمها الشيخ بلحن التزيا بانغوناتا نفسه، ولو أن الأبيات تذكرها من قصة أخرى، حكاية فتاة مفترى عليها وقد ألقيت فى بئر فاليريو العميقة.

فى اليوم الثانى كان يكتفى بالدعاء، وفى آخر اليوم الثالث لم يعد يسمع...

أخذت الملكة آنذاك تبكى، والملك يعانقها، وكلاهما يلقى التبعة على الآخر : "أنت الذى صممت"، كذب بل أنت..." أما الناس فقد أسفوا على الأمير، وأخذوا يزيلون الحجارة عن المدخل. ولما وصلوا إلى الطفل، أعنى الشاب، وجدوه ملقى على الأرض، جميلاً كالعادة،

ولكن بلا حياة... وخز له طبيب الملك إصبعًا، فلم يخرج منه دم وقالوا كلهم : لم يعد ثمة علاج...

"يا للثبات فى السرد – يفكر فاليريو – يتكلم كأنه نبى، إنه أسطورة حية. ستبتهج الدكتورة روسى.

إذ ذلك نزل من الجبل شيخ حسن جدًّا بعثنون أبيض وعصا راعٍ. " أنا أنقذ الأمير." قال ذلك، ففهم الجميع أنه ساحر طيب؛ لأن صوته كان صافيًا كالبلور. وهكذا كان فبموساه ذات المقبض المصنوع من القرن، فتح فى عضد الشاب شريان القلب، وأسال من حلاب له دفعة من سائل أحمر فوق الجرح، ظن الناس أنه نسغ بعض النباتات، ولكنه كان دمه نفسه... استعاد الأمير الحياة ونهض أقوى من أى وقت مضى، وعانق أبويْه، ومضت فى الملك أعوام كثيرة من دون أن يحدث شيء، لكنه بقى متذكرًا دائمًا، دائمًا شيخ الجبل الذى اختفى ما إن تم الإنقاذ.

يضغط فاليريو على زر فَيصدُر صرير وتتوقف العجلتان.

– أهكذا يحكونها فى كالابريا ؟

"أى حكاية، ولا حكاية ؟... إنها حقيقة كالكتب...! لكن حذارِ من هؤلاء الناس."

– طبعًا لماذا ؟

– إنه موضوع قديم جدًّا. لا شك أنه رواية عن أسطورة الربيع وبعث الطبيعة... إن المهم هو أن فى أساطير القدماء المعروفة امرأة، هى من يمنح الحياة.

لا هكذا بالتحديد. لكن كما قلت، فمن العادة أنها امرأة : عشتار تنقذ تموز الأخضر، إيزيس تعيد الحياة لأوزوريس، وأخريات شبيهات. إنها أسطورة شائعة جدًّا.

– ليكن ما يكون – يحتج الشيخ بشدة – لكن لا كلام عن امرأة. إنها كما أقصها أنا. شيخ ينزل من الجبل.

"رجل ورجل كامل – يعيد الشيخ لنفسه – سأكون أنا الذى يزيل الصخر من ذلك الباب، والذى سيخرجك لتحيا... كما فعل تورلونيو لدافيد لكن حيًّا : أنت لا أحد يطلق عليك الرشاش."

فى هذه الأثناء، يرجع فاليريو الشريط قليلاً إلى الوراء، ويضغط على زر آخر؛ كى يتأكد من التسجيل. صوت الشيخ يعيد كلماته الأخيرة.

متذكرًا دائمًا، دائمًا، شيخ الجبل الذى ما إن أتم الإنقاذ، حتى اختفى.

– لا أكثر ولا أقل. يقول الشيخ منتصرًا بصوته الشاب .

(٣٦)

سقط الثلج طول النهار، وبياضه الآن يقوى أشعة أنوار الشارع واللافتات، أشعة ينشرها ستار الضباب والدخان. المضجع مفعم بسنا خفى، وبصمت مطلق متحرر من الزمن، يُفخِّم لهاث الشيخ فى طنين يرافق أنفاس الطفل داخل المنطقة المرسومة بالمعاهدة السحرية. يحمل الشيخ الطفل على ذراعيه ملتفًا فى دثار. الرأس الصغير يغالبه النعاس، فيميل فوق كتف ناشز العظام، كتف الشيخ اليسرى، بينما يستريح ثقل الجسم الصغير على الذراع اليمنى. حمل ثمين جدًّا ! يشملهما الثلج من الخارج ببياضه الساطع، كما لو أراد حمايتهما : الذئاب لا تجرؤ فوق الثلج الحديث على السقوط؛ حيث ستترك أثرًا يفشى سرها. ينام الشيخ كل ليلة فى تيقظ؛ كى يتنفس عن قرب تلك الرائحة الخروفية. ولو من وراء الباب المغلق، توقظه خشخشة المهد الأولى إذا ماتقلب الطفل... بسرعة! لو يتأخر لحظة، سيصل بروناتينو إلى الحاجز الملعون، ويشرع فى المقاومة بالطريقة الوحيدة التى يعرفها وهى البكاء، أو الضرب على الخشب... يأتى الشيخ مسرعًا، ويفتح فى الوقت المناسب ليوقف الملاك الأبيض المقترب من المهد إلى الباب.

لا تواصل يا رفيقى الصغير. ممنوع المرور. عندما يمنع التقدم يجب التحصن. وهذا ما أتى بى. جئت لأحول سجنك إلى موقع

دفاعى لنا. نعم، أنت محاصر، ولكنى أتسلل إلى الداخل. أعرف كيف أتسرب. لقد أنجزت ذلك مرات كثيرة ! اسكت فالعدو له آذان."

يقترب سعيدًا من النافذة، والطفل فوق ذراعيْه، كما لــو كــان يعرض نصره على ميلانو بأكملها، أو كــان مقــدمًا الطفــل للــثلج الصديق. بعد ذلك يهزه حتى ينام، فيضعه فى مهده.

"أرأيت يا برونانتينو ؟ أنجزت ما وعدتك. ها أنا حارس، نــم حماك الله. انعم بالسلام. الخرفان الصغار المفزوعون يهدأون أيــضًا هكذا بمعانقتهم ومحادثتهم. وإن أنت..."

يسمع صرير مفصلة باب هناك فى غرفة النوم. يختفى الشيخ بسرعة تحت المنضدة التى يلبسون عليها الطفل، والمغطاة برداء من نسيج. يفتح الباب فيقتحم أحد المنطقة. يتعرف الشيخ من تحت النسيج إلى رجلى أندرييا العاريتيْن فى خفها. تتجسس المــرأة بــلا حــراك كالظبية القلقة." من حسن الحظ أنى انقطعت عن التدخين.. وهــذه لا تعرف الشم."

تتقدم أندرييا حتى المهد. لما رأى الشيخ قدميها تجــرأ علــى النظر. تنحنى مولية ظهرها، وتسوى غطاء الطفل بحركــات حــب جاعلة إياه فى وضعية مريحة أكثر. نعم، الحركات تنم عن أمومــة. يندهش الشيخ من وجوب اعترافه بهذا : "من كان يظن ذلك !"

ثلاثة أشخاص فى صمت تحت النور غير الواقعى آت من مدينة تحت الثلج. وأخيرًا تقبل أندرييا فى لطف وتذهب مغلقة الباب. يعود الشيخ لسماع صرير المفصلة المتواطئة فيخرج من مخبئه." من حسن الحظ أن المرأة لا يخطر عليها زيارتى فى غرفتى "، يفكر فرحًا.

يقترب من المهد ويجلس على الأرض. يعلو وجهه قليلاً حافة الفراش الصغير : وهكذا يريق أفكاره على جبين الطفل.

"لن تبقى وحدك بعد الآن يا طفلى برونانتينو. لك ليالىَّ. عندى الكثير مما أقصه عليك، كل ما تود معرفته. كل ما قضيت وقتًا طويلاً فى حفظه، فأنا بطىء الفهم، بما فى ذلك ما تعلمته الآن معك. أنت تعلمنى، أنت ساحر، سويحر ؛ لأنك برىء كذلك البسيط بوربيلا: بلغ عامه الخامس والخمسين ولم يلمس امرأة، ولكنه ينظر إليك بهذه العيون الزرق فتتكهن؛ بما بك وتأخذ منك الأفكار والمضار، كما يؤخذ البيض من الدجاج... ستنام صحبة صوتى كما لو كنت فى الظل قرب جدول، فلا نوم أحسن من ذلك. واسمع ! أتعرف أنى أتكلم كالشاب ؟ فصوتى مثل صوتك تقريبًا لو تكلمت إلى الشاشة، وحركت كل تلك الثعابين المجنونة. آى، كم أكون مسرورًا لو سمعتك. كم أنا مشتاق لكلامك معى. من المؤكد أن صوتك مثل صوتى. أصوات رفيقة. أليس كذلك ؟... لهذا أقول لك أشياء تهم الرجال، لا تلك الحكايات التى اخترعها لأولئك الأساتذة. هم

يحفظونها فى آلاتهم، أما أنت فإنك تسمعنى مثل السنجاب فوق غصن بعينين مثل أزرارك الصغيرة، من دون أن يستطيع فهمنا. لكن أنــت تفهمنى وكلماتى تعشش فى صدرك. ستتذكرها فجأة يومًا مــا. لــن تذكر مصدرها وهى أنا، ومثلك أنــت الآن تــستخرج مــن بــاطنى منسيات كثيرة. تأتينى بدافيد، بدونكا وبشيوخ الرعاة. ســأحكى لــك أكثر عن دافيد وعن دونكا، فقط منحا من الحياة كثيرًا مــن دون أن أفهم ذلك، من دون أن أعرف كيف أكون سنجابًا. فأنا الآن أجتر تلك الحياة كما تجتر شياهى. أنت الذى تدفعنى، مُحَرِّكًا قلبــى، والــسنون أيضًا ترخى من حبلى. يتبدد الواحد كحزمة انحلت عقدتها فى بيــدر. كما لو يراد دروسى وذرى؛ كى يخرج الحب منى. كما لو داســونى فى معصرة، كى أعطى نبيذى : هذا هو حصادى وأنت تفهمنــى... سأقول لك الكثير كى تعرفه من جدك، فتأخذه أنت إلى حيث لا أصل. أريد أن أكون كل ما ينقصك، أبًا كان أو حتى أمًّا فى كل ليلة. نعــم وحتى أمك. أرأيت ؟ متى كنت أفكر فى مثل هذه الأشــياء ؟... لــن تنام وحدك. أنا لم أنم قط وحدى، أسعدنى حظى. أنــام الآن وحــدى طبعًا؛ لأن الشيوخ يرافقهم تاريخهم. نعم، سعدت حظًّا. لما كنت طفلاً مع أمى فى الشتاء، وفى الصيف مع لمبرينو المسكين، وبعــد ذلــك داخل حلقة الرعاة أو مع الفتيان أو مع البقرات التى تراق فى دفء. بعد ذلك مع المقاومين... والنساء طبعًا ! آه، النساء يا بنــى، تكــون الواحدة بجانبك وحتى فى نومك تــشعر بوجودهــا قربــك، تــشعر

بحرارتها وبشعرها وببشرتها – أى شيء هى المرأة؟ – ولــو أنهــا خدعتك من بعد، أو أنت شبعت منها ؛ فقربها أعظم شيء... حظــى ستناله أنت، سأتركه لك مع هذه الصرة فى حينه. أنــت الآن تعيــد الحياة لحظى، فيثلج معك قلبى، وتبعث ذكرياتى فيــضطرم جــشعى وشهوتى... إنه الحنان يا بنى، فلا تجدى الكلمات، لا توجد كلمات.

(٣٧)

ماذا عساه قد حدث لها ؟.. لا يمكن أن غاضبة لنقاشنا فى ذلــك اليوم – يفكر الشيخ وهو سائر نحو شارع بورغوبيسو – لم أقل لها شيئًا يزعجها، لكن النساء لهن أحيانًا تصرفات لا تخطر على بال أحد..."

إنه لا يشك فى هورتنسيا وهى امــرأة بحــق، ولــو أن لهــا تخيلات أنثوية. إنه لم يقابلها وهو فى حاجة إلــى أن يقــص عليهــا نجاحه، نجاح حيلته لإنقاذ الطفل. فالتعذيب قد انتهــى ولــو أنهمــا يواصلان سجنه، والزنزانة عادت لتصير مــضجعنا. هــزم الــشيخ الوحدة وحضوره يلغى المنفى. وفى الصباح لمــا يــضحك الطفــل وتسميه أنونسياتا "جميلاً" يفكر الشيخ : "ذلك بفضلى..." حتى حــسن مزاج أندرييا هو لى؛ لأنها تدعى أن الطفل تعود – فــى النهايــة – على النوم وحده، لكن هو أنا... إن ما يغضبنى هو أنه سيعوز هــذا النجاح إلى رأى الدتورى الملعون."

إن الحيلة سائرة فى طريقها، وتعلم الطفل المناورة. فقد أفهمه إياها الشيخ وهو يحمله بين ذراعيْه ؛ إذ هى الوضعية التى يحسن الصغار فيها الفهم : "إذا جاءت أمك وأنت صاح واختبأت تحت المنضدة، لا تشر إلى بإصبعك الصغير !... أنت قادر على ذلك ؛ بحثًا عن الضحك، لكن لا تقم بهذا المكر. فنحن لا نلعب، نحن فى حرب وأنا مختفٍ، هل فهمت ؟ الاحتيال على العدو. لا تجوز الوشاية بالرفيق المقاوم أبدًا..."

إن الطفل ذكى جدًّا ؛ فيحسن متابعة اللعبة وهورتنسيا ستفرح: إنها القوة الاحتياطية، الصف الثانى. السيدة مادالينا تساعد هى أيضًا، لكنها ليست سوى التموين، ثم إن لها ما يكفيها فى حربها الخاصة. هورتنسيا هى الملجأ، هى... نعم، هذا هو، هى الجبل. لهذا يتجه الشيخ الآن إلى منزلها، ويدق الجرس من الشارع. لا جواب ولو أن الجرس يرن... هل تكون قد ذهبت إلى المدينة لحاجة ماسة ؟ إنها لا تخرج قط قبل هذه الساعة.

تفتح البوابة، وتظهر سيدة، فتنظر مرتابة إلى هذا القروى من الجنوب :

– عمن تبحث يا سيدى ؟

– عن السيدة هورتنسيا فى الشقة العليا إلى اليسار.

تظنه المرأة قريبًا جاء من نابولى فتتلطف :

آى، المسكينة ! إنها مريضة منذ أيام. ألا تعلم ذلك؟... لقد منعوها من الوقوف على ما أظن... لكن لا لا تبدو هذا الوجه يا رجل. لو كان هناك خطر لحملوها إلى المستشفى.. ادخل واصعد.

كم هو بطئ هذا المصعد الملعون...! وأخيرًا !

باب الشقة مفتوح. ما العمل ؟ يطرق فى لطف فلا يأتيه جواب... أتكون وحدها ؟ وإذا ما أصابها مكروه فجأة؟ يقرر فيتقدم فى الممر. يوقفه صوت مذعور : "من هناك؟" فيجيب ناطقًا اسمه. يتحول الذعر إلى صيحة، ولما يطل على الغرفة كان اللحاف غير المطوى لا يزال يتحرك، ومنه لا يبرز سوى وجه هورتنسيا المستورة حتى العنق :

- لا تدخل، لا تدخل يا ابن الكرام.

يتوقف الشيخ مرتبكًا.

- المعذرة. كان الباب مفتوحًا و...

لكن اخرج ! اتركنى !

يخطو الشيخ خطوة إلى الوراء، ويسأل مندهشًا وهو فى الممر:

- أتريدين أن أذهب ؟

يأتى الجواب قافزًا.

– كيف تريدنى أن أحب ذهابك، يا أحمق، أكثر من أحمق –
تقطع العبرات الكلمة.

حيرة الشيخ كلية. يا له من موقف ! أيدخل ؟ أينتظر فى غرفة الأكل ؟ لماذا تبكى ؟.. ملعونة النساء !

تستطيع الكلام على الرغم من الشهقات :

– ادخل، ادخل، لا تبق هناك ! – يطل الشيخ وهى تواصل – اعذرنى فأنا ضعيفة... ثم ما أشد حماقتكم أنتم الرجال. ألا ترى أننى بشعة ؟ كيف هو شعرى يا ترى ؟! – تبتسم ملمحة – لكن أنت لا تفزع منى، أليس كذلك ؟

تعيد هذه النهاية الأنثوية، وضع الرجل على أرضية صلبة.

يتقدم إلى الفراش متأثرًا وينظر إليها. تمسح هى دموعها بطرف اللحاف من دون أن تخرج يدها. يرى الشيخ منديلاً نظيفًا فوق المنضدة الصغيرة، فيمسكه من مخلبه ويقربه من الوجه المحاط بالشعر الأسود المنثور. هذا المخلب الذى سبق وأن تروض بالأزرار الصغيرة، يجفف ما بقى من دموع، والبسمة الأنثوية التى لا توصف، تجذب الشيخ من دون مقاومة، بينما المرأة تهمهم من دون كبير اعتقاد :

– يا برونو، يا برونو، قد يكون معديًا أن تقول هذا وهى معجبة بتلك الأسنان الذئبية بين الشفتيْن اللتيْن تكيفتا للملاطفة. عند

سماع التهديد، تحولت الشفاه الرجولية من طريقها إلى الجبين إلى الفم، وحطت برهة قصيرة. ثم استوى الشيخ وقال :

– هذا فى حالة أنه مُعْد.

يتبادلان النظر فى هدوء. يتفهمان بعد أن جلس الشيخ عند رأس السرير. مرضت فى اليوم التالى للقائهما بالمقهى، ولم تستطع ولا حتى المهاتفة. كيف يسير أمر الطفل ؟.. رائع ! يا للفرح.. الكبد... إنهم يختبرون كى يعلموا، إن هو التهاب الكبد. وفى هذه الأثناء، الراحة التامة... لكنها لا تشعر بأى ألم، ويمكن العلاج. ابنتها تأتيها بالطعام الموصوف. ضجر. الجارة المقابلة السيدة كميلة تأتى هى أيضًا من وقت إلى آخر ؛ فتقوم بجولة فى المنزل. إنها سيدة طيبة ولو أن ابنها جاء متهتكًا أخلاقيًّا، يتناول المخدرات وكل شىء...

الفطور أيضًا تحضره ابنتها، ولكنها تأخرت اليوم...

– لقد دقت العاشرة يا هورتنسيا ! يا له من إهمال !

– مسكينة هى. إنها تفعل الكثير مع كل ما لديها !

يهيج الشيخ مفكرًا أن كل الأبناء سواء. يسأل عما تتناوله، وبعد سماعه يتجه إلى الباب.

– انتظر يا رجل ! الأول بالأول ! انظر، هات لى ذلك، هناك فوق الكرسى.

"ذلك". إنه شىء أسمر اللون من نسيج مطرز وبه أشرطة. يضعه فوق طى أعلى اللحاف من دون أن تخرج يدها لأخذه.

– والآن ائتنى من غرفة الاستحمام بالفرجون والأمشاط ومرآة صغيرة تجدها بالقرب.

يعود الشيخ ويترك الكل على المنضدة الصغيرة إلى جانب الأدوية، قارورة صغيرة للطيب. والآن ابتسامة مسلية من المرأة تحول كل الحركات إلى لعب أطفال.

– يمكنك الآن الذهاب إلى المطبخ وتصرف كيف استطعت... هذا إن عرفت كيف...

– الراعى يعالج دومًا أموره.

– آ، الراعى الجيد !... لكن لا تكسر لى شيئًا... وفوق كل شىء – تصيح فى وجه الرجل – لا تدخل هنا إن لم أدعك !

لكن تدعوه للتو تقريبًا. يجدها ووجهها منقبض، وهى تجهد نفسها للجلوس فى الفراش.

– ساعدنى من فضلك... فأنا فى حالة من الضعف..!

صوتها المتوسل يؤثر. ولا تتغطى ولا تفكر فى إصلاح هيئتها. تسلم من دون احتياط ضعفها لتلك اليديْن اللتيْن تنهضان بها فى احترام، وتزيل الغطاء عن فتحة القميص لعينى الرجولة، وتهدى

الأذنيْن النهمتيْن تنهدًا ينم عن الفرح والراحة... يجس الرجل من خلال النسيج لحمًا ثماره ناضجة ومحمومة، ولكن، ما أدهشه هو أن كل ذلك لم يثره جنسيًّا، بل أثار فيه حنانًا عميقًا. ما الذى طرأ عليه؟ هو لم يعد ذلك الذى جاء إلى ميلانو. إنه يتأكد من ذلك كل يوم... هل هو يتقدم فى السن.. أم هى الدويبة ؟ إن يديه وهما تسندان المرأة تذكرانه بالمحاربين فى المتحف، ويزيد هذا فى حيرته : يسمونها "بياتا" (رأفة) فهو إذن "المادونا"(العذراء) أم أن هناك بياتا بين الرجال؟.. يضيع حيرة.

أأنت مستريحة هكذا ؟

كيف تصدر عنه هذه الكلمات هادئة، بينما تدور فى رأسه غرائب كثيرة ؟ برونو السابق لم يكن يتردد كثيرًا.

- جيدًا جدًّا يا برونو، شكرًا.

تأخذ مخلبًا بين يديها وتضغط عليه بطريقة تنتهى بحيرة الرجل، وما نجاته إلا فى الذهاب إلى المطبخ لإعداد الفطور.

لما جاءت الابنة وجدتهما يتحدثان. تنظر بدهشة إلى الشيخ وتؤنب الأم لجلوسها فى الفراش، ولكن بدت عليها الفرحة بعد حين؛ لعدم ضياع الوقت، وتذهب بعد تسجيل ما كلفت به.

يبقيان لوحدهما والشيخ يقضى صباحًا ساحرًا متذوقًا الأعمال التى يقوم لها بها، ومطيعًا أيضًا التعليمات التى يراها مهووسة مثل

إزالة الغبار عن قطعة أثاث نظيفة جدًّا كبقية المنزل. كأنــه يعتنــى بحفيده؛ لأن المرأة أيضًا بلا دفاع ومستــسلمة ليديْــه يقــوم حتــى بمرافقتها إلى الحمام لما تحتاج ذلك ويــدخل بعــد ذلــك؛ لأخــذها وإرجاعها إلى الفراش الذى نظمه هو فى هذه الأثنــاء. ولمــا رأت السرير مفروشًا قالت :

وهذا أيضًا يا برونو ؟... يا لك من رجل !

"كيف ؟ أهذه هى الرجولة ؟ – يقول الشيخ لنفسه وهــو فــى طريقه إلى بيته بعد أن رفضت بقاءه لمرافقتهــا. لكــن مــا أعظــم الاعتناء هكذا بأحد ! النساء سعيدات الحظ.. طيب، فى هذا لا غيــر. أفهم الآن دونكا وهى تعالج جرحى وتخــدمنى، وأنــا عــاجز عــن المشى!... دونكا مخالفة كثيرًا وشبيهة بهذه !... لماذا لم أقم بــأكثر مما فعلت فى مجال العناية هذه ؟... ومن أين لى أن أعرفــه إن لــم يعلمنى أحد ؟ فقد كبرت بفضل اللكمات ضد كل شىء ؟... لا يفوت الأوان أبدًا، أليس كذلك يا روسكا؟... لقد بدأت مع برونــاتينو الــذى أتانى، زيادة على ذلك، بهورتنسيا...، فكرى يا روسكا فى الطفل من فضلك، فهو لا يزال يحتاج إلىَّ. لا تتعجلى، أسمعت؟.. لا تجزعــى الطبيب غدًا."

(٣٨)

– السيدة رونكونى، من فضلك.

الممرضة نفسها. الفحص يبدأ كالمرة الأولى. تعين عليه فى الصباح تجرع الحساء أمام عينى بروناتينو المندهشتيْن وصراخه، مطالبًا بفنجان آخر له هو أيضًا. يذهب الشيخ مسلحًا بالصبر ؛ كى يسلم نفسه لدورة الفحوص نفسها ولكنه مخطىء : فالشبه بالفحص الأول ينتهى لما يعبر باب القاعة الصغيرة. كان فى انتظاره بالجانب الآخر الأستاذ دالانوتى بنفسه، مادًّا له يده.

– كيف الحال أيها الصديق رونكونى ؟ كيف تجد نفسك ؟

يفاجأ الشيخ حتى كاد أن لا يفلح فى الرد على المجاملة.

تعال من هنا. سنزعجك أقل من المرة الأخرى. فالأمر مقتصر فقط على معرفة سير مشكلتك – يبتسم الأستاذ – الدويبة، كما قلت لى، أليس كذلك ؟ كيف تسميها؟

– روسكا يا أستاذ، روسكا – يبتسم الشيخ أيضًا – إنها تزداد سمنًا على ما أظن.

هو ذاك، روسكا. سنراها الآن. اخلع ثيابك هنا.

يقاد الشيخ وقد ارتدى الطيلسان الأخضر، إلى غرفة الأشعة؛ حيث كان الأستاذ يفحص الصور السابقة. يضع الشيخ فى الآلة ويفحصه ثم يهتف :

– آ، ها هى ! يتذكر احتلال كوزنسا. بالمناسبة، أتعرف عضو مجلس الشيوخ زامبرينى ؟

– الشيوعى ؟ لا ! أسمع عنه فقط.

– ومع هذا فهو يعرفك... طيب، انتهيت، سأراك بعد قليل.

ينسحب الأستاذ، ويلتقط مساعد الشيخ بعض الصور، ويرسله ليرتدى ثيابه.

– هذا كل ما فى الأمر ؟

– لا يحتاج الأستاذ إلى أكثر. بما أننا فحصناك جيدًا فى نوفمبر... هذه الأشياء لا تسير بسرعة كبيرة يا سيد روسكونى – يبتسم المساعد الشاب.

"أى نعم – يفكر الشيخ وهو يلبس ثيابه لامسًا صرته الصغيرة المدلاة فى عنقه – وإلا، فلم يفحصوننى؟ ذلك التيس الذى لم يمت بعد، مادونا مييا (عذرائى) !"

لا يقودونه هذه المرة إلى المكتب الكبير، بل إلى آخر صغير، به منضدة جلس إليها الأستاذ. يحتل الشيخ أمامه الكرسى الوحيد المعد. يدهشه أن يرى أن المصباح ذا الحامل المرن العادى، يكاد يكون مصباح طالب. يبتسم له الأستاذ :

– هو ذاك أيها الصديق رونكونى، الشيخ زمبرينى يعرفك. هو صديق حميم ولو أنى لست شيوعيًّا، ولا أهتم بالسياسة. أنت أيضًا تعرفه فقد قاومتما معًا فى كوزنتزا.

– لا أرى من هو ! مع أنى أتذكر كل شىء عـــن الأوقـــات الطيبة.

– الأمر هو أنه كان يحمل اسمًا آخر هناك. كـــانوا يدعونـــه ماورو، وأنت برونو، أليس كذلك ؟

بريق يلمع فى ذهن الشيخ.

– ماورو ؟ كان يقود فرقة سيلا الكبرى فى جبـــل ســـوربيلو وبحيرة آفو !... قل لى يا أستاذ، كيف عرفت اسمى فى المقاومـــة ؟ كيف وصلت إلى التوفيق بينى وبينه؟

– قبل أسبوع، جاء زمبرينى إلى ميلانو وبينما نحن نتذكر معًا بعض الأشياء حدثنى عن كوزنتزا. فقلت له إن أحدًا مـــن مرضـــاى يحمل حتى الآن فى جسمه رصاصة، ووصفتك له فعرفك. "لابـــد أن يكون برونو !" وقال إنه يود مقابلتك فى زيارة أخرى لميلانو.

كيف لا ؟ وأنا أيضًا... إذن زمبرينى هو ماورو.. كان رجلاً من القلائل يا أستاذ !

– ولا يزال كذلك بفضلك أنت. يبدو أنه لو لم تصل فى الوقت المناسب لشووه. هكذا قالها : "يشووننا."

– فعلاً ويستطيع قوله ! – يضحك الشيخ بصراحة – لقد اســـتلم الألمان قاذفات اللهب فكانوا يحرقوننا أحياء. لكن فاجـــأتهم فرقتـــى؛ فاغتصبنا منهم اثنتين وحرقناهما نحن بها. ثم ألقينا بالقاذفتين فى نهر

كراتى. لم تكن لدينا ذخيرة من ذلك الوقود. يا للأسف، إنه اختراع عظيم !... كنا نقاوم بلا شىء، بما كنا نفتكه... مرحى، مرحى يا ماورو ! يقال إنه محكوم عليه بالإيقاف، ولا تزال الأحكام معلقة، ولو أنه صار سياسيًّا كالكل.

– قص على زمبرينى بعض بطولاتك – يرفض الشيخ كلمة "بطولة" بحركة من يده – فأرجوك أن تعتبرنى صديقًا، وانسَ خطابى فى اليوم الأول. صدقنى، ليس كل المرضى فى شجاعتك. فمعظمهم فى حاجة إلى تلك الكلمات. إذن، هل نسى كل شىء ؟

– أنا نسيتها بعد. وبما أنك صديق ماورو فقد نسيتها أكثر.

وشىء آخر. أنا لم أكن راعيًا، بل جدى.

– أين ؟ – يسأل الشيخ مهتمًّا جدًّا.

– فى الشمال، فى جبال الدولوميت أنظر إليه فى الصورة الوحيدة التى أحتفظ بها.

الصورة معلقة فى الجدار وقد بهت لونها. عينا الحفيد الفاتحتان نفسهما. له سبال ويرتدى زى أهل جبال الألب فى الحرب الأولى، رشيق وبقبعة ناتئة ذات ريشة منتصبة.

– كما ترى، لنا أشياء مشتركة أيها الصديق رونكونى.

– إذن تفضل علىَّ بما لم تتفضل به فى المرة السابقة.. قل لى كم سأبقى ؟ هل رأيت اليوم شيئًا جديدًا ؟

- لا، الروسكا تتابع سيرها، ولكنك تقاوم مقاومة جيدة. وقد أجبتك بأنه يستحيل تأكيد أى شىء. فغيرك وبمثل ما عندك يكون قد انتهى. لكنك من حديد من حسن الحظ.

- هات حدًّا أقصى ! أريد معرفة ذلك.

- إذن سألقى عليك بعض الأسئلة.

يسأل الأستاذ الشيخ بدقة حول أحاسيسه وأوجاعه وتفاعلاته، مع بعض المأكولات وغائطه وبوله، مصيبًا بدقة كبيرة جعلت الشيخ يصيح فى النهاية :

- أهنئك يا أستاذ. أنت تتكلم كما لو أحسسته بنفسك.

يثبت الأستاذ فيه النظر. نور المصباح لا يصل إلا إلى ذقنه، ولكن تبرز فى الظلمة عيناه بضيائهما الأزرق. يجيب فى تؤدة:

- لا تهنئنى أيها الصديق العزيز. أنا أشكو مما تشكوه أنت.

لم يكن الشيخ ينتظر هذا. يحزنه ذلك ربما أكثر من حزنه على نفسه.

- لكن - يحتج - أنت لا تزال شابًّا.

يرفع الأستاذ كتفيْه... الشيخ يلاحظ بقايا سجائر فى المنفضة :

- ومع هذا تدخن ؟

يعيد الأستاذ حركته.

– كأنك ترغب فى التدخين... لكننا – نحن الأطباء – علينا منعه.

– لا، تركت التدخين من أجل حفيدى.

يوافق الأستاذ برأسه ويتحدث فى حزن.

– ابنى له ستة عشر عامًا.

يسكتان منتبهيْن إلى السكون، كما لو أن حضورًا غير مرئى سيقول آخر كلمة.

– لم أسمع حتى الآن الحد الأقصى يا أستاذ.. يلح الشيخ فى النهاية.

– سأقوله؛ لك لأنك جدير بذلك ولكن من دون تأكيد: تسعة أو عشرة أشهر. لا أظن بلوغ العام.. ولا تسألنى عن الحد الأدنى؛ لأن ذلك صفر ! لك ولى ولأى كان.

– تسعة أو عشرة أشهر ! – يبتهج الشيخ – أنت تعطينى يا أستاذ الصيف بأكمله !.. شكرًا يا أستاذ، كفانى هذا !

– كى تأتى على ذلك الجار المشلول ؟ – يبتسم الطبيب بمكر – كيف حاله ؟

– فى أسوأ حال ! أريد أن أقول – يضحك الشيخ – فى تقدم، لكن ليس هذا وحده غرضى، بل هو حاجتى إلى سماع حفيدى

يدعونى "تونو" كما نقول نحن هناك، وأريد أن آخذه هذا الصيف إلى روكاسيرا ؛ ليرى منزله وقريته وأرضه.

يبتسم الأستاذ فيكتشف الشيخ فجأة فى دالانونى ابتسامة السيد غايتانو طبيب كاتنزارو نفسها، إذا تكلم إلى الناس. لكن هذا تنقصه السيجارة الملتصقة بالشفة. وأما الابتسامة فهى نفسها : شجاعة ومتألمة وإنسانية بلا حدود.

(٣٩)

أنام الشيخ الطفل وجلس فى مقعده الصلب أمام النافذة. يرن جرس الهاتف فتأخذه أندريا :

يا أبى، بل جدى، هذه روزتا.

هل لمعت عينا أندريا بعد أن تحدثت قليلاً ؟ "إذا كان ذلك !" يفكر الشيخ وهو متجه إلى جهاز الهاتف. وكان ذلك فعلاً.

– أحقًا ؟ متى يدفنونه ؟

يسمع من دون سماع. يأتى ذلك الصوت البعيد إلى أذنه قاصًا عليه ما قد سبق وأن حدث فى تمنياته منذ زمن بعيد... منطاد ينفجر فى صدره، ولكن يضع السماعة بحركة آلية. من دون أن يشعر، جاء ريناتو وأندريا إلى جانبه. ينظر إليهما :

– انفجر – ينطق ببطء – مات، تهشم.

يندهش الابنان من عدم اكتراثه. هو أيضًا يستغرب؛ لأن الأمر تمناه بحرص يبدو فجأة كذكرى أمر منسى، ويشعر فى الوقت نفسه بفراغ كما لو سُرِقَ منه شىء.

يمشى مفكرًا حتى غرفته، ومن دون أن يشعل النور يرتمى على سريره، يجذب الدثار إلى مستوى ذقنه منغمسًا فى رائحة تلك البقاع.. رائحة حياته كلها. ينتظر أمامه ولكنه لا يرى الجدار المقابل، بل الميدان تحت الشمس وأصدقاءه عند باب بيبو، أو فى صف تحت الواجهة. هناك سيارات كثيرة جاءت من كانتزارو ومنها العربة الجنائزية،، أحسن واحدة هناك. يستمع إلى جوقة الموسيقى. كان يستطيع تخيل من. فى كساء المأتم، يتقدمون الجنازة، ومن يسيرون فيها. يسمع قرع النواقيس، ويحدوه الخيال حتى إلى رؤية الميت مرتجًا فى الصندوق عبر الشوارع المحفورة والثؤلول الأسود فى شحمة أذنه، التى كان عليه قطعها فى ذلك اليوم... يسأل نفسه : هل تركوا له تلك النظارات السوداء، نظارات الفاشستى...؟ يرى كل شىء كما لو كان هناك. وفى هذه الأثناء يجعله إيقاع تنفسه يتمتع بشهوة... يلمس صدره بيديْه وعضوه وفخذيْه "... شكرًا يا روسكا، أنت فتاة طيبة، شكرًا يا مادونا، سآتيك بشمعتك." يهمس... وعلى الرغم من أن الحياة أهدته الآن النصر العظيم، فإنه لا يمد يده كثيرًا للإمساك به... لا يفهم نفسه...

– من يفهم أباك ؟ – تعلق فى هذه الأثناء أندرييا وهما فى قاعة الجلوس وهى تكاد تكون ساخطة لصمت الشيخ – أتذكر فرحته لما أعلمته روزتا بأن الآخر ساءت حاله ؟ والآن كما ترى... ماذا يريد ؟ أسوف يحزن الآن؟

– لعله يفكر بأنه لاحق به قريبًا. يلاحظ ريناتو فى حزن : ماذا قال دالانوتى ذلك اليوم لما ذهبتما ؟

– سبق وأن قصصته عليك كله، فقد قدر لأبيك عشرة أشهر وفرح هو بذلك كثيرًا... لم يفاتحه فى إجراء عملية لكن ذلك معى. إنه يحتفظ بهذه الورقة ولو أنه يشك فى جدواها. وعلى ذكر هذا – تضيف فخورة – كان الأستاذ معه فى غاية اللطف ورافقنا إلى الباب؛ فكونه زميلى بالجامعة له أهمية كبيرة.

تنسحب أندرييا إلى منضدتها ملحة على أنها لا تفهم الجد، وريناتو يتكهن أن لها آمالاً فى أن يعود الشيخ الآن إلى القرية ؛ كى يموت فى فراشه. لأنه لم ينسجم هذه المرة أيضًا فى ميلانو. فانسجامه أقل حتى من المرة الأولى للخلافات حول تربية الطفل. ومن حسن الحظ، أن أندرييا لم تعلم بالزيارات الليلية للغرفة الصغيرة، زيارات اكتشفها ريناتو صدفة. يؤسفه إخفاء ذلك عن زوجته، ويتذمر من أن الشيخ يسئ هكذا تربية الطفل. ولكن إذا كان سيحيى هذه المدة القصيرة، أين الضرر فى تركه ؟ ولو أن أندرييا لا تفهم ذلك، وهى تربى الطفل بدقة تامة. يتنهد ريناتو.

لما تترك أندريبا عملها، تذهب إلى المطبخ، يـذهب ريـنــاتو ليرى الشيخ. يجده مضطجعًا، والنور منطفئ دائمًا.

- ياجد، سنتعشى قريبًا.

- أنا قليل الشهية، اشرعا من دونى، سألحق بعد قليل.

- هل تشكو شيئًا يا سيدى ؟

- ماذا عساى أن أشكو ؟ أنا فى حالة جيدة.

كانا يتعشيان لما ظهر لهما وبيده زجاجة خمر. من المفروض أن أندريبا تجهل وجود هذا النبيذ الأحمر، ولكنهـا لا تقـول شـيئًا. يخرج الشيخ بعض الزيتونات.

- على نخب المتوفى، وصحة "الدتورى" الذى عالجه كما أمر الله. عاش "الدتورى". يشرب بنهم والجوزة فى عنقه النحيل، ترقص كما لو طفحت فوق السائل النازل عير حلقه.

الابنان لا يقولان شيئًا. ماذا يقـولان لـه ؟ بعـد أن أفـرغ الزجاجة، نظر إليهما وصَرَّح كما لو أصدر حكمًا :

قضية وحلت ولتحيا لإمارليتا المغـارا (الـساحرة) الطيبـة. أندريبا تنظر إليه مذهولة وتفكر: "إنى أعيش فى اللامعقـول". ومـن حسن الحظ جاء وقت الأخبار فى الإذاعة المرئية.

(٤٠)

يتحول الشيخ فى أعماق الفجر إلى الغرفة الصغيرة مـن دون انتظار خشخشة المهد. يتأمل الطفل فى ضوء ميلانو الملوث. فـالثلج قد زال، جرفته خراطيم و البلدية وآلاتها. يغرق فى تردداته، فتفاجئه رؤية الطفل مستيقظًا رافعًا فى صمت ذراعيْه. يأخذه ويجلس معـه على الأرض، ضامًّا الدثار من الأمام كى يشمل الاثنيْن.

كما ترى يا بروناتينو، فالتيس قد مات ودفنوه هذا الـصباح... وستعرف يومًا ما، ما "الدفن". أفرج فجدك كان الأقوى. هـا أنـا ذا حى، وأى حى !

قبل أن يغرق الطفل من جديد فـى نومـه، يرمـى بذراعـه الصغيرة حول العنق النحيل. ليونة اليد الصغيرة تؤثر فى الشيخ :

لا – لا تفزع يا طفلى الصغير ! أتظن أنى ذاهـب وتاركـك هنا؟ كيف يخطر على بالك مثل هذا ؟ سأغضب! كيـف أتركـك ؟ سيعودان إلى سجنك مع مخاوفك، تلك التى تقبض علـى الأعمـاق. مخاوف من المجهول : إنها أسوأ المخاوف... نم هانئًا يا فـؤادى... نم فلى الكثير مما أريد قوله لك. وأنت أيضًا لك ما تقوله لى. قريبًـا بأسرع ما يمكن. كم أنا مشتاق لسماعك.

يكبت تنهدًا عميقًا لا يكبح.

- سأقول لك الحقيقة، فأنا لا أريد خداعك. صحيح أنى فكرت فى الذهاب لما يموت هو... ما العمل؟ لا تعجبنى ميلانـــوولا... ولا شيء.. ولكنى لم أكن أستطيع العودة، مادام الكانتانوتى جالسًا هنـــاك وشط الميدان... أنت لا تعرف حتى الآن ما الميدان. إن كل ما يهـــم القرية يتقرر هناك... ثم إن عودتى ستكون يومًـــا عظيمًـــا جـــدًّا ! أمبروزيو يطلق الشماريخ من أعلى المصلى، لما يرى ســـيارتى قـــد ظهرت فى العقبة، ولا يطلق الرصاص من رشاشته كى لا يأخـــذها منه الدرك... لم يسلمها بل أخفاها، أتعرف ذلك ؟ لقد أحسن صـــنعًا فقد حصل عليها بدمه. أنا أيضًا لى رشاشتى؛ لأنى ســـلمت رشاشـــة أخرى كى يتركونى فى سلام. سوف أريكها... سينتظروننى كلهم فى الميدان، وسيكون هناك جمهور أكبر من ذلك الذى كان عند دخـــول العريف وجنوده الإنجليز.أنصارى يعـــانقوننى ضـــاحكين مـــازحين. والآخرون يأكلهم الغيظ ويودون رميى بالعين. آه، لكن ســـبقت أنـــا فوضعت الكانتانوتى فى مكان أمين بواسطة مارليتا، وبهذه الـــصرة التى ستصبح لك؛ فهى تحمينى. نعم، الجميع فى الميدان، القرية كلها؛ لأنى هناك ذو شأن، أتعرف ذلك ؟ لى شأن عظيم. ســـترى عنـــدما تقول : "كان جدى سالفاتورى رونكونى من روكاسيرا." سترى إذاك ما قيمة الاسم. وأنا صنعته لنفسى... مع أنى بلا أب، لكنى عرفـــت من هو أبى، وقد اعتنى بى فى الجبل، لكن لم يقل ذلك أبـــدًا. حتـــى أمى لم تقله. وأب مثل هذا لا يُعد كذلك عند أطفال المدرســـة. كـــان علىَّ إسكاتهم رميًا بالحجارة، إلى أن عدلوا عن سَبّى. لهذا صـــيرت

نفسى خشنًا، وأريدك كذلك، رجلاً بحق، حفيد برونو سالفاتورى روكاسيرا.

يبدو له وكأن الطفل كبر؛ لسماعه هذه الكلمات.

"لقد فكرت فى الذهاب، أعترف لك بذلك. لكن الآن سأبقى، ولا يهمنى لو عدت إلى هناك فى صندوق، فالتيس لم يعد هناك ليراه... لا يكلفنى البقاء تعبًا ؛ فأنت روكاسيرا بالنسبة إلىَّ. وأنت عظامى ودم قلبى... أنت كل ذلك يا حملى والشيخ برونو لك. أين كان يمكن لى أن أذهب ؟ فالآن ولا الروسكا تبعدنى عنك. أرأيت؟... طيب، هى تستطيع. معذرة يا روسكا. ولكنها ليست فى عجلة، فقد قال الأستاذ ذلك، وهو يكاد يكون رفيقًا. ليته عالج الأطفال كى يعتنى بك. لكن واضح أنه ليس من أولئك البله. من أين له أن يكون أبله ؟!

صوت الشيخ يصير همسًا يكاد لا يسمع. "اسمع ! الحق والحقيقة يا طفلى أنى أبقى ؛ لأنى أحتاجك. فالآن أنهار من دونك... هو كذلك، أنا أدافع عنك ولكن أنت تدافع عنى، ومعًا سنربح حربنا، أقسم لك بذلك سيربحها الشيخ برونو مع رفيقه المقاوم : أنت بروناتينو، طفلى.

لو لم يكن الطفل غارقًا فى نومه؛ لشعر بخده المترع بالدموع التى انزلقت من خد من الجلد المتغضن.

(٤١)

"رأس قزم". هكذا يعرف الشيخ بالأستاذ بوونكونتونى؛ نظـرًا إلى صلعته التى تلمع وسط هالة مـن خـصلات بـيض، ولخديـه المستديرين وشفتيه الغليظتين. قد يبدو مضحكًا لو لـم تكـن عينـاه تشعان ذكاء. بجانبه الدكتورة روسى بقامتها الطويلة، بـلا صـدر، وبشعر أشقر قصير جدًّا وبقصة. جلس عدد من الطلبة أمام مكـاتبهم وفاليريو طبعًا أمام آلة التسجيل.

لم يكن الشيخ يتوقع أن الشاب سيدعوه؛ نظـرًا إلـى اهتمـام الأستاذ به. فقصته التى سجلت والتى ارتجلها ملفقـة بـبعض مـن أخرى، أخجلته قليلاً بعد تسجيلها. لكن، "عجبًـا، كانـت العجلتـان تدوران، وتدوران، ولم يكن من اللائق إهدار الشريط." ومع هذا فهم يريدون المواصلة، بما فى ذلك دفع ثلاثين ألف ليرة مقابـل الحـصة الواحدة، ويعتذرون عن عدم رفـع العـلاوة ؛ نظـرًا إلـى ضـيق ميزانيتهم." ما أغرب هؤلاء الناس ! – فكر الشيخ لما هاتفه فاليرو – فالأمر يبدو كذبًا أنهم يقتاتون من مثل هذه التخيلات، بينمـا يمـوت آخرون عملاً وكدًّا !"

– يحييه الأستاذ : أتشرف. كان مهمًّا جدًّا ذلك التـسجيل. لـم أكن أعرف هذه الرواية من أسطورة تموز. أنا متأكد أنك ستحكى لنا أشياء أخرى كثيرة.

"لا، ليس قزمًا – يصحح الشيخ – إنه طفل إنهم أطفال ؛ ولهذا تعجبهم الحكايات."

– من أجل هذا أتيت... هل يهمكم المسلمون ؟ عندنا قلاع وكل شيء. لقد تركوا آثارًا.

– بكل تأكيد – يوافق الأستاذ – وكذلك البيزنطيون.

– ال... ماذا ؟ لا لم يكن لنا منه شيء.

– كاتنزارو كانت مدينة بيزنطية أيها الصديق رونكونى.

– القول ما قلت أنت... لكن لا يذكرهم أحد هناك. لعلنا لم نحاربهم كثيرًا كحربنا المسلمين.

بدأت الآلة تعمل، وأخذت العجلات العديمة الرحمة فى الدوران.

– حرب ؟ لأى سبب ؟

– لا حاجة إلى السبب. ففى تلك الأزمان كانوا مسلمين، ونحن مسيحيون. ألا يكفى هذا ؟

يلاحظ أن جمهوره لا يفهم فيشرح :

– هناك دومًا سبب إذا أراد المرء العراك، وكان علينا أن نريده... فكنا مثلاً نسرق لهم النساء، وهم يسرقونهن لنا، وهكذا، الحرب!... هه، لا يزلن يسرقن إلى اليوم – يتمم فخورًا.

– إلى اليوم ؟ – تسأل الدكتورة وهى تسجل فى مذكرتها.

– لنرَ ! إذا لم يوافق الأبوان على الخطيب، يقوم هذا باختطافها، فيجبران على تزويجهما... فى بعض القرى السكابيلياتا.

– ماذا – يسأل بعضهم – يضحك الأستاذ فهو يعرف هذه العادة.

– عند الخروج من الكنيسة بعد الصلاة، يتقدم الشاب إلى الفتاة فيخلع لها خمارها من على رأسها، كاشفًا شعرها. فيجب طبعًا تزويجها من الشاب؛ لأنها هكذا انتهكت حرمتها، ولن يرضى بها أحد... إلا إذا قتلت عائلتها الشاب : هكذا. نعم، فبموته، تتم تسوية كل شىء.

يجرى نقاش قصير حول هذه العادة، وتعلق الدكتورة على بعض الأساطير التى تربط الشعر أو العثنون بالشرف. وتختم سائلة الشيخ إن كان اختطاف الفتاة يعد جريمة.

يزداد الشيخ اندهاشًا كل مرة :

– بل بالعكس، فالذى لا يأخذها لا يعد رجلاً. فالنساء وجدن لهذا: أنت تعرفين أن آباءهن يربونهن، ولكن لرجل آخر... أو ليس كذلك ؟

كانت الدكتورة على وشك الدخول فى جدال، ولكن الأستاذ يعيد طرح موضوع الحرب سائلاً إن كانت ثمة أسباب أخرى.

– أسباب كثيرة : الأراضى والرى والطـواحين... المواشـى مثلاً، كما كانت الحال مع موروددنترو.

– ماذا ؟

– هو راعٍ يقود ماعز مسلم إلى السوق، فدخلت الدابـة زرع مسيحى؛ فاشتكى هذا إلى الأسقف.

– وهل كان المسلم يطيع الأسقف ؟

– طيب، كان الأساقفة آنذاك يخيفون؛ لاستطاعتهم الإدانة، لا كما هى الحال الآن؛ إذ لا اعتبار لهم... كان المسلم ينكر، والمسيحى يؤكد، والأسقف يسأل الراعى إن كانت الماعز قد دخلت الزرع أم لا . فأجاب الرجل : "كان مخطمها فى الداخل، وأكرعها خارج الزرع." لهذا أخذوا يسمونه "موروددنترو" (المخطم فى الداخل) وانتقل اللقـب منه إلى أبنائه وإلى اليوم، يحيا اللقب فى روكاسيرا. حكـم الأسـقف بإعطاء المسيحى الماعز؛ لأن رأسها دخـل الـزرع، والغـنم تعـد بالرؤوس. وقبض طبعًا من المسيحى ثمن تعميد المـاعز؛ لأنـه لا يستطيع إبقاءها فى بيته قبل أن تكـون مـسيحية حقًّـا... تـصرف قساوسة؛ فهم دومًا يبحثون عن كيفية الحصول على المال.

يشرع فى نقاش أكاديمى حول مثل هـذا الحكـم الـسليمانى، ويذكر أحدهم "الفابلييو" (أقاصيص منظومة) فى القـرون الوسـطى و"البانكاتنترا"، لكن الشيخ يقاطعهم :

مهلاً، فلم ينتهِ الأمر هناك. فقد أقسم المسلم على الانتقام. ومن ذلك الحين؛ أصبح المسلم والمسيحى فى حرب، فيهين أحدهما الآخر... قتل المسلم أفضل ما لدى المسيحى، وهى أنثى تجيد قنص الأرانب. لكن المسيحى اعتدى على شرف ابنة أخى المسلم، وقطع كذلك ذنب أحسن ضرو له؛ فلم يعد يجرى كثيرًا.

– كيف ذلك ؟ – يسأل أحدهم – لمجرد فقدان الذنب؟

– لذلك فقط – يؤكد الشيخ بحسم وباحتقار لجهل هؤلاء الحكماء : الضرو حيوان نبيل جدًّا، ومن دون ذنبه يشعر أنه نصف مخصى فيجبن... كالديك بلا نزق أتفهم؟

لا أحد يجرؤ على مناقشته. ويسأل واحد عن كيفية انتهاء تلك الحرب :

– ككل الحروب : بالموت. لما شاخ المسيحى أصيب بمرض، ففرح المسلم لذلك، فكان كل يوم يرى من أعلى برجه، وصحبة أهله، كيف يؤخذ المسيحى إلى الطبيب لعلاجه... آ، لكن تعافى المسيحى فى النهاية.

– كيف ؟

بدأ ملاك يظهر له كل ليلة... وهذا هو خطأ المسلمين؛ إذ لا ملائكة لهم. أما ملاك المسيحى فكان يعيد إليه قوته بزياراته. كان

ملاكًا صغيرًا، ويكفى أن يشم أو يلمس كى يشفى أيًّا كان... أما المسلم فلما رأى المسيحى فى أحسن حال، امتلكه الغيظ فأصابه بانفجار فمات... والمسيحى مات هو الآخر طبعًا، لكنه كان قبل ذلك سعيدًا جدًّا، فمن دون المسلم ومع الملاك، تلك قمة المجد والسعادة.

يشرع فى معالجة موضوع الملائكة لدى المسلمين والمسيحيين؛ فيلقى الأستاذ سؤالاً :

- لمس الملاك ؟ أهكذا قلت يا سيدى ؟ هل الملائكة من لحم ؟

يتأمل الشيخ القزم فى تسامح :

طبعًا ! فإن لم تكن من لحم فهى مكذوبة، أشباح من أولئك، أم لا؟ لها لحم وجسد مثلى ومثلك.. طيب، قد يكون لحمًا آخر، ولكن لها لحمًا ولهذا منها الإناث - يضيف الشيخ متذكرًا جسد دونكا.

- المعذرة يا سيد رونكونى. يتدخل طالب فائق متخرج فى معهد دينى : ليس للملائكة جنس.

يتضخم اندهاش الشيخ :

- غباوة ! من قال ذلك ؟

- الكتب المقدسة والبابا.

يطلق الشيخ ضحكة.

- وما الذى يعرفه البابا عن الجنس ؟ ثم كيف يمكن العيش من دون جنس ؟ إن كان لنا جنس - نحن البشر - فكيف لا يكون للملائكة، وهى أكثر ؟ أتظن أن الله يخلقهم معذبًا إياهم بحرمانهم من الإناث ؟ كم يخطر على بال البابا ! هذا - لا شك - يناسبه.

يفرح الشيخ كثيرًا لابتسامة الموافقة التى رآها لدى الدكتورة روسى، ولسماعه الأستاذ يذكر الطالب بأنهم ليسوا فى درس دينى، بل يجمعون معتقدات شعبية يعد السيد رونكونى بشأنها مرجعًا معترفًا به.

وهكذا يعود الشيخ إلى منزله فى سيارة فاليريو، وهو راضٍ ولو أنه يفكر كما كان يفعل عند ابتداء الحصة:

"هم كالأطفال ولكن، انظر كيف، فهم يعيشون عيشة حسنة بالقصص."

ويتلمس ثلاث ورقات مالية فى جيبه، فهى لا بأس بها أبدًا؛ فأهلاً بها دائمًا.

(٤٢)

- ادخل، ادخل، لقد يئست من قدومك. تستدعى هورتنسيا الشيخ إلى فراشها لما سمعته يدخل - وما هذا ؟ - تضيف ناظرة إلى باقة الزهور التى وضعتها على الصوان: هل عدت إلى إتيان الغباوات ؟

– هى اليوم هدية الجامعة، مصلحة التخيلات. يجيب الشيخ مجهدًا نفسه فى الكلام؛ لأنه أسرع فى سيره.

وجدها فى أحسن حال، ولكنها ليست بعد هورتنسيا المتفاخرة الرافلة، وهى من جهتها تلاحظه متعبًا ويداه ترتعشان قليلاً.

– ما الحكاية التى اخترعنها لهم هذه المرة ؟. تضحك المرأة وهى تفكر إن كان سينتبه إلى شعرها الذى سوته لها ابنتها.

– أنت جميلة جدًّا اليوم يا هورتنسيا، وقولى: هذا ليس حكاية... بخلاف ما كان بالجامعة. لكن دفعوا لى أجرًا لن تصدقيه ! ثلاثين ألف ليرة.

– وماذا فعلت مقابل ذلك ؟

لا شىء إنهم أغبياء... أقص عليهم ما يخطر ببالى فيسجلونه من دون أن يهملوا شيئًا، كما لو كان من كتاب أصول الدين... لو رأيتهم كيف يناقشون بعد ذلك فى جد بتلك الإيطالية، لغة المذياع ! فأنا لا أتكلم هكذا، يا للجهالة... كما قلت لك، هم أغبياء... أى واحد من قريتى يخدعهم.

– الحق هو أنك ملسن يا غشاش. تضحك ونجلس فى الفراش تاركة إياه يطرح على كتفيها خمارًا مدروزًا.

يضحك الشيخ مزهوًا، وهو ذاهب إلى المطبخ ويعـود منـه حاملاً زهرية بها ماء. يفك عقدة الباقة ويحاول وضع الأزهار، ولكنه يحرك رأسه غير راض على عمله.

هات يا رجل، هات... ولو أنك أجدت، مقارنة بما أنتم عليـه عادة، أنتم الرجال.

– تعلمت كثيرًا من عنايتي ببرونـاتينو... إن أزرار ثيابـه صغيرة جدًّا، وتعجبني العناية به. الآن عرفت كيف تتمتعن بهذا أنتن النساء... بلغ بي الأمر حدّ القيام بأشياء كنت أضحك مـن إتيانهـا !

تنظر إليه عرضًا، وهي تواصل ترتيب الأزهار في الزهرية وهـو ممسك بها.

تخجل لأنها أعمال نسائية، أليس كذلك ؟ كنت تفكر أن القيـام بها يحط من قيمتك.

– نحن نعيش منفصلين عنكن، أتعرفين ذلك ؟ يـسير الرجـل بعيدًا عن المرأة، ولو ناما على الفراش نفسه.

– انظر كيف صارت جميلة ! ضع الزهرية هناك، من فوق، هكذا. إنها أجمل باقة أهديتنيها !

يتردد الرجل.

– لم يصل الأمر إلى الإهمال... ولكن حقًّا لا نعرف إلا القليل عن حياة النساء... اللاتي عرفهن الواحد منا... يبتسم متبجحًا.

– ذلك لأنك لم تعرفها يا غبى. تمتعت بها لا غير، سـطحيًّا، من علٍ.

– من علٍ حقًّا – يطلق قهقهة – أى وضع هو أحسن؟

– قليل الحياء !... لكن كان هناك الكثير الجدير بالتمتع، وأنت لا تشعر لا بوجوده. مثل الجميع. تعلم هذا: النساء يعجبنكم، ولكن لا يجلبن اهتمامكم. هكذا أنتم.

يفكر الرجل باحثًا فى ذكرياته :

هن أيضًا لا يفعلن شيئًا؛ كى يكن أكثـر مـن ذلـك، حـسب ظنى... واحدة فقط كان يعجبها لو أنى... نعم، واحدة..

– نعم – تحتد اللهجة – تلك المقاومة المحظوظة.

– دونكا، نعم. هى التى كانت تريد أن تغيرنى، أن تعمل على تكييفى... وانظرى، ربما تركتها من أجل ذلك... طيب، علـى أيـة حال، كانت الحرب ريحًا شديدة. كانت تحملنا جميعًا كلاًّ منـا إلـى ناحية... لكن دونكا كانت تريد...

– أن تقترب منها طبعًا.

يسكت الرجل معيرًا كل اهتمامه لكلمات هورتنسيا.

– وأنت هربت فزعًا... مسكين برونو، لقد أضعت الأحـسن والأجمل.

- من أين لك ذلك ؟ إن الأجمل قد تمتعت به كل وقت أردت.

ولكن الضحكة الفظة تقريبًا بدت له مغتصبة؛ فهى مجرد واقٍ دفاعى.

- نعم، لقد أضعته وتنتبه الآن لــذلك !... طيــب ! الأمــور بنهايتها.

ينظر الشيخ إليها، فيطفو على فكره اكتشاف : ينتبه الآن، نعم، ولكن لأى شىء ؟ يدور ويدور فى ذهنه من دون أن يقبض عليه.

- فيم أنت تفكر ؟ - تضايقه هورتنسيا. يتنهد الرجل.

- لو عرفتك قبل الآن... تضحك المرأة، كى لا تفصح عــن موجة الحرارة التى سرت فى جسدها.

لم تكن لتنتبه إلىَّ، يا حلو. لم أكن قط أجلب الانتباه... لا تقــم بأية حركة، فهى الحقيقة... حتى أنى بكيت أحيانًا - يصبح صــوتها أكثر ودًّا - الخلاصة، اسكت وإلا كفيتنى بهروبك كما كان مع دونكا تلك.

- أهرب أنا ؟ إن معى الآن ما لم أكن أحلم بأكثر منه !

يرسم بأصابعه صليبًا فوق شفتيه، بينما صوته يتذبذب بعمــق جعل الصمت يفرض نفسه عليهما.

- يطل الرجل ليرى عبر النافذة، ثم يجلس على المقعد قـرب السرير.

- أنت متعب ! لأنك لا تنام من أجل الطفل...

- لم أنم قط كثيرًا. لست فى حاجة إلى النوم.

- خذ لك سنة، هيَّا... كما فعلت فى اليوم الأول.

- إذا كان ذلك لا يهمك ؟

-لكن لا تنم جالسًا هناك يا غبى !... هنا؛ فالسرير عـريض جدًّا.

تقع اليد الأنثوية فى المكان الشاغر من سرير الزوجين الكبير، ثم تصعد إلى طى الغطاء، وتشرع فى إنزاله.

يتخدر الرجل :

- فى فراشك ؟ أحسبتنى شيخًا إلى هذه الدرجة ؟

تضحك مستمتعة باستفزازه.

- هيَّا يا رجل، أنا مريضة كما هى الحال.. هيا اضطجع ولو بثيابك. لو نمت فوق الغطاء لشعرت بالبرد..

يواصل الرجل تردده : لا يضع فى حسابه دخـول الفـراش صحبة أنثى، هكذا بلا شيء ! ذلك يشبه الطعن بالموسـى مـن دون إصابة... ولكنها تجد الحجة التى تجعله يذعن :

لا تخف، سبق وأن قلت لك إن التحاليل نتيجتها حسنة؛ فالـذى بى غير مُعْدٍ.

– ولو كان مُعْديًا، أنت تعرفين ! – يجيب بحزم عن التحدى، ويجلس ليخلع جواربه. ثم إن الدويبات، إن وجدت، أسممها أنا قبل أن تسممنى.

يقف ويشرع فى خلع سرواله موليًا ظهره، ويضيف باسمًا :

– لكن أنبهك، فأنا لحم شيخ يا هورتنسيا، لحم ناشف.

– يعجبنى القديد – تضحك – وهيا أنجـز؛ فلـن أرى شـيئًا جديدًا.

يترك السروال ويتجه إلى الحمـام. جواربـه مـن صـوف صنعت فى القرية، وكان يرتدى تبانًا مثل تبان توماسو، لا كذلك "السلِب" الذى يلبسه ختنه أى تلك "الفرعة" .

الركبتان الهزيلتان بعظامهما الناتئة وشرايينها الخشنة توحيان بالشفقة.

– فى الأقل – يشرح عند عودته – لا أدخل الفـراش بغبـار الشارع على رجلى.

تشكر له المرأة ذلك. فغيره لم يكن ليفكر فى هـذا. وأخيـرًا يضطجع الرجل إلى جانبها، وشعره الكث الرمادى فـوق الوسـادة،

وعندما تجذب هى الغطاء حتى ذقنه، تشعر أصابعها بخشونة عثنونه؛ فترجع إلى الوراء، ويلاحظ هو ذلك.

مُذ تركت استعمال الموسى، ساءت نتيجة الحلاقة. لكن كانت تجرحنى. إن ثبات اليد قد...

– توماسو أيضًا كان يجرح نفسه فى النهاية (لكنه كان مدمن خمر) وكان يحزن كذلك. ثم تقول لنفسها : إن الرجال يريدون أن يكونوا دومًا ديكة... "لكن أية رفاهية هذه التى يمنحانها للرجال؟، وأى أمن هذا الذى نشعر به عند شم رائحته بجانبنا؟!"

هورتنسيا نصف مضطجعة على جنب، مستندة على مرفقها : هى فى حاجة إلى رؤيته ممددًا، ومشاهدته من علٍ.

تلمع فكرة أمام الشيخ :

– هكذا مثل الأترورييين! كانت هى مثلك تمامًا... وتبتسم مثلك الآن.

– الأتروريان ؟

إيطاليون من القدامى يبدون كأحياء وهم أموات. ترى كيف كانوا وهم أحياء قبل موتهم !

يبرز قليل من الحسد مع الكلمات الأخيرة، ولكن ينقشع بتأمل هورتنسيا : ذراعها العارية وصدرها الملتصق به...

"ما أجملها من حياة !" يتمتع الرجل وهو يشعر بهاتين العينين تلاطفانه... تتحرك يده نحوها من تحت اللحاف، ولكنها تجمد قبل لمسها لما أحست بدفء النسيج. هناك تتوقف كحاج أمام الهيكل الأخير، بينما يترك نفسه تهتز فوق أمواج هادئة من عبير أنثوى. جفونه، وهى تغمض شيئًا فشيئًا، تتحول إلى تعبير عن الغبطة.

بعد أن نام، تواصل المرأة العديمة الحراك تأمله فى حنان. ابتسامة طفلة وهى تكتشف الرجل. نظرة أم أمام الابن فى المهد. هدوء عاطفى لأنثى أترعها حبيبها.

(٤٣)

شىء لا يصدق، كيف يستطيع شىء صغير كهذا، القيام بكل هذا الإزعاج ! – تيأس آنونسياتا مبعدة برونـاتينو عن صندوق القمامة.

فمُذ بدأ الطفل يجرى فى كامل البيت، لم يعد أحد يشعر بالاستقرار. لكن الشيخ يتيه سعادة. "هكذا يا طفلى، حرب– يفكر من لا يحارب ولا يتذكر !"

إن أكبر ضحية للمآثر الطفولية هى النظام المنزلى المفروض من آنونسياتا. فالطفل يقبض على كل ما يصل إليه، ثم يتركه فى أماكن بعيدة الاحتمال. ثم إنه يستطيع الآن تحريك أشياء كبيرة، وآخر اكتشافاته تحريك الكراسى. يتوجه بواحد إلى الممر بسرعة فائقة

بالنسبة إلى خطاه الصغيرة، وإذا ما سقط، يحتج بعض الوقت ببكائه الحانق، ولكنه يعود إلى متعة دفع الكرسى.

– جاء الخطر، الدبابة تتقدم ! – يصبح الجد وهو جالس فى وسط الممر – النقيب بروناتينو يسحق العدو ! إلى الأمام !

تتوقف الدبابة لاصطدامها بالشيخ، فيطلق النقيب صرخة مؤثرة، فيأخذ الشيخ فى الانسحاب، وهو يكاد يموت ضحكًا، بينما الدبابة تواصل تقدمها من دون رحمة حتى تبلغ جدار آخر الممر.

– يا إلهى ! أنت يا سيدى رونكونى طفل أكثر من هذا الصغير، لكن الشيخ لا يستمع إليها. والمساعدة تتساءل أحيانًا : من هو الأسوأ منهما ؟ فقبل حين، أمسك بروناتينو بسكين من المطبخ، وجعل يلعب بها. فلما انتبهت آنونسياتا لذلك، أطلقت صيحة فزع جعلت الشيخ يظهر بالباب فى قفزة واحدة، وكانت إذ ذاك قد جردت السكين مسببة بكاء الطفل.

– ابكِ، ابكِ، لكن لا لعب بهذا ! – تكرر المرأة.

– آ، حسن. هى سكين ؟ – علق الشيخ وقد اطمأن – هذا من خصائص الرجال يا سيدتى. فبدل أخذها منه، علميه كيفية استعمالها. لكن ماذا تعرفين أنت يا سيدتى!... انظر يا طفلى الصغير، من هنا تمسك، أترى ؟ هكذا حسنًا جدًّا. البقية تخز وتقطع وهى للطرف المقابل.أما لك فهذا، المقبض، مق – بض.

يضحك الطفل بالسكين في يده الصغيرة التـــى قــبض عليهـــا الشيخ بيده، وهو يطعن فى الهواء. هربت آنونسياتا مـــستنكرة : لـــن تنسى إخبار السيدة عندما تعود.

وهذا ما فعلته بعد فترة قصيرة، فأطلقت أندرييا تنهدًا رافعـــة عينيها إلى السماء راجية الصبر. ومن حسن حظ الشيخ أن سخط الأم لا يقع عليه؛ لأنه خرج منذ قليل على الرغم من أن نصف النهار قـــد فات.

ألا يعتزم الغداء هنا ؟

هكذا قال... وتذكرها أنونسياتا قائلة : وليست هذه هى المـــرة الأولى.

- أتعرفين أين يتناول الغداء ؟

آنونسياتا تجهل ذلك، وتبقى أندرييا حائرة. لقد أصبح الـــشيخ لغزًا فى المدة الأخيرة. يا رب، عسى ألا يقوده ذلك إلى فقدان عقله، يا لها، من مصيبة ! إن الأستاذ يؤكد أن هذا السرطان لا يؤثر علـــى العقل، ولكن تنهار الشخصية في المرحلة الأخيرة... يا رب، يا رب! فمن المؤكد أن الشيخ يبدى خللاً أكثر فأكثر. فهو ينسى ما عليه فعله، ويبحث عن القبعة وهى فى يده.. "فماذا هو فاعل الآن فى الشارع فى عز الشتاء من دون واجبات ولا مال؛ لأن ما يرسلونه له من هنـــاك يتأخر، وهو لا يقبل المعونة ؟ أو هو معه مال ؟ فبروناتينو يظهـــر

فجأة بلعبة لم تشترها له أندرييا ولا ريناتو. هي بسيطة ولا شك، ولكنها تسلي الطفل إلى أن يحطمها إذن ؟ تبقى أندرييا حائرة.

عندما تذهب آنونسياتا، تلبس أندرييا طيلسانها، وتتهيأ للعمل، مستغلة نوم الطفل. لكن يظهر أن اليوم مفعم بالمشكلات؛ لأن الباب يطرق. تنهض وتذهب إلى الباب قبل أن يعاد دق الجرس. شاب غير معروف بابتسامة جذابة. تضم أندرييا على صدرها في حركة تلقائية طيلسانها المربوط بحزام فقط.

– السيد رونكوني ؟ يسأل بصوت عذب.

– هو في المصنع إلى الساعة الخامسة.

– لا، إني أسأل عن الأب، السيد سالفاتوري.

"الجد ؟ ما الذي يريده منه هذا الشاب جمّ الأدب ؟"

– واعدته عند البوابة في هذه الساعة، ولكنه لم ينزل... هل ألمَّ به شيء ؟

إنه متغيب، لكن إذا كنتما على موعد، فهو لن يتأخر. تفضل وانتظر قليلاً.

يدخل الزائر خالعًا تلك الكمة التي يلبسها الطلبة الآن كثيرًا. شعره المجعد يجعل رأسه رأسًا رومانيًّا. إنه أصغر سنًّا مما بدا وهو بالباب. تشير له أندرييا إلى الأريكة في قاعة الجلوس الصغيرة،

وتجلس على مقعد، ساترة ساقيْها بطرفى الطيلسان الطامحيْن إلى الانفصال.

يلاحظ الشاب المصباح الموقد والكتب المفتوحة فوق المنضدة.

– أرجوك يا سيدتى، واصلى عملك.

لكن أندرييا نال منها الفضول مناله.

– لا، لا، هى دقائق، فحموى لم يتأخر. هل كنتما ستخرجان معًا؟

– سآخذه إلى الجامعة مثل الأيام الأخرى.

بالجامعة ؟ إنها آخر مكان بميلانو يخطر لها البحث فيه عن الشيخ. الجد فى الجامعة !

– هل تزاولان درسًا ما ؟

– إن السيد رونكونى يتعاون مع معهد الأستاذ بوونكونتوتى.

تنجح أندرييا فى إخفاء مشاعرها وحياد تعبيرات وجهها. بوونكونتونى وما أدراك. المرجع الإيطالى فى علم أصول الأجناس البشرية. وبلا لف ولا دوران تسأل الشاب المبتسم، فيخبرها بكل سرور عن حصص التسجيل والمجادلات العلمية... إن السيد رونكونى أحد خيرة المتعاونين الذين مروا بالمعهد. فالدكتورة روسى على الأخص، مبهورة به...

"آ. ناتاليا ! – تفكر أندريبيا التى تعرفها – سأسألها."

إن رواياته تفتح لنا آفاقًا جديدة لديمومة الأساطير في جبال سيلا التى لم تدرس إلا قليلاً حتى الآن، ولا تزال بها بقايا ذكريات قد انعدمت فى بقاع أخرى من كالابريا نفسها... أول أمس، مثلاً أعطانا رواية موحية، لا تعرف، عن أسطورة العذراء الأم في البحر المتوسط.

بقيت أندريبيا ضالة. غير أن هذا القروى الذى يعيش فى بيتها يشرف معهد الأستاذ بوونكونتونى... حسنًا. فهي تعلم الآن، في الأقل، من أين يأتى ببعض المال وتتأثر وهى تعرف أنه يصرفه على ابنها. وعرفت أيضًا أين يقضى الوقت، فمن الواضح أنه لا يقضيه فى نادى العمر الثالث كما كانت تؤمل... لكنها لا تفهم حتى الآن أين يتغذى فى بعض الأيام. قد يكون فى بعض الحانات؛ حيث يقدمون إليه تلك القاذورات التى تعجبه وتضره... من يدرى، فقد يأكل عند الأسقف. فهى بعد معرفتها أنه فى الجامعة، باتت تنتظر منه كل مفاجأة. تبتسم لهذه الفكرة. تشعر أن الشاب يتأملها، وكي تتحاشى سوء فهم ابتسامتها، تعود فتضم طرفى طيلسانها، وتسوى وضعيتها على المقعد. تستعد لمواصلة الحديث لما يرن جرس باب الشقة. يطل الشيخ بحركة غاضبة تنقلب إلى ابتهاج عند رؤية الفتى.

- آه فاليريو ! أحسنت صنعًا بصعودك... اعذرني، نسيت أن موعدنا اليوم... فذاكرتي هذه ! هيا بنا، هيا جريًا ! ما عساه يقول الأستاذ ؟ أسرع !

كان الشيخ كزوبعة. ترك أندرييا بكلامها معلقًا، وانتزع منها الطالب. وهذا الأخير لم يكد يجد وقتًا لمصافحة اليد التي مدتها له أندرييا، والانحناء عليها بعد تقديم نفسه :

- فرليني فاليريو... تحت أقدامك يا سيدتي.

تشكر له أندرييا في باطنها عدم لمس يدها بشفتيه؛ لأن ذلك لا يعجبها ولكن يسحرها احتكاك السبال... فرليني، فرليني... ألا يكون ابن رجل القانون الشهير ؟" تتذكر أندرييا التحقيق الصحفي الذي خصص مؤخرًا في مجلة تعنى بالمجتمع للمنزل الممتاز الذي تملكه هذه العائلة إلى جانب البحيرة الكبرى (لاغو مادجيوري).

في الطريق إلى الجامعة، يلزم الشيخ الصمت قلقًا لفقدانه الذاكرة. هل يخصمون له بعض الليرات لتأخره ؟ وفجأة يسمع فاليريو :

- جميلة كنتك.

- جميلة ؟ - يكرر الشيخ متعجبًا وملتفتًا في الحال نحو الفتى أمام المقود.

- جذابة. نعم، وخفيفة الظل !

يسكت الشيخ. "وكان يبدو عاقلاً هذا الفتى."

يخلص فى ذهنه إلى قرار مؤداه أن يقص عليهم هراء أكثر من أى وقت مضى، هؤلاء أطفال الجامعة. "إنهم لا يفرقون ! ذاك جزاؤهم. فبقدر ما تكون الحكاية خيالية يكثر اهتمامهم بها ! إنهم بله، يكرر وهو يلاحظ هذا التعبير الحالم على وجه فاليريو.

(٤٤)

"انظر، انظر تلك السقوف. الشىء الوحيد الحسن فى هذا المنزل هو أنه مرتفع. إنى لا أستقر فى الأدوار السفلى." وقد تقول أنت : واضح يا جدى؛ لأنك جبلى. 'وأتشرف بذلك... بالمناسبة، متى ستدعونى "جدًا" ؟ تكثر من بررر وتكثر من أخخخ لكن لا سبيل إلى جددى، لا أسمع منك شيئًا، لدى شوق كبير لسماعك !... هو كذلك، تعلم كيف تنتظر من عل، وخاصة مع الناس كى لا تصغر أبدًا... واضح أنى ابن جبل، فمن أنقذنى فى أثناء الحرب إن لم يكن هو ؟ جبلى "لافيمينا مورتا" (الأنثى الميتة)، وهى أم المقاومين، وهى الملجأ وقت الشدة. بعكسنا نحن، كان الخنازير الألمان يتحاشونه ! كانوا يحدقون فى منحدره وهم ينظرون فى خوف إلى أعلى. كانوا يعرفون أننا هناك ولكنهم لا يجرؤون على الصعود؛ فهم فى الجبل ضياع... وكذلك وسط هذا الضباب الملوث هنا دائمًا، وهو هناك

أبيض ويرقص الهوينا. إنهم لا يعرفون النظر من خلاله. كانوا يطلقون النار على الأشجار؛ ظنًّا منهم أنهم مقاومون، وهكذا نحسن نحن إصابتهم... فالضباب مثالى للهجوم المفاجئ... ألا تراه ؟ قلت لك ذلك : الضباب هنا ملوث فمُذ ظهوره، أنظر إليه... لكن أخذك النعاس ؟ لك حق فى ذلك فقد دقت ساعة التغيير، سأقوم بالحراسة. نم يا رفيقى."

يبتعد عن النافذة ويضع الطفل فى مهده. يجلس على الأرض مسندًا ظهره إلى الحائط.

"نم هانئًا فأنا حارس جيد ؟ تعجبنى الحراسة فهى تمكننى من التفكير. من دون صرف النظر طبعًا، ولكن بالتذكير وحسن الفهم. هكذا يأكل الماعز على مرتين. والآن كما ترى يعود إلى دافيد. لقد جاءنا تحت ضباب كهذا. كنت فى المقدمة، فسمعت وقع خطى. لم أطلق عليه النار من الرشاشة؛ لأنى أردت أخذه حيًّا. بقينا أولاً مندهشين : يا له من رجل فقد وجدنا وهو يجهل الدروب !ثم قال لنا إنه أضاع سبيله. لم يخجل من الاعتراف بذلك، إذ هكذا دافيد المسكين بعينيه الوديعتين الحزينتين... لماذا أقول دافيد المسكين ؟ من يعرف كيف يعيش الآخرون ؟ ألا ترى – يا رفيقى الصغير – أنى لست متأكدًا مما كنت متأكدًا منه. لم يحسن الإله صنع الأشياء، كان لزامًا أن نحيا مرات كثيرة كالأشجار التى تورق من جديد بعد عام جاف ردئ. أما نحن فربيع واحد فقط، فقط وإلى الحفرة... لهذا عليك

أن تحسن ظهور أغصانك من الآن. أنـــا ولـــدت فـــى جـــرل[1] ولا أشتكى؛ فقد وصلت إلى تغيير نفسى بنفسى، لكن كـــان بالإمكـــان أن أزهر أكثر..."

يركد تأمله عند هذه الكلمات الأخيرة.

"هو ذاك، الإزهار. كنت أظن ذلك خاصًّا بالنساء، وما الرجل إلا خشب كلما ازداد خشونة كان أحسن لكن، لم لا يكـــون زهـــرة ؟ دافيد كانت تعجبه الزهور. كان يقف فى أثناء السير ليتأملها، وكـــان يمشى دائمًا سائلاً عن أسمائها. كنا نهزأ منه فى الأول إلى أن رأينـــا معدنه الأصيل؛ فنال الاحترام. أنا على حق لست متأكدًا من بعـــض الأشياء، كما قلت لك. من أين لى أن أفكر بأن الرجل أيضًا يزهـــر؟! يا لها من مفاجآت ! يزهر مع المرأة طبعًا؛ فهى ربيعنا الحقيقى.

فإلى جانبها نتفتح ليلاً مثل (شب) الليل لمـــن أســـعده الحـــظ بلقائها. أنا وجدتها وهى التى أخذتنى من ذقنى وغرستنى فى فراشها : هناك كان نموى. هكذا كانت سلفينيا، تأخذ وتتـــرك الرجـــال كمـــا تريد. الوحيدة فى كل البلدة التـــى أرادهـــا، حتـــى المـــاركيز، أراد إعطاءها منزلاً فى كانتزارو، ولكنها احتقرته. كانت لها قوة الجبل : "أنا ملكة فى طاحونتى – قالت له – فلن أهبط إلى مستوى ماركيزة." كانت تعتنى وحدها بالطاحونة، سلفينيا هذه، وكانت حقًّا ملكة. ومـــن

---

(١)الجرل : هو الخشن من الأرض الكثيرة الحجارة.

أحسن معدن... كنت أسبح صحبتها فى المستنقع، أو أساعدها على وضع الحبوب فى قادوس الطاحونة، وكنا نأكل معًا. كم كان يظهر معدننا الملكى!... يا للأمسيات ويا لليالى ! كان قرع المنخل يطن طول النهار، وكذلك فرك الرحى فتهتز لذلك كل الشقة، فلا تتركنا يسمع أحدنا الآخر... ولما نقطع سيل الماء عند غروب الشمس، يا له من صمت. مادونا! كل شىء يستقر فى سكونه. المنزل، العالم، الطيور والضفادع فى سلمها، وأنا وهى فى متعتنا. كنا ننظر أحدنا إلى الآخر بشدة وقد ابيض جسدانا بغبار الدقيق؛ فنغرق فى الضحك ! كنا نشرب بعض الجرعات، ونعض على أى شىء، جبن أو تفاحة، أو لقانق وخبز. تصور، فقد كان يوجد من كل هذا ونتناوله فى الفراش. أو نقصد أولاً عرمة الأكياس؛ كى لا نصعد السلم. وإلى تبادل العض، فهكذا كانت سلفينيا.

يلمع برق آخر من الفهم فى ذاكرة الشيخ عند كبت نشيج.

"أعرف الآن لماذا أقص عليك كل هذا. فقد عرفت الآن فقط بأنها كانت من جلمود صخر، أكثر منها من خشب. كنت آنذاك لا أتروى. كنت أثب مسرورًا وكفى. هورتنسيا تفتح لى معك عينى يا بنى : تعلماننى من دون أن تبوحا لى به فأراه بنفسى. فهورتنسيا ليست صخرة بل أكثر ليونة، خشب من الصنف الجيد. لكن سلفينيا صخرة، الجبل بعينه. الآن أفهم ذلك، امرأة تمتص عظامك. وكما ترى، هى أنثى كاملة ولكنها لا تنجب. مثل النعجة العاقر... من

يدرى لعل شجاعتها نفسها كانت تستهلك لها قوتها. لا يهم ! هى التى دبرت زواجى من جدتك، وهكذا ترى أى حب أضمرته لى. مجنونة بى، تاركة الجميع من أجلى، ثم وضعتنى فى فـراش روزا (وردة) لتجعل منى وريث التزيو (العم) مارتينو...

يتحرك الطفل، فيفرغ الشيخ منزلقًا فوق البساط؛ كـى يقـرب سمعه من الباب المغلق.

"ظننت أنك سمعت شيئًا، فسمعك دقيق كسمعى، لكن لا أحـد آتٍ من هذا الدرب، وهو الدرب الوحيد للعدو.

إن وضعيتنا جيدة ويمكن تحسينها. كان دافيد يمد حبالاً علـى وجه الأرض، ويشدها إلى قنبلة يدوية. فإذا انفجرت فهى علامة على قدوم الألمان. خطر لأمبرزيو فتح مخرج ثانٍ لكهف مندرانو، ومنـه أفلتنا من قاذفات اللهب؛ لما خاننا ذلـك المتـسلل الفاشـستى مـن سانتينارو... قد يفكر أمبروزيو الآن أنى هربـت، وأنـى لا أعـود لأموت فى موقعى... لا، لا تفزع يا بنـى، لـن أذهـب. غيـر أن أمبروزيو سيظن ذلك، بما أنى لا أراسل، وهو لا هاتف له!... لكـن لن أتركك وحدك، ولا أذهب إلى روكاسيرا إلا معك. يا لدخولنا معًا. عليك أن تتعلم هناك سبيلنا لعبور الميدان. سبيل لا يرى ولكنه هناك. لعل أباك قد نسيه، ولكن عليك أن تعرفه؛ لأنه طريقك. وطـأه كـل أسلافك، وأسلافى لا يحسبون، لأنى عديم الأسلاف؛ إذا استثنينا أمى.

ولكن أنا الذى حصل لك على هذه السبيل بفضل سالفينيا التى زوجتنى من جدتك."

يسكت الشيخ ويعود إلى تدقيق السمع.

"كم من إنذار بالخطر هذه الليلة...! آ، نعم، السبيل : انظر، الميدان لا يعبر بأية طريقة. ليس الأمر سهلاً فى روكاسيرا. إنه صعب كتسللك فى الغاب وسط الأعداء. لكن بالعكس. لأن عبورك الميدان يجب أن يرى. السفلة وحدهم يلتصقون بالجدران. عليك أن تجبر الجميع على رؤيتك. تسألنى كيف ؟ جاخفا[1] بجسمك ورأسك عالٍ، والنظرة والذراعان كما لو كنت وحدك فى استعراض. هكذا ستعبر الميدان؛ لأنك أنت من أنت. وعلى الشيوخ فى مقهى بيبو وعلى النساء، وهن ينظرن من وراء ستار (فالمصونات لا يستطعن الوقوف فى الميدان) أن يقولوا : "واضح إنه حفيد سالفاتورى. "سيقولون ذلك؛ لأنك منذ اليوم الأول ستعبر معى من السبيل التى هى لك. من الوسط على يمين النبع، لا على الشمال أبدًا؛ فهى سبيل آل كانتانوتى ساكنى جهنم. أما نحن فنتبع سبيلنا التى ربحتها بفضل سالفينيا كما سبق وأن قلته لك. كانت جدتك روزا هائمة بى، وكنت آنذاك كبير الرعاة فى ضيعاتها. كنت أصعد الجبل على متن حصانى الذى يزهو المرء بركوبه، وقليل من الرعاة كانوا يركبون آنذاك.

(١) مفتخرًا.

لكن لم يكن يريدنى أبوها ختنًا له، ولا يريد طـردى؛ لأن دوابــه لا يحسن أحد رعايتها مثلى. ففى عمق المعرفة وحسن القيادة لا يفوقنى أحد... وهكذا كنا جميعًا فى انتظار المقدور. وآل كاتانوتى، اغتنامـا لهذا الانتظار يمنعون الماء عن مارتينو ساعات من الرى متسللين فى غابته من شجر القسطل، ويجسرون كذلك على السير فـى الـسبيل اليمنى. إن مارتينو شاخٍ ولا ابن له؛ إذ كان زيـر نـساء، فتـزوج متأخرًا، ولا يريدنى ختنًا له؛ لأنى لا أملك شيئًا. أمـا روزا فكانـت تخيِّب أمل الآخرين مصممِّة على الـزواج منـى، أو إلـى الـدير. ياللحماقة يا بنى، لكنها آراء نساء. وأنا كما كنت دومًـا أنجـز فـى ثبات. أمتطى حصانى وأصعد إلى المرعى، ومعى بندقيتى "اللوبارا" لمواجهة أى هلوث يخـرج إلـى، أو إلـى أى مـن آل كانتـانوتى يترصدنى؛ لأن خينارو كان راغبًا فى الحصول علـى روزا. هكـذا كان كل شىء فى الهواء، كما قلت لك، إلى أن كان يوم فُرض علـىَّ فيه النزول إلى الطاحونة، فرأيت سالفينيا وجههـا أبـيض ورقبتهـا بيضاء، وفى الوسط العينان السوداوان. رأتنى على متن الحـصان، فبادرت بمد ذراعيها لى... طيب، فقد قصصت عليك ذلك. عدت إلى هناك ليالى كثيرة وكانت هى، سالفينيا، التى رأت بوضوح؛ حيث لـم أرَ أنا. يا لها من امرأة ! أرأيت ؟ أتذكر بأنى قلته لك، ضباب ميلانو ملوث دائمًا، ها هو أمامك. لو رأيته فى الجبل، فهل كالصوف المتقن الحلج ذرتها الريح."

ينسحب الشيخ من النافذة متكدرًا.

"نعم، هى سالفينيا التى جعلت حظى مواتيًا". إنه مـن حظـك الزواج من روزا" كانت تردد على، وأنا فى غضبى كنت أظن أنهـا قلقت منى، وكان الأمر عكس ذلك. ولأنها تحبنى كثيرًا، كانت تقـول قولها، وأتردد على الطاحونة. فجدتك كانت جميلة، ولكن الحديقـة لا أكثر من قطف أزهارها. أما سالفينيا... فذهول وإعـصار ونـسيان النفس... إلى أن أخذتنى من حيث أمسك دائمًا، فألقت لى بتحدٍّ وأنا لا أتراجع أبدًا أمام ذلك : "أتحداك لو عبرت الميدان بصحبتى فى إحدى الأمسيات. لكنك تهاب قول الناس. "تصور جوابى : الآن حالاً. كـان سواء لدى ضياع روزا وكل شيء؛ لأنى فهمتُ بـذلك متيقنًـا مـن ضياعها. ولكن سالفينيا تعرف أكثر منى عن العالم. فقد أعدت الأمر فى أكبر صورة، مساء يوم سبت، ساعة العودة من العمـل ووقـت الشاربين أمام باب بيبو، وأمام صف الرجال المنتظرين دورهم فـى الحلاقة عند ألدو وحتى القسيس والمتدينات على سلم الكنيـسة. هـى الساعة الكبرى فى الميدان. إلى الأمام ! وظهرت صـحبة سـالفينيا. ولم تكتفِ بذلك، بل أمسكتنى من ذراعى. يا للفضيحة، هذا لا يكـون إلا بين الأزواج. عبرنا بتؤدة من أطول سبيل، من ركن ريبيـا إلـى زاوية البلدية... يا له من استعراض يا بنى ! كما لو عزفت الأبواق! المتدينات ولين ظهورهن والرجال كالأصنام، جميعهم : الـذين لـم تقبلهم أبدًا، والذين تمتعت بهم ثم صرفتهم، فجميعهم، بـنعم أو بـلا،

يحملون سالفينيا فى أحشائهم. كان كل منا ينظر إلى الخلق، وكنت أفكر "الآن ينهار البرج بهذا الذى لم يشاهد من قبل." لكن ولا الناقوس.

أما الساعة فقد دقت السادسة، كما لو أنها تشير إلى مرورنا ! على مهل، كما قلت لك، وفى النهاية تجرأ بعضهم فحيَّانا لمجرد الارتباك ! يا لها من فعلة ! لا تزال تذكر..."

يرفع الشيخ يده إلى بطنه، وينظر حوله.

"أنت أيضًا يا روسكا ؟ أتستمعين إلىَّ ؟ من المؤكد أنك لا تفهمين. ولا بروناتينو طبعًا. أنتما تجهلان أن سالفينيا احترمت دومًا الميدان. من يوم أن ترملت وقد غرق زوجها فى الترعة، اتبعت هواها غير مبالية بأحد، ولكن محترمة الميدان؛ لأنه القرية والشعب. أو لعل ذلك بسبب الكنيسة؛ لأنها مهما كانت فخورة، فلا بد لها من تلك الآراء النسائية. فهى لا تذهب وحدها قط إلى هناك مساء، وكذلك لم تشأ الذهاب صحبة آخر. هو احترام أو من يدرى. لكنها صممت بصحبتى. "بصحبتك أعرِّى استى ونهدى للشمس وسط الميدان ورأسى عالٍ؛ لأنهم جميعًا أسوأ منى. أما هن فليس لأيةِ منهن ما لى. سترى كيف سيرفعك هذا إلى أعلى مستوى، وتتزوج من روزا. لا شىء يعادل عدم الاهتمام وقلة الاعتبار.." وهكذا كان. فالناس أخذوا ينظرون إلىَّ بطريقة أخرى، والتزييو مارتينو لاحظ أنى أستطيع

مواجهة آل كانتانوتى وروزا نفسها... تقاعس أولاً فى ما يخصنا؛ لأنه رآنى مع سالفينيا من خلال نافذته؛ فأدهشه ما رأى. عرفت ذلك فيما بعد. ثم قضى أيامًا باكيًا ومعدًّا جهاز ابنته لتدخل الدير. ولكن أباها متيقن من حاجته لى، وأنى قادر على إنقاذ السبيل عبر الميدان؛ فانتهى الأمر بتزويجنا... هذا ما فعلته سالفينيا. تصور أى حب حبها مع أنها تعشقنى !... واصلت الذهاب إلى الطاحونة، ولكنها أغلقت دائمًا الباب فى وجهى. أنا متأكد من أنها كانت تبكى وراء الباب. فهى من حجر كما قلت لك، صخرة، الجبل نفسه... ومن أجلها دخلت بعد ذلك المقاومة؛ لأنه لو لم يكن الأمر كذلك... ماذا كان يهمنى من الحرب ؟ الوطن يخص العسكريين الذين يأكلون من رزقه، والسياسة للأسياد؛ فهم أولاً فاشستيون مع موسولينى، وديمقراطيون بعد ذلك. لم أدخل المقاومة لكل ذلك. السبب هو أن الألمان قتلوا سالفينيا فى طاحونتها. نعم يا بنى، قتلوا تلك العظمة. وبأية طريقة يا بنى، بأية طريقة ! ببرود وهم أبشع من الوحوش. لم يكونوا رجالاً، ولا استحقوا أن تكون لهم أمهات. القتل جائز، ولكن ذلك لا. فأنا لا أستطيع رواية ذلك لنفس بريئة مثلك."

تخنقه الكلمة فى تفكيره، كالصوت فى حنجرته.

"فأصبحت مقاومًا من أجلها... طبعًا فلو توصلت إلى التعرف على أبناء العاهرة الذين عذبوها؛ لقتلتهم بأشنع مما فعلوا وعلى الدنيا السلام. لكن لم يعرف الفاعل. أى ألمانى يمكن أن يكون الجانى؟

العلاج الوحيد محاربتهم جميعًا. أتفهم ذلك ؟ القضاء علـــى الجميـــع وانضممت إلى المقاومة... الحقيقة هى أنى قضيت على عدد مـــنهم، أكثر من الذين عذبوها، أكثر بكثير... هكذا قد تكون سالفينيا مسرورة بسالفاتورها؛ لأن الضحايا ليسوا هم الجناة، فمن أين لى أن أعـــرفهم، ولكنى أنجزت... نعم، قد تكون مسرورة."

(٤٥)

ما أكبره الآن ! ما أجمله !

تعجَّب هورتنسيا يبعث فى الشيخ ذكرى ذلك الصباح، السيارة تلوثه وجريه تاركًا الطفل وحده والمرأة الحنون... لم تمضِ أربعـــة أشهر، وهو يذكر ذلك كما لو كان من غابر الأيام.

إن هذا اليوم من أيام فبراير قد أصبح دافئًا؛ تظهر فيه السماء أحيانًا بزرقتها. الأشجار التى شذبها فاليريو تكاد تتفـــتح براعمهـــا. خرج الشيخ بالطفل، وجعل يتجول به فى الحديقة؛ إذ خطرت عليـــه زيارة هورتنسيا ليقص عليها آخر مآثر بروناتينو : ففى الميدان واجه كلبًا أليفًا، يكاد يستحق أن يسمى كلبًا. كان واحدًا من تلك الحيوانـــات الصغيرة بدثار وجلجل تقوده امرأة عجوز، لكنه كان ينبح بفظاعـــة، وهو ينظر إلى الطفل. ما أشد نباحه ! بروناتينو، بـــدل أن يخـــاف، ضرب برجله الأرض وبكل قواه، وأطلق صـــراخًا جعـــل الحيـــوان يتقهقر ويحتمى تحت ربته.

خلافًا لذلك، فالآن وقد فتحت لهما هورتنسيا الباب يفقد الطفل جراته ويسند ظهره إلى ساقى الرجل. لكن لم يدم ارتيابه طويلاً. فقبل أن تمد له هورتنسيا ذراعيها، مدخلة السرور على الشيخ؛ لأنه رأى القارب الفضى مربوطًا على ذلك الصدر، نظر الطفل إلى الوراء نحو قرص الدرج المظلم، ثم قارنه بالنور فى زاوية الممر الداخلى، وأشار بسبابته نحو النور. يضحك الكبيران وترفع هورتنسيا بروناتينو فوق ذراعيها، متقدمة بالشيخ نحو القاعة. هناك تدهش لنمو الطفل، فتضيف إلى تعجبها الأول :

– أتذكر يا برونو أن ذراعه لم تكن إذاك تطوق عنقى ؟ أما الآن فانظر !

– وكيف لا أذكر !... لكن لا تبعنى نفسك. هذا أول يوم أراك فيه واقفة منذ مرضك.

– وقفت لأفتح لكما فقط. تجيب وهى واضعة الطفل على الأرض ومستقرة على الأريكة : أقضى اليوم جالسة هنا.

يجيل الطفل النظر فى الغرفة.

– هذا يحتاج إلى شغله بأى شىء، لكن فى بيت بلا أطفال – تتأمل هورتنسيا – آ، نعم، انظر يا برونو، افتح خزانتى وفى قعر الدرج الأسفل الكبير ستجد قطع الدومينو.

طوال مرض هورتنسيا، نفذ خلال زياراته، طلبـــات مماثلـــة، ولكن هذه الخزانة لا تزال تؤثر فيه على نحو ما كـــان فـــى المـــرة الأولى لما فتحها ليبحث عن منديل. إنه يتذكر ذلك جيدًا. يوقفـــه الآن أيضًا هذا الاستفزاز : الألوان المرحة والثياب التى تشير إلى الجـــسد وفوق كل شيء، فوق كل شيء، الرائحة التـــى توســـع أنفـــه. هـــذه الخزانة ليست صندوقًا كبيرًا، بل هى أكثر من ذلك، أبوابها تفتح على غرفة سرية، على معبد للكنوز السرية. الأنـــسجة المعلقـــة تـــذكره بالفجاج المفاجئة فى الجبل؛ حيث تنشر الشباك لصيد الحمام المطوق، وكالحمام يقع قلبـــه فـــى شـــبكة هـــذه الوعـــود، أو هـــذا الإفـــشاء للخصوصيات. "كيف أن هذا لم يحدث لى قط ؟ – يفكر فبالنسبة إلى الخزانات المفتوحة فى غرف النوم فقد رأيت منها الكثير، ووصـــلت إلى الاختفاء فيها عن الأمهات ! هى شبيهة بهذه تقريبًا، لكن لم أكـــن لأهتم بها. ماذا يهمنى من الألبسة ؟ لتخلع الخرق وتلقـــى بهـــا إلـــى الأرض !... ولتأتِ الأجساد، والبشرة إلـــى يـــدى!... والآن خلافًـــا لذلك، ها أنا فاغر الفم أمام هذه الثياب.."

الدرج الأسفل. لما فتحه الآن لأول مرة، كانت الألفة الـــسائدة فى وقعها كرؤية جسد عارٍ. لم يكن ذلك لما تـــوحى بـــه الجـــوارب والألبسة الداخلية، بل هذا الاستسلام الأكثـــر عمقًـــا والمتمثـــل فـــى الذكريات. ولو أن الشيخ يجهل المعنى الحقيقى لهذا الظرف المملـــوء بصور، أو قصة هذه الحلى الصغيرة فى علبتها؛ فهو يعرف أنه الآن

منغمس فى حياة هورتنسيا. وكابن مقرض[١]، تقبض يده وسط هـذه النعومة على فريستها.

بالنسبة إلى الطفل الجالس فوق البساط تحت المنضدة، يمثـل هذا الشلال من القطع البيضاء السوداء شؤبوبًا من الجواهر البراقـة. يشم إحداها ثم يعضها، ولما يجدها غير صالحة للأكل، يحركها كلها مسحورًا بصوت طقطقتها.

– كانت أسلى وماسو باللعب بهذا الدومينو فى أيامه الأخيرة – تشرح هورتنسيا.

"وتذكار كهذا تقدمه للطفل، يا لها من امرأة ! بأى حب تنظـر إلى الطفل ؟!..."

يكبت الشيخ تنهدًا : "لو لم تكن الملعونة روسكا تعضنى مـن أسفل إلى أسفل."

يجعله هذا يفكر فى شىء فيخرج بروناتينو من وكره.

– لا أظنك تبول على البساط – يشرح – هيا يا بنـى، دفقـة صغيرة.

يذهب به إلى الحمام، يفك له الكرات القابضة على جواربـه، ينزل سرواله ويسنده واقفًا. هورتنسيا مشت وراءه فى سكون وترمقه من دون أن يراها، وتعود إلى أريكتها قبل أن يعود الشيخ فخورًا :

---

(١) حيوان يصيد الجرذان والأرانب والعصافير.

- إنه يبول الآن مثل الرجال. اليس كذلك.

يا بروناتينو؟ إليه تدفقًا...

عاد الطفل إلى لعبه، ومضت فترة لا يسمع فيهـــا إلا طقطقـــة القطع.

- فيم تفكر يا برونو ؟

- لا أدرى... فى لا شىء.

- كذب، يا قليل الحياء، أنا أعرفك. أفرغ ما عندك.

يبتسم لشعوره بأنه اكتشف أمره، لما بلغنا سن المراهقـــة كنـــا نخرج من الحانة لنبول وراء المدرسة. كنا نعلم أن المعلمة تتجـــسس علينا، فكنا نتركها ترى جيدًا أشياءنا... كانـــت فـــى طريقهـــا إلـــى النعاس، وكانت تحب اللهو ولكنها لا تجرؤ على معاشرة رجل. كان ذلك قبل الحرب. ثم إنها لا تصلح لمنزل فلاح؛ لأنها رقيقة جدًّا، بلا مال، وقبيحة فلا حل لها المسكينة.

- لم تكن تصلح، ولكن تركت لك الذكرى.

- لا، عندما رأيت الطفل الآن...

- كما لو كنت أنت المعلمة !

يتراجع المزاح البرىء فى الشيخ؛ لأن ذلك هو لب المـــسألة. وتختلط أفكاره مرة أخرى. فمن ناحية، يحتاج الطفل إلى جدة، وعليه

أن يكونها، بالإضافة إلى أنه جد. ومن ناحية أخرى، تلـــك المعلمـــة بوسواسها تثير له هواجسه مع آخر عضات الروســـكا فـــى أســـفل البطن.

تلاحظ هورتنسيا أن شيئًا أثر فى الرجل.

–تقلقك الروسكا ؟ تؤلمك ؟

"إن هذه المرأة عرافة. يندهش مرة أخـــرى. مـــن المـــستحيل إخفاء شىء عنها."

– أى ألم ؟، ولا ألم... لو لم يكن إلا ذلك...

لكن العينين أمامه تستحقان الحقيقة، تطالبان بها بأشد قوة مـــن أى استنطاق. يقرر :

– اسمعى، سيكون من الأسوأ أن تظنى بى الظنون؛ لأنى قلت فى فراشك من دون أن يحدث شىء... الأمر هو أن روسكا تطـــوف بداخلى نحو الأسفل؛ فلا أشعر برجولتى كاملة. ها قد قلت ما علـــىَّ قوله.

ينظر إليها متحديًا، وصوته مفعم بالشجاعة والتـــأثر ونظـــرة الشهوة تكمل الرسالة. هورتنسيا صامتة، وهـــذا أحـــسن. لكـــن لـــو استطاعت لقالت لهذا الرجل إن ذلك لا يمنع شيئًا، بل يجعلـــه أكثـــر ودًّا... ستقول له ذلك من المستقبل.

قطع الدومينو تواصل طقطقتها بين يدى الطفل.

– أى نعم، هذا ما فى الأمر... وقد فكرت دائمًا، وأنا أنظر إلى الشيوخ، أنه لا فائدة فى الحياة هكذا، وخاصة بعد موت الكانتانوتى.

– يا للعجب ! لا تقل مثل هذه الأشياء !

– لا، لم يعد يراودنى هذا التفكير؛ لأنى لا أريد أن يبقى الطفل وحده مع القفل والجستابو. ما دام لا يستطيع الدفاع عن نفسه فأنا لها...

– حسنًا فعلت – وتضيف هورتنسيا فى عذوبة – وهل الطفل وحده يحتاجك يا غبى ؟

تقلص تلقائى على فم الشيخ... وبعد صمت تلوح ابتسامة سرعان ما تحولت إلى ابتهاج.

– آه لم أخبرك !.. هاتفتنى أمس روزيتا، وتقول بأن أبناء كانتانوتى يتخاصمون فيما بينهم وهو يقسمون الميراث. يعيش المرء ليرى. إن ما استطاعوا تحاشيه وهم يرشون الرومانيين المسؤولين عن الإصلاح الزراعى سيتكبدونه الآن بدعاويهم؛ إنهم لحمير... مهلاً، تحاشوه جزئيًا فأنا قد ضغطت على اللوالب من البلدية. لم تزل آنذاك الأوقات الطيبة، فأنقذت الربوات الجماعية لفائدة البلدة. كنا لا نزال نحكم آنذاك نحن المقاومين. لكن انتهى الأمر بقدوم السياسيين

فأزحت نفسى. ما الفائدة ؟... وانظرى الآن، سيسرق بعضهم بعضًا فيحصل عليه المحامون فيبيعونه.

– يحدث أخيرًا ما كان لزامًا أن يحدث. تعلق هورتنسيا ببساطة.

ومرة أخرى تجبر كلمات هذه المرأة الرجل على التفكير : ما الذى لا بد أن يحدث ؟...لكن لم يستطع ولا حتى الظن؛ لأن الحادث يطرأ : فبروناتينو حاول الوقوف ممسكًا بساق المنضدة؛ فصدم رأسه بأسفل اللوحة، فأخذ يبكى وهو يحك المكان المؤلم. تقفز هورتنسيا والجد ليتراجع ألمه.

(٤٦)

ينجح الشيخ باستمرار فى إدهاش علماء الأجناس البشرية بالمعهد ولكن هم أيضًا يدهشونه بمكاشفاتهم. فمن ذلك أن الروسكا مثلاً، التى تنهش جسمه ليست شيئًا جديدًا. لقد كان فى القديم من شكا العلة نفسها وأحدهم – الآن يعلم الشيخ ذلك – هو الرجل المربوط على صخرة؛ حيث تؤكل كبده لكن لم يكن يأكلها ابن مقرض بل نسر. وسريعًا ما يلتهمه !..." – يقول الشيخ مشفقًا. لكن يوضحون له أن النسر لا ينتهى من أكل الكبد.

"قد يكون النسر منحطًا أو لعله مريض. يفكر الشيخ شاكًّا في أن رجال الكتب هؤلاء قد رأوا مرة عنف النسر وهو يفترس أرنبًا بضربات منقاره، أو لعل ذلك الرجل، بروميثيوس، أو اسمًا كهذا، كان شخصًا شديدًا جدًّا، فعقابه كان لسرقته نار الآلهة وهذا كثير... آلهة تلك الأزمنة. فأولئك كانوا حقًّا آلهة لا هذا الذى يتحدث عنه القساوسة، والذى لا يُرَى له لُبٌّ من أية ناحية. كم كانوا يغتنمون ألوهيتهم ويتمتعون بالحياة، بالنساء فى الأخص. الشيخ يطلع على كل شيء..! لهذا فقصة النسر الذى أرسلوه ولا يلتهم الكبد فى ثلاث نقرات لا يصدقها، ولو كان الكبد كبد بروميثيوس: إن هذا شبيه بتلك المعجزات التى يحكيها القساوسة والتى لم يرها أحد؛ لأنها لا تؤتى إلا فى الأزمنة الغابرة. فإحدى المعجزات هى الآن موضوع تعليقات بالمعهد : تحكى عن إله لبس، كما يقال، وجه وجسم ملك ذاهب إلى الحرب؛ وذلك كى يضطجع ليلاً مع الملكة. فهذه المأثرة بالذات لا تثير حماسة الشيخ.

– هذا ليس صنع آلهة. اللطافة تكمن فى أن يغازل الواحد الفتاة بوجهه الحقيقى،، فيلعبان وهما يعتقدان أن كلاً منهما أحسن قرين للآخر... وأرجو المعذرة يا سيدتى.

توجه الشيخ إلى الدكتورة روسى التى ابتسمت له :

– لا تعتذر يا صديقى سالفاتورى... أتسمح أن أدعوك سالفاتورى ؟ أنا أسمى ناتاليا... لا تعتذر، فالذى يدرس علم الأجناس

البشرية لا يفرغ من الحديث عن القرون. ثم – تتسع الابتسامة – إن الحق كله معك : فانتهاز امرأة بهذه الصفة وهى لا تدرى ليس عمل رجال.

أليس كذلك ؟ أليست هى الحقيقة ؟ يصرخ الشيخ مسرورًا.

"انظر من أين يأتى الحق – يفكر – فهذه الطويلـــة النحيفـــة، بالرغم من قلة نهديها، تفهم فى هذا الموضوع أكثر منهم."

– ثم إنى – يواصل – لا أرى الأمر واضحًا. إذا لبس الإلـــه جسم الزوج، فالمتعة تكون لذلك الجسم، حـــسب ظنـــى. إذن فمـــن المتمتع ؟ الإله الموضوع فى الداخل أم لحم الزوج الذى يقوم بالعمل؟ فالإله لا يشعر بشىء ولا شك.

تطلق الدكتورة قهقهة موافقة، بينما الآخرون يتبادلون النظرات مبهوتين. "فهؤلاء العلماء إذن، لم يخطر لهم ولا حتى التفكير فى من ينال المتعة... إنها الأصل فى كل الموضوع !".

يعود الشيخ فينظر إلى الدكتورة متفهمًا نظرتهـــا المتواطئـــة. يدرك إذذاك أن ليس لها الكثير فى الصدر، لكن لها ساقيْن طـــويلتيْن وجميلتيْن! يا للعجب، ومتينة الفخـــذين، كمـــا تـــصورهما التنـــورة المشدودة نتيجة الوضعية التى هى عليها.

يتحول الحديث نحو موضوع قريب من ذلك الذى يسيطر هذه الأيام على الشيخ :موضوع الخشب والزهرة، وهل الرجـــال أيـــضًا يزهرون.

- هل عندكم يا سيدى قصص عـرائس البحـر ؟ - يـسأل الأستاذ - أى تلك النساء برأس طائر أو نصفهن سمكة... أشياء مثل هذه.

-إذا كن سمكًا فهن فى البحر، والصيادون قد يعرفون عن ذلك شيئًا. أما فى الجبل فلا وجود لهن...آ! لكن عندنا الرجـل المـاعز، الكابروومو.

- آ، كيف كانوا ؟ ومن أين أتوْا ؟

- إنسان من الخصر إلى أعلى وماعز أسفله، فقد رأيتهم حتى فى الصور. من أين أتوْا، من أين أتوا،... خى خى.

يتوقف. يا له من سؤال ! قد يفكر المرء أن هـؤلاء الأسـاتذة على الرغم من كثير مطالعاتهم لا يعرفون أن الجديان تخـرج مـن حيث يخرج الأطفال. سأشرح لهم ذلك إذن : فالدكتورة قـد سـمحت لى، ثم إنها تبدو راضية؛ فهى لا تتوقف عن تسجيل ملاحظات.

-إنهم يأتون من حيث يأتى الجميع. من الشاة الأم. إذا جـامع رجل شاة، المعذرة، وتلد هذه فالأمر طبيعى : نصف رجل ونـصف شاة. لكن أظن أن الشياة اليوم لا تحسن الولادة، أو أنها لا تحمـل؛ لأن الكبروومو (رجل شاة) قليل اليوم لا كما كان قديمًا... وواضح أنه لـو ولدت الشياة كما يجب لملئ الجبل بالكبروومو !

– أحقًّا تقول ؟ يفلت السؤال من طالب مندهش !

ينظر الشيخ إليه محتقرًا. "كالعادة : لا يعرفون الحياة."

– الفتيان يأتونه كلهم تقريبًا، وهكذا يتمرنون.

يلاحظ الشيخ وجوهًا كثيرة غير مصدقة. "وعظيم أيضًا أنى قد صدقت هذه المرة، ولم أخترع؛ فهم ينظرون إلى ككذاب."

– أصدقت يا سيدى أم كذبت – يجيب السائل – فأنا قد مازحت أول شاة لى وأنا فى الثانية عشرة، وإن لم تصدق...

– شاة أم نعجة ؟ يحاول الأستاذ التدقيق. تسمع ضحكات ! الشيخ يغضب.

– شاة ! فهى أحسن؛ لأن عظام عجزها بارزة، ألم تتثبت من ذلك؟ أما النعاج فيصعب إمساكها.

نظرة الشيخ المتحدية تفرض الصمت. يشرعون فى مناقشة الموضوع بطريقتهم، متحدثين عن المخلوقات الخرافية، أنصاف بشر، وأنصاف حيوانات، وعن أشياء الكتب الآخرى. يذكرون حالة أخرى تشبه حالة بروميثيوس: العملاق تيسيو. وبعد فترة يطرحون موضوعًا آخر أكثر أهمية عند الشيخ : موضوع الرجل المرأة ويسمى تيريسياس.

– رجل امرأة ؟ ومن منهما من الحزام إلى الأسفل؟ تشرح الدكتورة، وهى العارفة جدًّا بهذه الأساطير، أنه ليس بنصف الجسد، بل بالتداول. تيريسياس ظل سبع سنوات امرأة، ثم عاد فصار رجلاً، وقد وصل إلى أن يكون عرافًا حكيمًا جدًّا.

– طبعًا ! لا شك أنه عرف كل شيء !... لكن هذا ليس ازدواجًا.

"ازدواج ؟ – يفكر وقد خطر له – يمكن أن يكون فى الوقت نفسه جدًّا وجدة." والدكتورة، رغبة منها فى إعانته وقد رأته غارقًا فى التأمل، تشرح له أنها وجدت مخلوقات ذوات جنسين أيضًا فى الوقت نفسه، لا نصفًا بنصف.

تقول له أيضًا أسماءها ولكن الآن وهو مضطجع فى البيت لم يعد يذكرها. فالاسم لا يهم. لكن الذى لا شك فيه هو أن الأزمنة القديمة كانت أحسن بكثير بآلهتها، وبأولئك الذكور الإناث فى وقت واحد. "فهكذا لو شاخوا، واصلوا التمتع؛ لأن النساء لا تهمهن السنون. يكفى فتح الساقين وكفى ! ثم هن بعد هذا لا يحملن !... الحق يقال إنهن لمحظوظات هؤلاء الملعونات. "يفكر الشيخ وهو يشعر بهجوم، ولو غير عنيف، من الروسكا.

لكن نحن لا شيء بهذا الإله الحالى – يخطر عليه وهو بعد على ضفة النوم الغامضة – فهو لا يعطينها أكثر من حياة واحدة ولم

يفلح فى إعطائنا نهودًا، نحن الرجال... لأننا لو كنا معدين جيدًا من الأسفل وبنهدين فى الأعلى... لسعد بذلك الأطفال."

(٤٧)

كان الابنان فى غرفة نومهما يتحدثان عن الجد.

- لا بد أنه عائد من الجامعة، فهذا وقته. تؤكد أندريا وقد اضطجعت.

واضح أنه كان أكثر سرورًا فى المرات الأخيرة - يجيب ريناتو - الذى عاد بعد أن ألقى نظرة على الطفل ويدخل فراشه.

- لعل النتيجة لم ترضه هذه المرة... فكفاه أن يتكلم فى كرسى بوونكونتونى الجامعى. ألا تقدر ذلك يا ريناتو؟ لم أخرج من دهشتى من يوم أن أخبرنى ذلك الشاب. وبالمناسبة، إنه ابن الكومنداتورى فرلينى، دومينيكو فرلينى.

- هكذا نعرف - فى الأقل - أين يذهب.

- لا نعلم كل شيء. وتلك الأكلات خارج البيت ؟ فما الفائدة من صيانة نظام أكله - الشيء بالشيء يذكر الغلاء يزداد يوميًّا - إذا كل أكل بعد ذلك فهو قاذورات فى الخارج!.. المهم، أبوك فى الجامعة، من كان يظن ذلك!

ولم لا ؟ إنه يعرف الكثير عن الريف بما فـــى ذلـــك تقاليـــد اضمحلت.

لكن، ألا تعلم أنهم يتحدثون حتى عن علم الأجنـــاس البـــشرية القديمة ؟ أليسوا يهزأون منه ؟ فهذا يفسر ذاك.

– أبى لا أحد يهزأ منه؛ وعلى أية حال – يضيف محزونـــًا – فهو متمتع بذلك ولم يبقَ له الكثير من الوقت...!

تشارك أندرييا فى الحزن. ومن أجل هـــذا الوقـــت القـــصير المتبقى، لم تخبر الزوج بأن الشيخ يدخل ليلاً غرفة الصغير. فيجـــب الصبر ولو أفسد تربية الطفل. الأستاذ دالانوتى لا شك لديه."وعلـــى كل حال، لماذا لا يعود إلى روكاسيرا الآن وقد مات الآخر ؟ تفكـــر أندرييا قبل أن تجيب :

– يقاوم كثيرًا.

– ذلك لأنه كان رجلاً حقًّا وحقيقة. فأنت عرفته فى آخر أيامه فقط. لكن لو عرفته كيف صار أهم رجل فى القرية حيث ولد بلا أب ! وقد برز كثيرًا فى أثناء الحرب. وطنى جرح ثلاث مـــرات. لقـــد قص على صديقة أمبروزيو مآثره العجيبة. لقد حرر القريـــة برفقـــه حفنة من الإنجليز، وبفضله لم يعد الألمان رهائن ولا خرَّبوا شيئًا عند انسحابهم. ثم كان أحسن عميد بلدية عرف هنـــاك. ســـاعد الـــشعب بالإصلاح الزراعى على الرغم من مقاومة الكانتانوتى ذلك : كـــانوا

يرشون الموظفين، وقاموا حتى بتـدبير كمينـين لــه، ولكـن قَتَـلَ المعتدين... والآن مسكين أبى! أقسم لك أنى أشـعر أحيانًـا بتـوبيخ الضمير من عدم بقائى معه هناك.

كان ريناتو محزونًا، فألجأ رأسه فوق الصدر الأنثـوى الـذى شعر به من خلال الثوب الشفاف وكأنه عارٍ. أما هى فتلاطف الشعر الكث الشبيه بشعر الشيخ، ولكنه أكثر سوادًا، وهو أيضًا متجعد يشبه شعر الطالب ذى الرأس الرومانى الذى جاء يبحث عن الـشيخ ذات مساء.

– لكن لو أنى بقيت هناك – يبرر نفسه – لم أكن لأزيد عـن أن أكون ابن سالفاتورى... كان لزامًا علىَّ الذهاب ! أتفهمين ؟

– طبعًا أفهمك يا حبيبى، لم يكن بإمكانك شىء آخر تـصنعه. توافق وهى تفكر أنه على الرغم من شىء، فريناتو لم يبلغ مدى بعيدًا بهربه من القرية. كيمياوى فى مصنع، لا أكثر، فهـو لـم يبلـغ ولا رئاسة مخبر. لن يصلا إلى روما حيث مستقبلها، إن لم تـدفع هـى عجلة البيت... يبدو أن وظيفة أخرى ستشغر فـى الفنـون الجميلـة بإدارة الحفريات... فرصة جيدة. أحسن من السابقة فى فيلا دجوليـا. ومدير الحفريات زميل عمى دانيال الذى كان مساعد كاتب دولة مـع دى غاسبيرى، وهو لا يزال ذا سلطة كبيرة. من الضرورى الـذهاب لتحريك الأمر فى روما.

تبعث الفكرة فيها النشاط، أو لعلها الأنفاس الرجولية وحركة الشفاه هى التى هيجت حلمتها. وهكذا تنزل يدها الطليقة بتؤدة، ملاطفة صدر ريناتو وبطنه الذى يستجيب لرغبة أندريبيا، كما لو شاء لحمه أن يتحرر هكذا من ظل الموت.

(٤٨)

يصعب النوم على بروناتينو. يهديه الشيخ أحسن مهد بين ذراعيه فيرتاح الطفل فيه، ولكن يصيح فجأة "no" (لا) – إنه آخر اكتشافاته – ويبحث عن وضعية أخرى. يفتح جفونه من حين إلى حين فيبرز سواد عينيه ظلمة أشعة الشارع.

"أيكون مريضًا ؟ – يخشى الشيخ – ثم إن هذا الصراخ بترديد "لا" سيوقظ الأبوين... من حسن الحظ أنهما لا يسمعان، فهما ليسا من المقاومة يا بنى. ينامان كالبرجوازيين... وعلى كل حال، لا تهرج أم الطفل فهو يصيح ":no" – هى صيحة الحقيقة بين "نو" و "نا" – بقوة انفجارية. والشيخ مسرور بأن تكون هذه أول كلمة تعلمها قبل "بابا" أو "ماما" أو "جد"P لأنه من الواجب معرفة الرفض أولاً. نعم> الدفاع عن النفس هو الأول.

ينام الطفل أخيرًا فيضعه الشيخ فى فراشه، ويشرع فى حراسته جالسًا، ويظهره إلى الحائط متأملاً ككل ليلة. "الدفاع عن النفس هو الأول. أهذا ما قلت ؟ هذا شىء آخر مما لا أراه واضحًا

يا بنى. مثل موضوع الخشب والزهرة، رجال ونساء. كـانوا سـابقًا أضدادًا والآن هأنذا : رجل كامل الرجولة مثلى، رأى أنى لو منحـت نهدين لكنت أحسن جد... يا للعجب ! أليس كذلك؟ هذا هـو الواقـع. فالآن أفهم أنهما ليسا ضدين فكثير من الأشجار تزهر، وكثيـر مـن الزهور تعطى خشبًا... تقول لا ؟ من أين تخرج الشجرة إن لم تكـن من بذرة زهرتها ؟ ومن دون طول انتظار لك مثلما فى الورود. فقد قطعت نبتة ورد قديمة من أسفلها فكانت ساقها، القوية كفخذك، خشبًا خالصًا وأى خشب !"

يَلَذُّ الشيخ للذكرى.

"أتعرف أى نبتة ورد كانت ؟ نبتة ضريح آل كاتانوتى لا أكثر ولا أقل. لقد بلغت بهم قلة الحياء حَدًّ بناء ضريح متبجح فيـه حتـى المرمر، ولم يشاؤوه أكبر حتى لا يغضب آل الماركيز الـذين لهـم ضريح آخر فى المقبرة ذاتها. تصور، المرمر لمستودع جثث ذلـك الجنس الخبيث!... فالوردة ذات السنوات الكثيرة نمت حتـى بلغـت قوس الباب المكسور كما فى أقواس الكنائس. كانوا يفتخرون بالوردة ربما أكثر من فخرهم بالضريح. وبما أنهم أغضبونى آنذاك بأولئـك القتلة الراغبين فى اصطيادى قلت : "سأترك موتـاهم بـلا زهـور. "فقطعت الوردة فى إحدى الليالى بضربتى فـأس، إذا كانـت خـشبًا خشنًا، كما قلت لك، كانت قوة خالـصة. وبالمناسـبة فـالأموات لا يخرجون ليلاً فى المقابر ولا شىء من ذلك. مجرد ترهات!... هناك

قد يكون الدود الآن آكلا ذلك التيس بنظاراته. يستطيع الآن قرع الباب الذى أغلق عليه: فلست من سيذهب لإنقاذه."

يستنكر هذه الفكرة الأخيرة، فيرفضها حالاً غاضبًا من نفسه.

"إنقاذه ؟ ولا حتى التفكير فى ذلك ! شفقة لذلك الوغد؟ أفضله ميتًا وقد تأخرفى موته !... لعلى سأصبح مأبونًا لليونتى هذه؛ ليصرخ ولتتحطم عظامه الميتة قرعًا لذلك الباب. إنه محكم الإغلاق!.. شفقة ؟ كيف يخطر هذا على بالى ؟ هل يكمن الآن بداخلى شخص آخر ؟.. يجب دائمًا الحذر منهم يا بنى ومن الجواسيس. إنهم يقضون على فرقة إذا هم تسللوا فيها كما فعل جاسوس سانتينارو. لا أترك أحدًا يدخل هنا ولا فى داخلى."

لكن يشتد اندهاشه أمام الفكرة التى تراوده : "لا كلام عن الشفقة !... أنا لست خبيثًا يا بروناتينو، ولكن ذلك الرجل عدوى. كان يستغل البلدة وأراد قتلى، أتفهم؟.. كيف أشعر الآن بالشفقة ؟.. لكن، لا، لم أشعر بها، ها قد فات كل شىء... هى بلبلة مما يعترينى الآن لكن أرى كل شىء واضحًا، فحتى الحيوانات ترى أن الأقوى ينال الفريسة. والطبيعى هو أن يكون المرء قويًا يا بنى. عض أو يعضونك، تذكر هذا. لقد علمنيه ذلك الجدى فى ألعابى. لم يكن وديعًا مثل لمبرينو، بل كان دائم النطح؛ ولذلك تركوه ليصير فحلاً. ولا يزال، وقد كبر، يسير بين إناثه كالملك. نعم، تعلمته. أنا لم أستسلم

قط، ولا تركت الخصام... أتعرف ما أحسن هدية قدموها لـــى وأنـــا طفل ؟ هى موسى صغيرة ولكنها موسى ! اشتراها لى موررودنترو، أبو هذا الحالى."سيجرح نفسه، إنه لا يزال طفلاً "قال له كبير الرعاة. "أحسن، فهكذا يتعلم."لكنى لم أجرح نفسى. لم أفعل !... أتعرف كيف دشنتها ؟ كانوا يسلخون جديًا لإعداد مضيرة[1]، وقد تدهور الجـــدى بنطحة من آخر. فذهبت إلى الطباخ وتركنى أغرسها بـــين الطنـــب وعظم الساق الطويلة حيث يعلقونه لسلخه. وتذكر ذلك يعيـــد ليـــدى القوة التى يعطيها الضغط على الموسى. وخلافًا لهذا فقد نـــسيت مـــا فعلته هذا الصباح. يا للعجب !... لا شك وأن هذه الموسى لا تزال فى جوالقى لأيام الحرب، إن لم يرم بها ذلك الخنزير ختنى؛ لما يحملـــه لى من الكراهية... طيب، ليس كرهًا. للكراهيـــة تجـــب الـــشجاعة، والملعون ليس له إلا سوء النية وطول اللسان... كـــم مـــن ســـكين أصابت بعد ذلك ! منها الشيرافيليكو كنت إذذاك خطيبًا : فقد كانـــت الفتيات جميعًا يهدينه للرجل عندما تتم الخطبة. الذى أهدتنيه وردتى، جدتك، كان له مقبض من الصدف كسكين رجال المافيـــا... لكـــن لا سكين يعادل الموسى الصغيرة الأولى. إنها مثل أول امرأة، أتعرف ؟ طيب.. ستفهم فى المستقبل... لماذا تتحرك ؟ أتجـــد مـــن الظرافـــة تسميتها قاطعة السرة ؟ اسم مناسب فالضربة فى البطن هى أضـــمن

---

(١) المضيرة : هى طبيخ لحم باللبن

ضربة، فكل شيء هناك فى الأسفل طرى ليِّن. الذبح أفضل طبعًا ولكن ذلك يكون من الخلف.. أم أنت تتحرك لأنك مريض ؟"

يقترب الشيخ من المهد ويلمس جبهة الطفل، ولكنها بلا حرارة. إذذاك يسمع ضرطة فيبتسم : "آ يا نهم، أنت مصاص مجيد ! دعك، سأخفف عنك."

ينزل على ركبتيه بجانب المهد، واضعًا برثنه مفتوحًا على بطن الصغير. كانت تقول له المرحومة زوجته إن يده شافية. فقد كانت كثيرة الأوجاع على الرغم من قلة أكلها، وخاصة بعد ولادة ريناتو.

"نعم، الطعنة فى البطن هى الأحسن ضد العدو. ولكن، من هو العدو ؟ كان واضحًا لدى أنهم الألمان. لكن لا؛ فأخت هورتنسيا متزوجة من أحدهم فى ميونخ، وهى سعيدة، ولها ما لا يقل عن سبعة أبناء. رجل طيب جدًّا حتى أنهم وضعوه فى معتقل فى عهد هتلر. هكذا الأمر ولو برز لى هذا فى الجبل بزيه الملعون لقضيت عليه. شيء آخر كان واضحًا لدىَّ : لا يمكن العيش بلا قتال. لكن انظر إلى الأتروريين، فهم لم يكونوا مقاتلين حقيقة. أندرييا تقول ذلك وفى هذا أصدقها... وهكذا احتلهم الرومان ! آ، لكن كانوا يعيشون كالملوك. لا أزال أذكر ذينك الزوجين متمتعين فوق تابوتهما، المسمى ناؤوس... من المؤكد أن كانتانوتى لا يبتسم هكذا !"

إن رؤية النظارات السوداء فوق جمجمة، ومرأى السن الذهبية البغيضة يثيران ذاكرة الشيخ برهة وجيزة.

"وأنت نفسك يا طفلى الصغير، هل تخاصم ؟ طيب، إنك تقول: "لا" ضاربًا بيدك ملعقة الدواء والحق معك. لكن هذا ليس خصامًا. خلافًا فأنت تسمح بأخذك وتستريح فوق الأذرع تخرج رابحا أيها الصعلوك، وتفعل بى وما بدا لك. وما بيدى أن أصنعه غير محبتك ؟ فأنت تدخل إلى الأحشاء... لما تكون بين ذراعين أخريين وتمد إلىَّ يدك؛ كى تأتى عندى. ماذا عساى أن أقول لك عن العَبْرة فى حنجرتى ؟ إن رؤية هذه الحركة الطفولية توقف فجأة انتشاء هذه التأملات.

"لهذا، أحببنى. أنت لاتعرف أنه بقى لك وقت قصير مع الجد إلى موسم القسطل على أقصى تقدير. إن الروسكا تعضنى! وهى أيضًا "قاطعة سرة". نعم، نعم، أعرف أنك تحبنى. إذن قلة لى. فُهْ به إلىَّ قبل أن يفوت الأوان. أنت تفتح لى ذراعيك. نعم، لكن يجب التصريح به. من المعلوم أن ما يقال أحيانًا هو كذب... دونكا كانت تلاحظه علىَّ فتكرر : "لا، أنت لا تحبنى، أعجبك فقط... ويعجبنك كلهن!" كنت أقسم لها أنهاالحقيقة؛ لأن القسم بالحب لامرأة لا ينطوى على عدم وفاء بالعهد، ولو كان كذبًا. ثم كيف لا تحب، وهى طيبة جدًّا وأنثى شجاعة ؟ لكن كانت تنظر إلىَّ بحزن، فتنطفئ الشرارات الخضر فى عينيْها العسليتيْن مثل السحابة التى تخفى الشمس عند

بحيرة أرفو. مسكينة دونكا. كان دافيد مفتونًا بها وهي تأتي إلى فراشي، بينما هو لم ينلها أبدًا... لكن لماذا أدعوها مسكينة ؟ لقد أحبتني ونالتني، فعلاً. ولكن هل نالتني حقًّا ؟ أرى الآن أني لم أعطها الكفاية. فيظهر أن هناك ما يعطى أكثر مما أعطيت. هورتنسيا على حق. كانت دونكا تشعر بذلك فتحزن كثيرًا. تعود إليَّ بعد قليل فتنظر إليَّ. إلى الآن أرى العينين.... "ولو كذبتني، قل لي: أحبك". كنت أكرر لها ذلك وأشياء عذبة أخرى تلك التي تعجبها. فكانت. فكانت تبتسم وتعود تلك الشرارات إلى عينيها ويمر السحاب... من المؤكد أنها كانت سعيدة... نعم، أكيد... كان ذلك جميلاً. أتعرف ؟ إسعاد الغير شيء جميل. تعلم هذا أيضًا، واشرع من الآن. قل لي حالاً إنك تحبني. متى يا ترى تناديني بـ "تونو" (جدي) إنها أسهل من بابا وماما. ها أنت تقول نصف الكلمة، فكرر تلك "النو" وكفى : نو – نو، نو – نو.

يوم أسمعها منك تمنحني الحياة. أتسمع ؟ تمنحني الحياة !"

ينام الطفل الآن نومًا هادئًا.

"صحيح، إذن، أني لا أزال أصوِّب مانالني." يمدح الشيخ نفسه وهو يجذب يده من فوق بطن الصغير.

إذذاك يشعر بحدسه كمقاوم بحضور ما. يلتفت فجأة كوحش متوثب. طيف بالباب المفتوح. يلعن تأملاته. لقد فاجأة الألماني.

إنهريناتو. الأب والابن يتبادلان النظرات بلا حـراك. يتقـدم الشيخ ويهمس وجهًا لوجه:

- ماذا جرى ؟ أحدثت صوتًا ؟

- لا يا أبى. ظننت الطفل يشكو شيئًا لما رأيتك هنا.

- هل أنت تبحث عنى ؟

يكذب الابن.

- ظننت أنه حدث لك مكروه؛ لأننى لم أجدك فى غرفتك...

- يعانق الشيخ ابنه باندفاع ويصب فى مسمعه :

- كنت أعلم أن لك قلبًا تحب به !

- يعجز الابن عن الكلام. والآن يكذب الشيخ :

- لقد جئت من أجل الطفل... فهو يبقى وحـده هكـذا طـول الليل..!

يعجز الشيخ أيضًا عن الكلام ثم يسترد نفسه :

حسنًا، لنذهب ولننم كلنا.

هذا هو الأحسن، ليلتك سعيدة يا أبى.

يتساءل الشيخ وهو فى طريقه إلى غرفته.

"لو كنت – كما فى الأيام السالفة – لتشاجرت مع ابنى... آى، المشاجر يبقى دومًا وحده. إنه يخيف فيتنحى الجميع... حتى معهن، فبعد المتعة أبقى وحدى!... هناك شىء آخر يا هورتنسيا لعدم البقاء وحيدًا، هناك شىء آخر..."

ينتظر الشيخ قليلاً ثم يرجع عبر الممر من دون أن يشعر بابنه وهو ببابه، يراه يعود إلى الغرفة الصغيرة. آنذاك فقط. يبتسم ريناتو بإشفاق وهو يدخل فراشه فى تؤدة؛ كى لا يوقظ أندريا ولا يصيبها بعدوى حزنه.

إلى جانب الطفل، يهمس الشيخ :

"لم أعد الآن وحيدًا بيديك الصغيرتين حول عنقى وأنت فى أعماقى. لا صراع. ذراعاى مهد لك لأضمك إلى صدرى فأسعدك. أعرف ذلك. أنت تستسلم لى يا بنى، يا ملاكى الصغير، تستسلم بلا شروط. وهكذا أسلم لك نفسى كما علمتنى؛ وبذلك لم أعد وحيدَا

(٤٩)

مكالمة لك يا سيد رونكونى.

يلتفت ريناتو نحو العاملة.

– من يا دجوفانا ؟

– شيء يتعلق بوالدك، العجلة ! يذهب ريناتو إلى الهاتف منتظرًا أسوأ الأمور.

– أنا رونكوني، تفضل.

صوت عذب.

–أبوك أصابه دوار، لا أكثر من ذلك فلا تفزع. ولكن يجب أن تأتي.

– حالاً ! في أي مستشفى أيتها الراهبة ؟

– هو في بيتي. أنا صديقة أبيك. ميللي هورتنسيا، بشارع بور غوسبيسو ٥١، الطابق الأعلى على الشمال.

يحتار ريناتو فيعبر عن شكره ويضع السماعة. يعتذر لرئيسه وينزل إلى مستودع السيارات، ويرتمي في الشارع، محاولاً ربح دقائق وسط حركة المرور المكتظة كالعادة. يبدو له الطريق بلا نهاية.

يفتح باب الشقة في هذه العمارة المجهولة – على الرغم من حبه نفسه – عندما يخرج من المصعد، تدخله سيدة لم يتثبت من ملامحها، وهي ضد النور، وتقوده إلى غرفة نوم بسيطة لكن لطيفة، وعلى السرير الكبير أبوه مضطجع بلباسه حسب الظن، ومغطى بدثار إلى مستوى صدره . إن اصفرار وجهه يجعل ظل عثنونه أكثر

سوادًا. عيناه مغمضتان وغارقتان، ومن شفتيه نصف المفتوحتين يخرج لهاث خفيف. ينعصر قلب ريناتو.

- متى حدث هذا ؟

مُذ ساعة. تجيب المرأة مشيرة إلى كرسى إلى جانب السرير وجالسة هى أمامه.

- هاتفتك يا سيدى فى الحال... لقد جاء لزيارتى وكنا نتبادل الحديث، لما شعر فجأة بحاجة إلى الذهاب إلى المرحاض. بعد قليل سمعته يسقط، ومن حسن الحظ أنه وجد الوقت لفتح القفل، فدخلت ووضعته على فراشى.

- يحتاج إلى طبيب، أتسمحين لى باستعمال الهاتف؟

- لقد رآه بعدُ طبيب يعيش بالقرب منا. لقد أصاب أباك نزيف وهو ضعيف. لقد حقنه الطبيب وهو واثق بأنه سيفيق قريبًا، وعندها تستطيع أخذه إلى بيتك. لننتظر. ألا ترى ذلك ؟ يوافق ريناتو. يشكر من جديد هذه السيدة، محاولاً كبح فضوله أمام هذا الوجه الوديع، والشعر الأسود المشدود بنظافة، ونور العينين الفاتحتين والمغمومتين. كان يرغب فى إلقاء عدة أسئلة، ومن دون انتظار ذلك تقدم له هى الشروح وافية : اللقاء الأول فى الحديقة والصداقة مُذ ذلك الحين والتفاهم بين اثنين من الجنوب وزيارات الرجل إلى اليوم...

- كان يأكل عندك بعض المرات، أليس كذلك ؟ إنه سيرتاح لتوضيح ذلك فى النهاية.

- نعم، يعجبه كثيرًا إعداد أصناف من طعامنا.

إنها تتكلم كما لو لم يحدث شيء وأن الرجل نائم فى هدوء.

- إن أبى مريض بسرطان يستشرى بشراسة فى جسده.

- أعرف ذلك.

"ما العلاقة بينها وبين أبى ؟" يفكر ريناتو ثم يسأل :

- كيف وجدتنى ؟

- إنه حدثنى عنك دومًا... وقبل إغمائه بالذات كان يرينى رسالة من نيويورك أتته من أخيك.

آ، نعم، الرسالة التى أعادت إرسالها روزنا من عند البلدة. تلك التى بها الصورة : فرنشسكو وعائلته، وهم بلباس أثار حفيظة الشيخ؛ فصاح لما رآها : كأنهم فى سرك، إنهم مهرجون !" لكن - يفكر ريناتو - من المؤكد أن المرأة سمعت التعليق نفسه.

تشعر هى فى هذه الأثناء أنه يتأملها، فتستعيد ما كان الشيخ يقوله لها حقًا قبل أن يسرع إلى غرفة الحمام. كان يتحدث عن الكانتانوتى، وهو منذ أيام فى هوس من فكرة يرفضها -إنى بالليل أجتر كثيرًا ما بباطنى - كان يقول الرجل فى ذلك الوقت - فقد

يخطر لى حتى بعض التهاون... وحتى الشعور بالشفقة نحو الكانتانوتى ! ونظرًا إلى ما هم عليه الآن من خصومه وجفوة، فإن تلك الدار ستنهار بعدما كانت عليه فى روكاسيرا... إذن ليغرقوا !

- واضح أن هذه الأشياء تثير الشفقة.

لا تقولى هذا يا هورتنسيا ! لقد جلبوا ذلك لأنفسهم؛ بجشعهم وسرقتهم ما استطاعوا... أشفق عليهم ؟ ! لا، لو كنت شخصًا آخر !

- وإن كنته ؟ ألم تتغير قليلاً ؟

- أنا دائمًا برونو – أجاب الشيخ.

واضح، لكن برونو هذه الساعة يمكن أن يرى الأشياء بمنظار آخر.

صمت الرجل مفكرًا.

- وهل تعرف من يفتح لك عينيك ؟ قالت ملحة.

- أنت بكل تأكيد. فالنساء يغيرن ما بنا، نحن الرجال.

- ليت ذلك حقًّا – تجيب هى – كم يعجبنى لو فعلت، لكن يغيرك أكثر بروناتينو؛ إذ أنت تلين كثيرًا معه!... نعم، قلت لك أشياء، لكنك تصدقنى بفضل ملاكك الصغير، فحتى تعرفك إلىَّ ؛ كان من أجله !

أكدت ابتسامته لهورتنسيا أن الرجل معترف بذلك. "الطفل هو حقيقته" فكرت هورتنسيا وأعادت :

- بروناتينو كان البادئ. أما أنا فقد جئتنى بالغ النمو، ليناً.

- لين أنا ؟ زمجر الرجل غاضبًا.

لم يستطع إتمام حديثه. وقف ويده على بطنه واعتذر وخرج مسرعًا. بعد ذلك جاء الواقع الذى هذبته للابن : الشيخ يناديها من الحمام، وهى تصل فى الوقت الذى انثنى فيه فاقد الشعور من كرسى الكنيف إلى الأرض، وماء حوض الكنيف محمر، واللحم المترهل عارٍ، وهى فى كرب يملأ روحها، وفى هدوء داجن بيديها المشفقتين تغسله وتستره وترفع الجسم النحيل لتأخذه إلى الفراش. دخلت غرفة النوم، فعكست لها صورتها مرآة الخزانة : بين ذراعيها الشيخ، الرجل، الطفل. رأسه المنهمك فوق الكتف الأنثوى، ويده مدلاة والجسد كأنه منساب بين ذراعيها. لما رأت نفسها، بدأ حملها يثقل ثقلاً كبيرًا حتى خشيت الوقوع فى مكانها... شعرت بدموع على خديها، وهى تضعه فى الفراش وتغطيه. احتاجت إلى استعادة نفسها من أثر الطعنة قبل أن تستطيع المهاتفة... يا لها من تجربة صعبة.

والآن ولده هذا، ريناتو هذا يتأملها فى صمت وهو حائر، وسؤال ظاهر جدًّا يبدو فى عينيه إذن، لا حاجة للالتباس فتخاطبه وجهًا لوجه :

– يأتى كصديق، نتبادل الحديث، ونأكل معًا، ذهبنا إلى المسرح... أنا أعيش وحيدة مُذ مات زوجى، وأبوك رجل كامل بكل أوصاف أرضنا ! أتفهم ؟.. تضيف بصوت خافت – لكن هو لا يتصور كم أنا أحبه... تنظر إلى الابن قائلة : ها قد عرفت يا سيدى.

رنت الكلمات بشدة وبلا افتعال، ولكن يرى ريناتو فى هاتيْن العينيْن الصادقتيْن عمقًا هادئًا لينبوع كامل الصفاء. فيتأثر ويسلم بدوره نفسه :

– لا يعرف كذلك كم أحبه أنا يا سيدتى.

– بل قل هورتنسيا. تصحح هى مبتسمة.

– شكرًا يا هورتنسيا.

تتعانق النظرتان متواطئتين فى الهواء. تتنهد هى وتبتسم :

– كيف لا يجب ؟! يا له من رجل !...

تتسع ابتسامتها وتكلم نفسها: طفلى برونانتينو.

تكاد لا تسمع قولها ذاك لنفسها، فتندهش؛ لأنها لم تفكر فى هذا قط. وهى تكتشف فوق ذلك أن هذه الحقيقة قد حصلت عليها – قبل قليل وفى وقت آخر – أمام مرآة الخزانة لما كان الرجل يثقل ذراعيها. وتعيد فى ثبات :

– نعم، طفلى برونانتينو.

يعبر الابن عن تفهمه فى صمت. إذذاك يأتى الرجل حركة، فتعود هورتنسيا إلى الحاضر.

- احذر ! لن يعجبه أنك تراه مغشيًا عليه. اخرج إلى الممر، وتصرف كما لو أنك جئت متأخرًا. انتظر هناك فى الخارج.

يوافق الابن، وينسحب إلى البهو. بعد قليل يفتح الرجل عينيه، ويركز نظرته، ويبتسم لهورتنسيا.

- منذ وقت طويل ؟ يسأل صوت ضعيف.

- فترة قصيرة. لقد دعوت ابنك ولن يتأخر.

بحركة تبرم وصبر يأخذ فى التذكر :

- من أخرجنى من الكنيف ؟

- أنا.

- أنت وحدك ؟

- لا أحد غيرى...! أتيت بك بين ذراعى – تضيف مفتخرة ومتواضعة فى الوقت نفسه – سيدة وخادمة.

يخرج الشيخ يده كأنها جفن كرم، ويبحث عن يد المرأة، فتأتى لتحيته فيرفعها إلى شفتيه. وعند تقبيلها، يدفع لها دمعتين كضريبة، ويأخذ فى تخيل نفسه بين هاتين الذراعين، فيقفز إلى مخيلته جسم

دافيد يحمله تورلونيو فى تلك الليلة بالجبل. وفى حيرته هذه، تتــراكم الصور : فمن دافيد إلى نفسه إلى دونكا. تلتبس فى ذهنه دونكا مــع هورتنسيا، فتتحد الأضواء المجيدة من ذلك القطار الملتهب فى أعماق السهل وسط ليل بهيم، المسيح بين ذراعى الأم.

يصبح ذلك حقيقة واحدة : النصر والموت.

(٥٠)

يعلق ريناتو قائلاً : لا أفهم كيف يبدى هذه المقاومة؟

أخذت أندرييا الشيخ إلى مصحة دالانوتى، وهــى الآن تقــص على زوجها نتيجة الفحص، بينما تلاطف بحركة ترويح ذلك الــرأس المغموم اللائذ بإبطها.

يتعجب كذلك دالانوتى، ولو أنه رأى حالات متشابهة. لو كان غيره لمات هناك فى مرحاض... طيبة، تلك السيدة.

هورتنسيا تصرفت تصرفًا عجيبًا كما قلت لك. يدقق رينــاتو فهو قد قص على زوجته كل ما وقع فى تلك الدار، وبكل الجزئيات، إلى أن أتى بالشيخ. الواقع هو أن أبى...

يستعيد بعينى الذكرى ذلك الريناتو الطفل رافعًا نظــره نحــو العملاق النازل من الجبل، فيترجل فى فناء المنــزل ليرفعــه علــى ذراعيه إلى ارتفاع يحدث الدوران وهو يضحك كالسيل المنحدر. إن

هذه الذكرى ممزقة للقلب : فهى لا تصلح للتسلية؛ إذ من المعــروف أن هذا السيل بلغ نهايته.

- هل أشار ببعض الدواء ؟.. ففى الأقل لا يتألم!

- الدواء نفسه. المواصلة بالهرمونات. وصف لى، إن دعــت الحاجة، مسكنًا أحسن. علينا أن نناوله إياه فى القــارورة الأخــرى؛ لأنك تعرف كيف يصير عند الإشارة إلا أنه يتحمل الألــم، كمــا لا يتحمل أى ميلانى... وقال لى دالانوتى أيضًا إن العملية لم تعد تفيد، ولو أنه فاتح أباك بشأنها. أظن ذلك من باب الطمأنينة. يا إلهــى، إن أباك قنفذ على الرغم من أن الأستاذ لا يمكنه أن يكون أكثر لطافة.

- ماذا جرى ؟. دالانوتى يعامل أباك بطريقة تنطــوى علــى اعتبارات عدة، والنتيجة... لكن، واضح، ما لم أقصه عليــك وهــو شيء مهم !

تتحمس أندرييا، فتنتصب نصف انتصاب.

- أتدرى من ذاك الذى يعرفه أبوك حتى أنه أنقذ حياته خلال الحرب ؟... لا تتصور ذلك !... إنه بياترو زمبرينى.

ومن هو هذا ؟

- من فضلك يا ريناتو ! خارج الكيمياء لا تهــتم بــشيء... زمبرينى هو عضو مجلس الشيوخ الشيوعى، رئيس اللجنة الوطنيــة

للفنون الجميلة؛ حيث يعرف بالصرامة فيخشاه الجميع. لو عرفت هذه الصداقة فى إبانها، لما سرقوا فى فيلا دجوليا الوظيفة التى استحقها.

لمَّا أعود إلى روما، ويجب أن يكون هذا قريبًا، سأزوره لأشرح له حقوقى. سيقبل أبوك تقديمه لى أليس كذلك ؟ لن أطلب إلا ما هو مشروع !

– من المؤكد يا أندريا... لكن ألا تقولين لى الآن ما الذى حدث مع دالانوتى ؟ لماذا قلت إن أبى كان صعب المراس ؟

– لأنها الحقيقة ! تصور دالانوتى عظيم الانتباه، شارحًا له العملية، ومشجعًا إياه... "بسيطة جدًّا أيها الصديق رونكونى، مجرد خياطة صغيرة من الداخل لتحاشى المزيد من النزيف – هكذا قال له – سيكون ذلك مستقبلاً طبعًا بعد استعادة قواك من هذه الوعكة.." الخلاصة، طبيب يعرف كيف يعالج المرضى. ومع هذا، فأبوك كاد أن يكون محتقرًا... أأشرح لك ذلك ؟ أنا كنت ثائرة جدًّا !

– النهاية، إن لم يكن إلا هذا...

– انتظر، انتظر. عند الخروج ونحن لا نزال فى المصعد، أتعرف ماذا فعل أبوك ؟

إشارة الإصبع الوسطى القبيحة، إصبعه بطريقة حيوانية، ألا ترى ذلك ؟..بالله يا ريناتو لا تضحك.!

لم يستطع ريناتو مقاومة الضحك.

– ثم أخذ يقول أشياء غريبة : فمن أن دالانوتى خائن، إلا أن مثله لا يخدع كي يحجزوه في المستشفى... هذيان !... لم أصغ إليه؛ لأنى صرت.. يمكنك أن تتصورنى ! وعلى مدى الطريق إلى أن وصلنا وأنا أحاول إقناعه، لكنه لم يترك ترديد الشيء نفسه : هذا الرفأ من الداخل لم يقيم به الطبيب ئى أحشائه نفسها... "يا للوحش ! المعذرة، فلا زلت أختنق لمَّا أذكر ذلك... انظر، أعترف لك بهذا، وهو أن كل الشفقة التى كانت عندى لأبيك قد زالت.

– ولا تهمه الشفقة. يهمس ريناتو.

– بقيت ناقمة. رجل مسكين، يا للجهالة الفظة. لقد قلت لك هذا يا ريناتو : ما لم نهذب "المتزوجورنو" (الجنوب) إيطاليا لن ترفع رأسها.

ريناتو يصمت، وأندريا تسير نحو الهدوء، وتعود طبعًا إلى الشعور بالشفقة. تصبح يدها أكثر ليونة فوق شعر زوجها. نعم، تلين. تقرِّب فاها إلى أذن الرجل :

ريناتو، قل لى الحقيقة: أأنا خبيثة ؟

العناق الذى يعجبها يجيب، وزيادة خاصة بضمها فى حنان.

هل أنا لا أحسن صنعًا يا ريناتو ؟ – يضيق الصوت فى دلال – قل لى : لماذا لا يحبنى أبوك ؟

– إنه يحبك يا امرأة... فيكفيك أنك أم برونانتينو؛ كى يحبك.

– هذا ما أتمناه... من المؤكد أنه يحب الطفل. لم تكن لى فكرة عمنْ هو الجد... والطفل يعبده هو الآخر. فيكفى مرآهما يلعبان!

الآن هى التى تلجأ إلى الرجل، باحثة عن السلوى.

– أنا أحب أباك، أقسم لك بذلك. نعم ولو لم يكن ذلك إلا لحبه الغامر لابننا، بالإضافة إلى أنه أبوك. أخدمه، أحاول إرضاءه ولكنه يصعب على الأمور، اعترف بذلك... لعلمك، ذلك النبيذ الردئ الذى يخفيه وهو يضره، أسكت عنه وأتحمل.

– لم يعد يضره شىء الآن – يجييب الرجل حزينًا – لا شىء يضره أكثر من الروسكا، كما يقول هو.

– لهذا أتحمله... والأكثر ألمًا يا ريناتو – لا تظن أنى لا أعلمه – والأكثر صعوبة عندى هو أنه يسئ تربية الطفل... أى نعم، لا تقاطعنى : فدخوله كل ليلة غرفة الصغير مانعًا إياه من التعود على النوم بمفرده... لا تنكر ذلك، حتى أنت كنت هناك ورأيته... أو أنت تظن أنى غبية ؟.. كان علينا أن لا نسمح له بذلك، ولكنى أفكر فى قصر حياته الباقية وفى الآلام، فأقبل كل شىء... غير أنه كان يستطيع من جهته أن يقلل لنا الصعوبة.

يلتفت ريناتو حتى يصل إلى معانقتها، وجعلها صغيرة بين ذراعيه؛ حيث تستكن وتقبع. وبعبرة فى صوته ولو بلا دموع يصرح متأثرًا :

- أندرييا، يا أندرييتى !

يتعانقان بشدة؛ لأن الموت كان هناك فى الطرف الآخر من الممر فى منعطف الحياة. يتعانقان بقوة وتوحد بينهما اليوم الشفقة، كما فعل اللحم فى ليالٍ أخرى.

(٥١)

بينما هما يتعانقان ويسلى أحدهما الآخر، كان الشيخ يحضن بين ذراعيه بروناتينو، بعيدًا عن غرفة نوم الزوجين، فى الموقع المحصن، موقع المقاومين فى أعلى الجبل. هناك كان يكلمه بصوت خافت (فهذه الليلة لا يكتفى بالتفكير) بل هو يريد أن تنفذ كلماته فى الطفل نفاذًا أفضل. لا يدفعه الليلة ضباب التأملات، بل ضياع العمل.

- لقد اشتد الأمر يا رفيقى، فقد جرحونى وأضعت دمًا، فلعلك علمت بذلك، ولكن ها أنا قد تعافيت. عدت إلى القاعدة مصممًا على المقاومة. لا تجزع فقد مررت بأسوأ من هذا. بقى القليل، فهم يتقهقرون. سننتصر ونحتل روكاسيرا وسندخلها قبل الصيف الذى سيكون أعظم صيف. سترى عندما نستولى على غابة القسطل، تتم السيطرة على القرية ويتحقق لنا كل شىء. هم أيضًا يعرفون ذلك وقد

طلبوا النجدة... لن تجديهم ولا حتى الخيانة وهى أشد. خيانة ذلك الطبيب. لذلك عاملنى بالطيبة. أراد استمالتى عن طريق صداقته لزمبرينى. كذب. إنه خائن. فهو حفيد راعٍ وها هو سيد. هو فاشستى كالجميع. فالآن يريد إبعادى بالخداع؛ إذ إنه لم يقو علىَّ. نعم، يا بنى، يحاولون سحبى إلى مستشفى. اغتروا إن ظنوا أنى سأستسلم. أرى بكل وضوح، إذا ما حملونى على المحفة وقعت أنت فى أيديهم، ويحتلون هذا الموقع، ويعودون إلى سجنك وراء هذا الباب الملعون. ستصبح أسيرًا أيها الرفيق وأنت تعرف ما التعذيب عند الجستابو. تذكر كيف خرج المسكين لوتشيانو، بلا أظافر وأسوأ منه أولئك الذين لم يخرجوا. مساكين، منهم بيترونى الذى كتم السر كى ينجينى وينجى الفرقة، فقتلوه فى الزنزانة المجاورة لزنزانتى. لن أنسى صراخه ولا صراخك فى تلك الليلة الأولى التى أغلق فيها عليك الباب. صرخات متشابهة ولو عشت مائة عام فسيؤلمنى احتضاره، لكن لن يخدعونى، ولن أستسلم. لا أتركك وحدك ولا أسلم هذا الموقع؛ فقد أقسمت لك على ذلك. وبرونو يفى بوعده فأنت تعرف ذلك وأكثر منه يا ملاكى؛ فلا تشك فىَّ أبدًا !

يستنفد الهمس أنفاسه فيستعيدها : خسارة أن يضيع منى المستشفى، ألا ترى ذلك ؟ عملية متقنة ربحت ثمنها وهذا الطبيب هو الأحسن. تصور أنى أدفع للضمان الاجتماعى طيلة أربعين عامًا من دون أن يخصموا منى شيئًا. إنه مال ضائع يسمن به أكلة طعام

الحكومة. لم أمرض كل هذه المدة. لا شىء ولا حتى ضـرس عنـد طبيب الأسنان ولا حبة أسبرين. باستثناء رصاصة الكانتانوتى، لكـن ذلك ليس من شأن الضمان الاجتماعى، بل شأن العدالة. أستطيع الآن التمتع بالمستشفى بنُطس الأطبـاء، وممرضـات معتنيـات بـى... الممرضات أيها الرفيق، كاملات النظافة وبجوارب بيضاء. طاهرات المظهر ولكن عديمات البراءة. كلمـا عـدت مريـضًا كانـت لـه ممرضات، شىء جميل. هن يقلبنه فوق الفراش ويعانقنه كى ينهض، وهن له مستجيبات، كما أقول لك... خسارة أن أضيع كل هذا، نعـم، لكن الحرب هى الحرب. فما نحن إلا للمقاومة. إن هم طلبوا نجـدة، فليأتوا، ولكن لن يسحبونى بالكذب. سوف نرى ما يحصلون عليـه. فهذا الموقع يمكن تحسينه بما فى ذلك إعداد الانسحاب، كمـا فعـل أمبروزيو فى كهف مندرانى. فيكفى سلم من هذه النافذة؛ كى نخـرج إلى الأسفل بسهولة. أنا لا أشعر بالدوران فى المرتفعات؛ فقد شبعت من أخذ الجديان فى أعلى القمم. فكما قلت لـك : لـن يـسحبنى لا الطبيب ولا الرب.

يتأكد الصوت بعد هذا التحدى النهائى :

- أقول هذا احتياطًا وكى تطمئن. لا تزال معى أوراق كثيـرة فى كمى. لا انسحاب ولا التفكير فيه، بل بالعكس، المقاومة ثم التقدم. هنا نتحمل ولا أحد معنا، لا ممرضات ولا حتى نساء. أنا أيضًا لـى سلاحى السرى، أتعرف ذلك ؟ إن أنت احتجت إلى جـدة فـسأكونها

لك، وها أنا أتهيأ لذلك، لكن من النصف الأعلى فقط. آ. الحـذر؛ لأن القسم السفلى هو كالعادة، ولكن الأعلى... ألم تلاحظ ذلك؟ ألم تـشعر بأنى أكثر ليونة عندما آخذك بين ذراعى ؟ بعـض الليونـة، ألـيس كذلك؟ ثندؤتاى أخذتا تكبران، وسأنتهى بنهدين لك يا بنى لقـد قلـت ذلك للطبيب، وكان ذلك كل ماقلته له؛ كى لا يغتر بأنه اكتشف هـذا أيضًا. يضجره أن يرانى مستعدًا لكل شىء حتى إلى امتلاك نهـدين. من كان يظن ذلك ؟ ولكنه أخفى الأمر طبعًا فهو خـائن. قـال : "لا تشغل بالك! وأخذ يتحدث عن الهرمونات كى تهدأ الروسـكا، وهـذا يأتى للرجال إذا تناولوا أدوية النساء هـذه... تفاهـات ! فثنـدؤتاى تكبران من أجلك يا طفلى الصغير. إنهما إزهارى كرجل؛ كى، أنـا وأنت معًا، لا نحتاج إلى غيرنا. كى نستمر فى التقدم محطمين كـل أبواب الدنيا، كل الأبواب التـى تـسجن الأطفـال عـديمى الـدفاع والمساكين المستغلين. سنقضى على الجواسيس والخونة، ثـم نـدخل منتصرين روكاسيرا، وسترى ما أجمل، ذلك وما أعجبه من صيف !

(٥٢)

تطل هورتنسيا من الشرفة. لا مطر، من حسن الحظ، وشـهر أبريل يبدأ دافئًا بنسيم عليل. ترشق المرأة نظرتها فى ركـن شـارع ديلا سبيغا؛ حيث يقدم برونو ترافقه سيمونيتا؛ لأنه أول خروج لـه. هورتنسيا راغبة فى معرفة هذه الفتاة التى أشار إليها الرجـل دائمًـا بكل حماسة.

تفقد الصبر. فقد مضى وقت مُذ هاتف ريناتو معلنًا الخروج ! هاتفها قبل أيام يدعوها لزيارة الشيخ فى فراشه الذى لا يتركونه يغادره. لكن هاتفها برونو أيضًا. لكنها تعتقد أن ذلك تم فى غياب الابنين؛ كى يطلب منها عدم المجئ.

– سوف أشرح لك ذلك، لا أريد الكلام الآن، فالهاتف قد يكون مراقبًا. كونى صبورة.

سأذهب قريبًا لرؤيتك. أنا مشتاق كثيرًا.

تتذكر هورتنسيا وهى فى الشرفة محتارة هذه الكلمات الغريبة جدًّا... وأخيرًا ظهر الاثنان عند المنعطف. يا لرجة القلب ! ويا لقصر برونو منظورًا من علٍ ! يا لشراسة الدنيا وهى تقدمه هكذا إلى جانب تلك الفتاة بمشيتها النشيطة، فتظهر بالمقارنة خطى الرجل الحذرة، وهو يكاد يستعيد قواه... لكنه هو، هو نفسه ! تذهب هورتنسيا إلى المطبخ لتفتح لهما بوابة العمارة، ثم تتقدم إلى الممر منتظرة وراء الباب صوت المصعد.

وصلا !... ولما فتحت الباب فاجأت الشيخ وإصبعه فى الهواء متجهًا نحو زر الجرس، وهو فى وضعية مضحكة مأخوذة من بعض الأشرطة المبتورة فأضحكتهما. بفضل ذلك أحسنت هورتنسيا إخفاء حزنها؛ لأن الشيخ قد هزل كثيرًا هذه الأيام. لاحظت وهى تتبعه نحو القاعة أن الكتفين قد نزلتا، والسروال اتسع، وخلا من اللحم. ولكن

الوجاهة باقية فى الأقل، والرأس مرتفع لم ينحن. "وسيمونيتا ؟" تفكر المرأة... لكنها تفرح الآن لعدم صعودها : عيون لا ترى، قلب لا يتألم...

- رائع يا برونو ؛ فقد أفادتك الراحة.

- أنت هى الجميلة ! وتظهر من جديد شرارة الحياة فى النظرة الرجولية؛ فيثلج قلب هورتنسيا - وأنا. طيب أقاوم، والروسكا مختفية؛ لأنها لم تفلح بتلك العضة!... لا تشغلى بالك لا أنوى الإغماء اليوم.

-ذلك أحسن - تواصل هى المزاح - لا يعجبنى حمل الرجال على ذراعى.

- تفضلين أن نحملك نحن الرجال، آه ؟ إذن لا تتحدينى.

آه، يا برونو، يا برونو - تعبر سعيدة - يا له من سرور سماعك يا شغاب !

فعلاً، ولأن أندريا صممت على أن ترافقنى سيمونيتا، فقد أهملتها رافضًا ! تصورى، هل يجدر أن آتى إلى بيتك مرفوقًا بحضانة؟

يتوقف قليلاً وهو ينظر إليها مستطلعًا إن هى تشك أم لا. ولما اطمأن واصل :

– يريدون إجراء عمليـــة لـــى، أتعـــرفين ؟ لكـــن لا أســـمح بإجرائها.

–تجيب هورتنسيا بلا اعتقاد؛ إذ هى تعرف الحقيقة منريناتو
– "إذا كان الطبيب ينصح بذلك...

ينظر الرجل إليها مطاوعًا. هى أيضًا تقع فى شباك العدو!

– ألا تفهمين ؟ إن الطبيب قد باع نفسه يا غبيـــة. يُجْلُـــوننى، ويشجنون بروناتينو مرة أخرى. ولكن برونو ثعلب كبير فلا يهمــل حراسته.

تتظاهر هورتنسيا بأنها تعطيه الحق، ولكن تزداد حيرتها كـــل يوم لتشويهه فى الواقع. وخاصة "مواصلة الحراسة هذه" :

هل عدت هذه الليالى إلى الطفل ؟ –

لم أتخلف ولا ليلة. يقول مزهوًّا.

– أنت مجنون ! لقد وصفوا لك الراحة فلا نهوض...

إنها تهاتف نزيفًا آخر عند الفجر، فلا يشعر أحد بذلك.

– لا مجنون ولا عاقل، بل نحن نقاوم حقًّا؛ ولهـــذا أســـتريح نهارًا.

– مجنون، هذا هو أنت ! لو ذهبت لأراك لأقنعك.

– تأتين لرؤياى فى فراشى كالمريض ؟ أبدًا. لهذا هاتفتك...

– ألا تريدنى ممرضة ؟

يظهر الفرح فى عينى الرجل.

– هنا، نعم. لكن هناك مع أنونسياتا وأندريا... لا كلام. تستطيعين الذهاب الآن ؛ فهم مبتهجون بك. لقد أحبك ريناتو، ثم إنك هكذا تساعديننى. فهما يثقلان عليك وأنا أريد أن أعلم نياتهما ؛ ففى الحرب تدعو الحاجة دائمًا إلى الإخبار.

ولمَّا كتمت حركة هورتنسيا بعض الحقائق أضاف:

– هناك ترين بروناتينو.

بروناتينو هذا الاسم السحرى الذى يغير لهما الأفكار وفى مرح، مقاطعًا أحدهما الآخر، يمدحان ملاحة الطفل... يقول الشيخ : لا يكتفى الآن بدفع الكراسى، فهو يضعها مصفوفة بعناية، كل ما بها يصبح "بى!" ويلعب القطار الذى رآه فى الإذاعة المرئية... إنه يقلب البيت كله؛ مما يبعث اليأس فى أنونسياتا، لكنه لم يقل مع الأسف حتى الآن "نونو" (جدى)... ولو يبقَ لذلك الطثير ؛ فهو يرطن أكثر فأكثر !

فى هذا الجو المفعم بالسرور، يقبل الرجل تناول كأس.

– لكن من النبيذ ؛ لأن "الغرابا" يجب أن أحتاط لنفسى منهـــا ؛ تحسبًا لما عسى أن يأتى من صعاب الأيام... إنه لذيذ – يتذوق بعـــد ذلك – لكنه ليس نبيذى الذى بالبيت، فهو بلا مـــواد كيميائيـــة. إنـــه خالص صافٍ : عنب وعمل وزمن.

يتردد ثم يقرر.

– لا بد أن تذوقيه هناك فى روكاسيرا ! يا للقوة التى يعطيهـــا. فذلك النبيذ مع الجبن والزيتون يكفى للعيش... هل يعجبك الذهاب إلـــى هناك ؟ لا تتخيلى كثيرًا. إنها قرية صغيرة بلا نزوات كثيرة، كما هى الحال هنا، لكن بأشياء كثيرة الجمال !... يذهب النظـــر إلـــى البعيـــد، والحياة أعظم، وتبدأ مبكرًا كل يوم ! ستعجبك بلا شك ! قولى: نعم .

– بروحى وحياتى ومتى شئت !

مرحى !... سترين أى صيف سيكون، أنا وأنت وبرنـــاتينو... سأعلمه الجرى ورمى الحجارة وعـــدم الخـــوف مـــن جـــدى و... الخلاصة أعلمه كيف يكون رجلاً، هذا هو!... أنت...

– أنا ماذا ؟ تبتسم مازحة: أن أكون امرأة ؟

– لا تكذبى، ليس هذا..أنا أعرف ما أفكر وأنت تفهميننى...

– تفهمه وتترجم قائلة : من المؤكد أنى أفهمك. أنا أعلمه كيف نتمنى أن يكون الرجال.

– هذا هو. أرأيت ؟ تصيبين دائمًا.

ولو أننا لا نقوله أبدًا؛ لأننا نريد أن تتنبأوا، ولكنكم غير قادرين... نعم سأعلمه كيف يتوقع رغباتنا، وهكذا يكون أكثر رجولة بكثير.

– آى يا هورتنسيا، يا هورتنسيا ! لم يسعدنى الحظ فتعلمينى.

لكن تتذكر هورتنسيا نفسها وهى شابة :

– إذذاك لم أكن أعرف أنا أيضًا... لنعدل عن التشكى يا برونو. لو التقينا قبل الآن، لكننا قليلو النضج، كلانا للآخر أترى أن ما لدينا قليل ؟ فلا أحد تقريبًا ينال في هذه الحياة. لا فى سننا، ولا فى سن الشباب... لا أحد تقريبًا.

إن كان يراه قليلاً، فهذه الكلمات، وقد قيلت بكل الحقيقة – الواحد للآخر – لها طعم فيض العواطف؛ لأنه يفهمها أيضًا بمعنى "الواحد جنب الآخر" : لا مجابهًا للمرأة كما وضع نفسه دائمًا، بل إلى جانبها... "الزوجان الأتروريان"، يتذكرهما فجأة نتيجة انفجار داخلى.

تواصل هى الكلام.

لم أكن أستطيع تعليمك؛ لأنى لم أكن أعرف. لأنهم كانوا يخدعوننا، وفِي زماننا خداعهم أكثر. كنت فتاة صغيرة أقرأ القصص عند الحفافة أنِى كنت أعمل، وكنت أرى أبطال السينما، وهكذا بهرنى أول قليل حياء عرفت فيه: توماسو.

يبقى الشيخ مبهوتًا لسماعها. قليل حياء ذلك الملاح لَسِن !

– نعم . هو وغد ! هذه هى الكلمة المناسبة. ولكنه لَسِن ماهر. تعلق بالفتاة الصغيرة، فأفقدنى عقلى. كان ذلك سهلاً... كانت الجنة فى البداية، فى ذلك السطح بالبندقية؛ حيث كنت أغنى كالعصفور أمام برج الناقوس، ولكن لم يدم طويلاً... كان كسولاً وقوادًا. كان يربح من الأمريكانيات العجائز، أكثر مما يربح من تحريك مجذاف الجندول، ثم يصرف ما يربحه على أخريات شابات... وفى النهاية، المنحدر. جعل يسكر، وكان علىَّ العناية به أشهرًا وأعوامًا، وانظر العجب. ولما لم يعد قادرًا بنفسه، كنت أتسلى بالعناية به... لا تفسير لذلك، ولكن هذا ما كان. لقد تعلمت كثيرًا من كل ذلك. فحتى الآن لا أفهمه، ولكنى أراه طبيعيًا... فما الذى كانت تستطيع تعليمك إياه تلك الطفلة الجاهلة ؟

يتروى الشيخ ويفكر : "تلك لا تستطيع ما أنت فاعلة الآن إياه، وأنت تروين علىَّ حياتك الحقيقية، ومعلمة إياى كيف يجب الاستسلام من دون الاحتفاظ بأية ورقة.." ويجيبها :

– أنت على حق. أنت دومًا على حق... أنا كنت أسعد حظًّا. لم أقع فى تلك الحبائل؛ لأنى تعلمت من الحيوانات، وهى قليلة الخداع. لكن كبرت بلا معلم.

– ولا حتى دونكا ؟ تجرأت هورتنسيا على التحدى.

ولا حتى دونكا – يعترف الرجل فتفرح هي – هذا مع أنها كانت شيئًا مختلفًا.

ها قد أخذت الخطوة النهائية، فالذكرى لم تعد حنينًا، بل أضحت تحررًا. فهي تعرف أنها ستستمع إليه وتتمنى ذلك ولو آلمها.

– كانت مختلفة إلى درجة أنها كانت عازفة بيانو. ألم أقل لك هذا من قبل ؟.. عازفة بيانو، ولماذا ؟ فهو لا يصلح ولا لفرق موسيقى الأعياد. لكنها كانت تعيش من ذلك هنالك في بلادها، كرواتيا." في الجانب الآخر" هكذا كانت تقول وتشير، ونحن على الشاطئ نحو ساحل لم نكن نراه. كانت تقول باكية :" ريبكا منزلي. هل أعود فأراه ثانية ؟"... إنها كانت في المقاومة بدافع الوطنية. أتفهمين ذلك ؟ يا للشقاوة ! واضح أنها كانت تقول لا غير. لكنها دخلت المقاومة؛ لأنها كانت أنثى بحق، بدمها وشجاعتها!... كم كنا نتشاجر. كانت تناديني حيوانًا "حيوانها البديع". بهذا اللفظ نفسه؛ لأنها كانت تتكلم بألفاظ كهذه، كانت آنسة رقيقة.

هورتنسيا تتخيل ما لا يحكيه الرجل؛ لأنه لم يصل وإلى الشعور به على الرغم من أنه عاشه : هو هدية الحياة الرائعة التي قدمها لعازفة البيانو الرقيقة، مقدمًا لها اكتشاف النمر في الحب، والذئب والحصان... تتنهد هورتنسيا وهي تنظر إلى اليدين الناشزتي العظام بعروقها منتفخة، واللتين كانتا إعصارًا ولا تزالان عاطفيتين عند الملاطفة...

- كم وكيف كانت تغضب ؟! كانت تصيح فى : "أحتملك من أجل البيانو فقط". قضت مدة من دون أن تعزف. ثم هناك فى البيت وجدت بيانو من ذلك النوع المطروح الطويل. كانت تقضى اليوم عازفة موسيقى غربية.. طيب، هذا إذا تركتها أنا، لأنى سريعًا ما أضجر فأرمى بها على كتفى لآخذها إلى الطابق العلوى. كانت غرفتنا تفتح على سطح؛ فتستطيع هناك شربى على ظهرى وضرب الأرض برجليها على السلم لكنها لا تلفت، لا.

نعم. تفهم هورتنسيا دونكا وهى تهدد بالذهاب، بصدق ولو بعدم تنفيذ. لا تود أن تحب أو بالعكس، فهى تجلس أمام البيانو لترغمه على إجبارها. "موسيقى "باخ "لتغطية" تفكر وهى تضع ابتسامة فوق النهم المؤلم الذى تستمع به.

- ملعون البيانو !.. لو كان رجلاً بدل هذه الآلة الغالية جدًّا لحطمته. بشرفى. أمر البيانو هذا قد يصلح لدافيد الذى كان يفهم ذلك. ولكنه لم يكن يصلح لدونكا، ولو للبداية. فهى فى الطابق العلوى لم تكن تتعب أبدًا، وتنسى حتى البيانو. مسكين دافيد... شجاع كالقليلين. أى نعم. لكن من الذكورة لا شىء لم يكن يخالط أية واحدة لما كانت تسنح لنا الفرصة. كان رجل كتب ولديه كتاب بالعبرية لم يكن ينفك عن قراءته، ولعله من ذلك كان حسير النظر... لما أخبرت دونكا بموته، بكت يائسة. كانت تدين نفسها بعد استطاعتها محبته، كما لو كان الحب يحكم فيه. ثم غضبت عنى. كم من أشياء كانت تسيرها

إليَّ." وقعت فى حبك أنت القروى، الوحش الذى لا يقـدم ولا حتـى على الاغتسال. "كان هذا هوسًا آخر لها تغتسل دائمًا قبل وبعد، حتى أنها تنزل البحر ليلاً غير خائفة من الماء شديد السواد وعندما تـدخل حوض الحمام قبل ذلك، كنت أضجر من انتظارها وأنتصب عاريًـا فى تلك الغرفة المملوءة بالمرايا. كنت أصيح بها "اخرجى من هناك، انظرى حالى !" كانت تنظر إلىَّ فترانى على وشك السقوط؛ فتغـرق فى الضحك مشيرة بإصبعها. كيف كانت تضحك وكم تضحك وكـم فيها من حيوية. كم... كانت... لا أدرى. أجمة تلتهب!

تتخيل هورتنسيا ذلك الجسد، جسد فتاة غاطسًا فى الحـوض، والمرايا تحيط بها فتضاعف رجولة النمر الباهر فـى قلـة صـبره القوية... وفجأة تلاحظ توتر الصمت فى أى شيء عثر علـى سـيل الذكريات. أية صخرة يجب أن تتحداها هذه الميـاه المخزونـة كـى تتحرر كليًّا ؟ أصبح الصوت وهو يستأنف سيرة بطيئًا ورصينًا.

– تعافيت فانتهت ريمينى. أعادوا إرسالى إلى الجبـل... أمَّـا هى فقد قبض عليها الألمان فى المدينة. يبدو أنهـم أرسـلوها إلـى كرواتيا، وهناك سلموها إلى أيدى "الأوستاشى" (الروس) ولم يـسمع عنها بعد ذلك شيء.

ترفض الآن هورتنسيا تخيلها بين الجلادين، فهى عازفة البيانو بمدفعها الرشاش: الأجمة الملتهبة، كما قال هو... تلاحـظ فجـأة أن

كأس النبيذ لا تزال فى منتصفها، فتحزن. قبل إصابته بالنزيف، كان يفرغ كأسه فى جرعة واحدة. وكما لو أنه تعلم تَكَهُّنَ ما بها، شــرب الرجل النبيذ فى جرعة واحدة، وهو لا يزال يلازم الصمت. ثم قــال فى النهاية:

– لم يبقَ الآن كى تعرفينى معرفة كاملة؛ إلا أن تــأتى إلـــى روكاسيرا، فى أرضى أظهر كما أنا.. ففى الصيف إذن، لقد وعدتنى بذلك.

– سأذهب طبعًا، فأنا أيضًا من الجنوب !

– نعم، ولكن من الجانب الآخر، من البحر الآخر.

– إنه أحسن من بحرك!... انتظر حتى أمالفى، فماذا ظننــت نفسك؟

يضحكان، وفجأة تبرز فكرة لدى الشيخ :

– اسمعى ! أتعرفين لماذا عضتنى الروسكا تلك العضة هنــا فى بيتك ؟... لأنها كانت تغار، نعم، هذا هو، كانت غائرة !

ينظر إليها فيرى ظلاً فى هاتين العينين، فيخمن ما بهــا مــرة أخرى فيدقق :

منك أنت يا هورتنسيا. غارت منك.

"تخرج دونكا وتدخل هورتنسيا" وتفهم المرأة ذلك، وهى تمد يديها لتستقبل اليديْن الأخريين الممدودتين نحوها :

- الآن فقط أستطيع تعليمك... قد تعرف أنت الكثير عن الحروب وعن المروءات، لكن عن هذا لا شيء... استسلم، ففى هذا الأمر - نحن النساء - أعرف منكم.

- وما هذا ؟. يهمس الرجل.

لكن وإن كان قد تأخر هذه المرة فى التكهن، فهو لا يحتاج إلى سماع الجواب؛ كى يشعر مختطفًا فى الهواء نحو أعلى قمة من جبله.

(٥٣)

تهاتف أندريا هورتنسيا :

- متى يمكننا اللقاء حيث شئت ؟ فأنا مشتاقة للتعرف إليك، ولشكرك على أشياء كثيرة.

تلاحظ هورتنسيا صدقًا واستقامة فى هذا الصوت العذب، ولو أنه يعبر بدقة مهنية متناهية.

- ليس ثمة ما يستوجب الشكر، ولكنى مشتاقة، أيضًا لرؤياك. أفضل الذهاب إلى منزلك، وهكذا أرى بروناتينو.

– ولم لا يكون ذلك هذا المساء ؟ فحموى سيذهب إلى المعهد بالجامعة لأداء المحاضرة الأخيرة من الدورة. سنكون لوحدنا، وسنرى ما قد نصنع به.

"هذه المرأة لها نيات حسنة – تفكر هورتنسيا وهى تضع السماعة – غير أنى لو كنت مكانها لقلت : "تفعل من أجله بدل "به". لكن واضح أن الأمر عندها مغاير."

تستقبل أندرييا هورتنسيا. تتبادلان القبل والمجاملات وتدخلان. وفى أثناء المجاملة "سأعلق معطفك" ويا لها من قاعة مهيبة. لم تكن الواحدة منهما تتصور الأخرى كما هى، ومع هذا فقد فهمت كل واحدة من الاثنتين أن "الأخرى" يجب أن تكون كما تراها الآن.

بعد قليل، يطل الملك الصغير صارخاً ومتقدمًا بثبات. تجده هورتنسيا جميلاً جدًّا بذلك الحذاء الذى اختارته بنفسها، مع جواربه وصداره الأحمر... لكن يا إلهى، ماذا شرب ؟ ففمه يزبد !

تنزعجان لحظة، ولكن يتضح لهما أنه صابون. تشرح أندرييا أنه تعود الآن الصعود على كرسى الحمام قرب الحوض، وفتح الصنبور واللعب بقطعة الصابون... لعله ترك الصنبور مفتوحًا، هذا مؤكد.

– آه، يا صعلوك. ألم أقل لك ألا تفعل هذا ؟ تجريان إلى الحمام وتغلقان الصنبور، والأم تؤنب بروناتينو الذى يرد الفعل بملامح ماكرة، كمن عاد من ساحة معركة ضروس. أما هما

فتضحكان فى النهاية وينقلب كل شىء أعيادًا إلى الطفل. فـــى هــذه الأثناء، تواصل المرأتان التفحص. هورتنسيا يعجبها تــسريح شــعر أندريا : خاص وبسيط وملائم لوجهها. وأندريا تثنى علـــى فــستان على الرغم مما يعيبه، ويا للأسف، ذلك القارب الفضى المشدود على الصدر فهو يشبه كثيرًا "الــسوفينير" (التــذكار) الخــاص بالــسياح. هورتنسيا تفاجئ بالنظرة.

– أهدانيه هو – تعتذر وتدافع – أندريا تفهمها : هذه المــرأة ذات كياسة.

فى طريقهما إلى القاعة، يشد باب مفتوح نظر هورتنسيا.

– إنها غرفته – تؤكد أندريا مضيفة اعتذارًا – صدقينى إنــه لا يوافق على أن ترتيبها له خير من ذلك، وهذا الدثار القديم لا بد أن يبقى دائمًا فوق فراشه. إن لـــه مـــن العـــادات الغربيـــة...! تـــدخل هورتنسيا متأثرة. هذا الدثار هو من دون شك ما يملأ الغرفة برائحة الشيخ. تنحنى وتمسح بحنان صوف الدثار بنى اللون كالقبعة. تنظـــر حولها وتفكر : "هناك فى الخلف يخفى مؤونته، وفى هــذه الخزانـــة يحفظ موساه، وفى الدرج تحت الورق الحريرى المفروش فى القـــاع يحتفظ بالصورة التى التقطت لنا معًا فى الشارع عشية فرجتنا علـــى "المنوعات". كل هذا أحصته فى نظرة قبل أن تخرج مفكـــرة. إنهـــا زنزانة متعبد ومقاوم ورجل، وتمنت لـــو تركـــت هنـــاك عطرهـــا الأنثوى.

تفهم أندرييا كامل معنى تلك اليد، وهى تلامس الدثار القديم وتفكر. "ريناتو لم يشرحه لى جيدًا، أو أنه لا يعرف كيف يرى هذه المرأة... فالرجال كثيرو البلادة دومًا ! "وفى الممر، تمسك بذراع هورتنسيا فى تضامن أنثوى، وتضغط عليه برهة وهما فى اتجاه القاعة، وتقترح التخاطب من دون مجاملة.

تتحدثان والطفل يلعب جاذبًا ومصففًا الكراسى. تجهد أندرييا نفسها فى إفهام هورتنسيا إلى أية درجة تحاول إرضاء الشيخ، لكن...

– مهما صنعت لا أفلح أبدًا... حتى أنى أحتمل بقاءه فى غرفة الطفل ليلاً، خلافًا لما أوصى به طبيب الأطفال وهو أحسن واحد فى ميلانو.

تحاول هورتنسيا الاعتذار للرجل.

– نحن فى الجنوب نكوِّن نوعًا آخر من العائلات كما تعرفين.

تترك فى لهجتها ما يفهم بأنها وإن كانت جنوبية، فهى تتفهم موقف أندرييا. وهذه الأخيرة تستمتع بدورها إلى قلق هورتنسيا.

– إن لبرونو أحيانًا حالاتٍ... لا أدرى، أهذيان هذا أو شىء شبيه بذلك. يكاد إنه يتكلم كما لو أن الحرب مستمرة، كما لو كنا فى عام ثلاثة وأربعين.

- إلى مَنْ تقولين هذا ؟ - تنفجر أندريا وقد استغربت من تسمية هذه حماها ببرونو - لو تعرفين المشكلة التى أثارها لى أول أمس. اسمى، إن آنونسياتا لا تنتهى من العلاج (هذه المرأة تشكو شيئًا لم يفلح الأطباء فى معرفته) وسمونيتا لها امتحانات فلجأت إلى وكالتى العادية التى أرسلت لى طالبة نمساوية تود تحسين لغتها الإيطالية؛ كى تتخصص فى أعمال المنزل... أعجبتنى الفتاه بمظهرها الجدى ولباسها غير الفاضح، وأنت تعرفين كيف يلبسن الآن بما فيهن سيمونيتا أحيانًا... إذن، كنا - نحن الاثنتين - فى المطبخ، وكنت أشرح لها ما عليها عمله، وإذا بحمى يطل من الباب، وما إن سمعها تتكلم حتى غاب. فتعجبت وأنا أسمعه يغلق غرفة الطفل النائم تمامًا، ولكنى لم أعرف ذلك اهتمامًا. جلست الفتاة لتغير الحذاء بخف أتت به وتلبس الطيلسان، وأنا رتبت نفسى كى أذهب لإلقاء دروسى...

تتوقف قليلاً؛ لأن الحكاية بلغت قمتها :

انظرى يا هورتنسيا ! أراد حسن الحظ أن يكون المصعد عاطلاً وأنا من دون أن أنتبه إلى ذلك انتظرت قليلاً فى بسطة السلم حتى المصعد. لو ذهبت نازلة السلم أو أخذت مصعد الخدم لانتهينا جميعًا فى مركز الشرطة !.. الواقع ما أحكيه لك : كنت هناك منتظرة وإذا بى أسمع الفتاة تصيح طالبة النجدة بينما حموى يقول : "خائنة، جاسوسة، الآن سترين!" وأنا، من فرط الجزع، لم أفلح فى

وضع المفتاح فى ثقبه... "النجدة، إنهم يغتصبوننى !" تـصيح الفتـاة بالألمانية... وأخيرًا فتحت. كانت الفتاة تهرع إلى البـاب وحـذاؤها فردة منه ملبوسة، والأخرى بيدها وأمامها حموى صـارخ ثـائر... عانقتنى الفتاة حانقـة وشـرحت لـى : "أراد اغتـصابى، وعينـاه جاحظتان، إنه ماجن، ماجن!..." هذا بينما حمـوى يـشتمنى لقبـول جواسيس ألمان فى البيت... وقفت بين الاثنين كى تهدأ الفتـاة التـى كانت تبكى على كتفى : "هذه المرة الثانية – كانت تقـول – هـذه المرة الثانية. كل الإيطاليين سواسية لا يفكرون فى شىء آخـر... لكن الأول فى الأقل، فتى !"

تبتسم هورتنسيا متسلية، بينما تستعيد أندرييا أنفاسها.

– نعم، الأمر ممتع الآن، ولكنى قضيت برهـة مـشؤومة... وفى النهاية، تقهقر حموى عبر الممر وأفلحت فى تهدئة الفتاة بفضل مخاطبتها بالألمانية. لبست الفردة الأخرى من الحذاء، وذهبت بأجرة يومها كاملة قائلة بأنها احترامًا لى لن تشكوه إلى السلطة... خرجـت معها أمام البيت وحاولت إقناعها بالواقع شارحة لها مـشكلة حمـى، ولكن من دون جدوى. وفى أثناء انتظارها المصعد الآخر قالت لى : "إنهما نهداى يا سيدتى، أعرف ذلك، فهم يحبون النهود الكبيرة لـدى الفتيات؛ فذلك يثيرهم، ولا يـستطيعون مقاومتـه..." تـصورى يـا هورتنسيا، فهى، فى النهاية، فخورة على ما أظن... ما أغرب هـذه الأفكار، أليس كذلك؟ إنى لا أفهم هذا... وبعد ذلك، لما عدت ودخلت

وأردت التحدث إلى الجد أجابنى باحتقار، "لا تفهمى شيئًا يا أنــدرييا. ألا تشعرين بما يجرى فى هذا البلد ؟ " ودخل غرفته.

أندرييا تتنهد وهورتنسيا تشفق عليها بصدق. "كيف يمكــن أن يتفاهم ؟"

– والطفل ؟. تسأل.

– أتصدقين أنه على الرغم من كل الضوضاء وكثرة الصياح، فإنه استمر فى نومه فى كامــل الهــدوء ؟ تبتــسم أنــدرييا وتقــول هورتنسيا وهى تنظر إلى ربروناتينو صاعدًا فوق أحــد الكراســى، محاولاً الوصول إلى رتاج النافذة :

– إنه كنز.

– النافذة لا !.. تمنعه أندرييا وتنهض لإبعاد الخطر.

– نو، نو، يقلدها الطفل صائحًا، ويتبع ذلك برش مقاطع خالية من المعنى.

– إنه كنز، نعم – تكرر أندرييا – ولكنه أنهكنا جميعًا.

تؤكد هورتنسيا أن ذلك مرجعه العمر وتعترف أندرييا بــذلك، وتقترح على هورتنسيا تناول قهوة فتذهبان مع الطفل إلــى المطــبخ لتناول المشروب الحديث الإعداد هناك، فتتبادلان الآراء حــول آلــة إعداد القهوة عند كل منهما، فتشير هورتنسيا إلى متجر فــى الحــى

أسعاره أرخص؛ فتشكرها أندريبا ولو أنها لا تنوى طبعًا الذهاب إليه. يطبق على إصبع بروناتينو باب الخزانة ؛حيث كان يشاغب فيطلـــق صيحات مؤثرة؛ فتأخذانه مرة أخرى إلى الحمـــام، كـــى تبـــردا لـــه الرضعة بالماء، ثم تدللاه وتحتفلا به...

إن المرأتيْن على الرغم من اختلافهما متفاهمتـــان، وكلتاهمـــا تفكر التفكير نفسه : أندريبا فى هذا الشيخ الذى يمكن أن يكون خطرًا جنسيًّا على فتاة، وفى الوقت نفسه يثير كل هذا الحنان فى هذه المرأة التى تلامس الدثار القديم. وهورتنسيا فى هذا الرجل الـــذى أعطـــى جسده للدثار شكلاً ؛فجعل منه رفيق حياته.

تفكر فى برونو وهى خارجة من المـــصعد فتعطيـــه الحـــق وتتذمر :

– يا رب، لِمَ لم أكن الوحيدة مُذ البداية ؟ لِمَ لم أعش معه أيامه فى ريمينى ؟ لماذا لم أعرفه قبل الآن، قبل كل شىء، فـــى مـــستهل حياتنا ؟

لكن وهى فى الشارع وقد تقدمت مسافة، مرت بالحديقة حيث التقيا؛ فتذكرت الحدث.

"لولا ذلك لمررنا، كل فى طريقه، جنبًا إلى جنب". تقول ذلـــك لنفسها وهى تبتسم، وتشكر القديس سان فرانشـــسكو علـــى وجـــود السيارات التى تلطخ باحتقار الراجلين الذين تكون معهم عربة طفـــل صغيرة.

(٥٤)

إن الرجل الذى تفكر فيه المرأتان، كان آنذاك يحضر نقاشًا بين الأستاذ بوونكونتونى وضيف من مونيخ هو الأستاذ بامبرغر. فهذا الأخير يؤكد أن مفتاح السلوك البشرى يراه علم النفس وهو علم الروح، مركز الاندفاعات والعقلانية والذاكرة والشخصية.. بدأ بوونكونتونى مخالفًا بشىء من المجاملة، ولكن تشبث الألمانى أغاظه شيئًا فشيئًا إلى أن ثار كلاهما فقال :

– انظر يا دكتور، إن هذا النقاش لا معنى له، علم النفس لا وجود له. إنه مثل علم الأديان وهو تضاد مفردات؛ لأنه من الغباء تعقل الإله. فمجرد محاولة ذلك، دليل على التشامخ الإكليروسكى.

– لا يوجد علم النفس ؟ – يجأر الألمانى – كيف تجرؤ يا أستاذ ؟ إذن فأنا أستاذ ماذا ؟

– طيب ! هو موجود كبنية أو تركيبة فكرية، ولكنه لا يطابق شيئًا باستثناء مطابقته تخيلاً آخر : هو الروح. وبلغة أوضح – يلمح مغتنمًا احتقان التوتونى (الألمانى) الذى يمنعه من الإجابة، كل ما هو عضوى فى السلوك البشرى هو اجتماعى. بمعنى أن ما لا يشرحه علم التناسل والوراثة، ولا يشرحه علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) يشرحه علم الاجتماع. أى نعم يا سيدى – يواصل مهاجمًا بقوة كأنه يطلق النار – إن تصرفاتنا هى عناصر الوراثة

(الجينات) وإفراز الغدة الكظرية [الإدرينـــالين] إلـــخ... ممزوجـــة بالتربية والشروط الاجتماعية. لا شيء غير هذا علـــى الـــرغم مـــن الكتب التى تصف علم النفس.

– لكن الروح يا سيدى، الروح، "دى تزيلى" يمنعه – الهيـــاج من مواصلة النقاش... أنت جاهل يا أستاذ، جاهل حقير !

يتبع ذلك سيل من الكلمات بالألمانية؛ لأن البافـــارى لا يـــتقن السُباب بالإيطالية. تنتفخ عروق عنقه وتمـــسك أصـــابعه بالمنـــضدة وتخون شجاعة الجسد، شارب الجعة هـــذا. وأمامـــه بوونكونتـــونى بشعره الأبيض غير الممشوط، وفى شكل هالة يمد عنقه ويطيل قامته القصيرة، كأنه ديك مصارع.

أما الشيخ فهو يقضى أمتع وقت، وهو يرى الألمـــانى يتـــألم فيفكر ويوغل فى التأمل: "سيقتتلان الآن. لكن يـــضرب المـــونيخى المنضدة بقبضة يده، ويطلق سلسلة من الكلمات الألمانيـــة ويخـــرج ثائرًا مطبقًا على الباب.

– ماذا قال ؟ يسأل الشيخ بصوت منخفض. غائط هى الجامعة الإيطالية. يترجم له مبتسمًا أحد مساعدى بوونكونتونى – ويـــضيف بإعجاب – فى كلمة واحدة !

"لا يخرج له أحد يحطم له فمه ؟ – يتعجب الشيخ وهو مفعـــم بالاحتقار – تف ! فمع هؤلاء الميلانيين لا ينفع شيء."

إن أصل هذا الشجار هو تسجيل الشيخ. فقد تحـــدث لهـــم أولاً عن الأطفال المهملين فى الريف من طرف أوليائهم، وهناك تـــربيهم الشياه ؛ فقلوبها أحن. أما هم فقد ربطوا قصته بحالات أخرى عتيقـــة كقصة ماعز شهيرة أسموها آماديا حسب فهم الشيخ. ثم حكى عـــن أعياد روكاسيرا واحتفالاتها والخصومات من أجـــل حمـــل ســـرير القديسة كيارا، وقد لفت انتباههم كثيرًا "شيرا فيليبكو" الذى سمى بـــه الموسى. ومن هنا تحول النقاش إلى العدوانية البـــشرية الحيوانيـــة؛ فاشتبك الأستاذان حول مفتاح السلوك.

لكن لم يقع شيء طبعًا؛ فالناس فى ميلانـــو كالأطفـــال غيـــر قادرين على تبادل الـــضرب كالرجـــال. يأســـف الـــشيخ للأســـتاذ بوونكونتونى الذى استلطفه، ثم إنه يراه على حـــق مـــن دون شـــك. فالآخر يكذب ولا جدال فى هذا الألمانى، وفوق هذا فنكران الـــروح يناسب الشيخ؛ لأنه فى هذه الحالة لا دور للقساوسة... لكن الحصول على الحق شيء، أما تحمل سُباب الألمانى فهو شيء آخـــر مخـــالف كلية. يغضب. لو كانت الدكتورة روسى هنـــا، التـــى لـــم تـــستطع الحضور، لخرج هو نفسه وراء المعتدى ليأخذ منـــه ثـــأر الـــشرف الإيطالى أمام المرأة. لكن هو فى حاجة، فى الأقل، إلـــى التـــصريح بذلك.

– ألا يوجد هنا؟ يجرى الدم فى عروقه. يفصح ناظرًا حوله – أيرعب ألمانيٌّ واحدٌ كلَّ هؤلاء الأساتذة؟... كم كنت أود أن أراكم فى

الجبهة ! لكن واضح أن لا أحد كان يذهب إليها. الجميع يكمنون في المؤخرة مع كتبهم وأوراقهم !

– أنا قاومت. يجيب بوونكونتوني بهدوء.

– أنت يا أستاذ ؟ يسأل متذكرًا في الوقت نفسه الأستاذ الذي كان معهم في الفرقة هناك في سيلا.

يحل بوونكونتوني أربته الفراشة ويفتح قميصه، ويعرض أثر جرح طويل يمتد من الرقبة إلى الثندؤة.

– مقاوم في فال داووستا وبالسلاح الأبيض.

– معذرة أيها الرفيق. هذا كلام آخر.

يشرحون له أن الألماني المهان قد لقي ما يكفيه من الإفحام، وهكذا تنتهي بسلام آخر حصة للدورة. يودعون الشيخ جميعهم بكل حنان : "إلى السنة القادمة يا الكالابري، يرددون جميعًا؛ لأن القسم أصبح قسم الكلابري. يصافح الشيخ الأيدي مفتخرًا.

يأخذه بوونكونتوني إلى مكتبه صحبة فاليريو، ويريه صور مقاومين من فال داووستا.

"كانوا مثلنا – يفكر الشيخ – إلا أنهم بثياب كبيرة على ظهورهم وبأسلحة أحسن. هؤلاء الشماليون يلعبون دائمًا بالأوراق المربحة !" لكن رؤية تلك المناظر تثير ذهنه، فتتخذ عيناه تعبيرًا غريبًا.

– وكيف وصلت إلى هنا ؟ لماذا لم تقع فى أيدى الجستابو ؟

–ألعب بورقتيْن – يجيب بوونكونتونى فى غموض، وهو يعرف من فاليريو خلل عقل الشيخ – فالعدو يجب خداعه أيها الرفيق.

إن الجملة تؤثر فى الشيخ ؛ فيقرر تقديم اعتراف ساوره دومًا ليحرر ضميره.

–هذه حقيقة. يجب خداع العدو، لكن لا خداع الصديق... يجب أن أقول لك... أنا لم أسلك سلوكًا حسنًا أيها الرفيق، وأعتذر لذلك. فقد بالغت أحيانًا فى حكايتى... أعنى قليلاً، فلم يكن هذا خداعًا. لا، بل مزاح، كما لو شرب المرء كأسًا زائدة عن الحاجة... أريد أن تعرف ذلك.. لا تحملوا محمل الجد كل ما قلت.

ينظر إليه بوونكونتونى باحترام.

مرحى لإخلاصلك ! لكن، لم كنت تخترع ؟ ليس ذلك من أجل حفنة الليرات.

– من أجل المال ؟ أنا أملك أراضى وغنمًا أكثر منك.

– هذا مؤكد ! فأنا لا أملك شيئًا... إذن.

– كان يعجبنى كثيرًا الحديث عن الجبل، عن البلاد! لا يهم هذا أحدًا من ميلانو... ثم إنى كنت متمتعًا برفقتكم... أشكركم على هذه الأوقات وإن أردتم، رددت لكم المال.

– إنك أحسنت ربحه ! صدقني... انظر، أنا بدوري لي اعتراف وهو أني لاحظت بعض مبالغتك وشككت في أنها أخطاء... لكن اختراعاتك هي أيضًا وثائق في علم طبائع الإنسان، وهي تهمنا لندرس كيف يفكر أحد من زمانك ومنطقتك.

كان الشيخ مندهشًا وانتهى ساخطًا ؛ فنهض في حركة عدوانية:

– كان الألماني مصيبًا : فهذه جامعة غائط... تركتموني أتكلم لتهزأوا. أفعلت أنت هذا مع رفيق ؟... الآن أفهم لعبك على حبلين. تفعل ذلك ضدي وأنت مع الفاشستيين.

ينهض بوونكونتوني بدوره.

– اهدأ أيها الرفيق : أقسم لك أنك مخطئ. كنا نستمع إليك وسنستمع إلى تسجيلاتك كي نتعلم. فمن الروايات المعروفة تهمنا بالذات تغييراتك الشخصية. وهكذا عندما كنت تتحدث عن كنز في نهر ربطناه بدفن ألاريكو وصناديقه تحت قعر نهر بوسنتو. وهل تعرف من هو الكارومانغو في تسجيلك قبل الأخير ؟ ليس هو سوى شارمانيو الإمبراطور. أما في ما يتعلق باختراعاتك الحرة، فهي تعكس ثقافتك لا أقل من ذلك. نعم.. أيها الرفيق، لما يتحدث رجل في مثل مقامك، فمهما قال فقوله تراث شعب.

يشعر الشيخ بأن هذه الكلمات تعبر عن شيء كبير، لكنه باقٍ على ريبته من ميلانو وأهلها.

– أنتم تحسنون الكلام يا كتاب الأوراق : هر، هر، هر، هر، مثل السياسيين... لكن لا يهزأ بي أحد.

– أتريد برهانًا على قيمة وثائقك عندنا؟ سأعطيكه يا فرليني، أين نحتفظ بتسجيلات رونكوني ؟

– مع وثائق توريدو وهو من كالتشيناتو.

يتأثر الشيخ. توريدو، أشهر مرتجل شعبي في كل كالابريا. الرجل الذي تردد أشعاره وأغانيه من قرية إلى قرية.

– أحقًا هذا ؟ يبتسم فخورًا ومقتنعًا.

يوافق بوونكونتوني.

– أتينا به خلال السنة الدراسية الماضية ليسجل... ثم، من يعرف أيها الرفيق كيف يميزبين ما هو صحيح، وما هو غير ذلك من دون أن يخطئ ؟

– مهلاً ! لا أجاريك في هذا. أنا أميز، ألاحظه. إني أرى عربة يريدون بيعي إياها أو عيني شخص، فأشعر إن كانوا يخدعونني أم لا. فالحقيقة تلمس. أنا ألمسها.

ينظر إليه بوونكونتوني بارتياب عجيب.

– أتعتقد ذلك ؟ – يسأل متهكمًا – قلْ شيئًا. هو، في الحقيقة، لا يعتريها أدنى شك، قلْ شيئًا لا نقاش فيه.

يبرز الجواب منفجرًا :

طفل ! – ثم يؤكد واثقًا – نعم، طفل !

يتروى بوونكونتونى، وينتهى ضاحكًا فى حزن.

– أنت على صواب... بما أنى لم أنجب... انظر، يسرنى أنك قلته؛ لأنه هكذا سيعجبك أكثر التذكار الذى أعددناه لك. يقوم بحركة فيناوله فاليريو ظرفًا به أحد أشرطة تلك الآلة التى سجلوا بها.

– إنها كلماتك فى اليوم الأول أيها الصديق رونكونى – يقول الأستاذ وهو يقدم له الظرف – هذا لحفيدك الصغير.

"لبروناتينو ! – يحن الشيخ – ما أعظمهم هؤلاء الأصدقاء !..."

فهكذا كلماته نفسها، بصوته ذى الخمسين عامًا، ستستمر تطن لما يصبح الطفل رجلاً. بعد أن يكون هو قد ترك الكلام منذ أمد طويل... هل سيفهم الجمل باللهجة الشعبية ؟ لأنى اضطررت لتفسيرها لهؤلاء الناس فى بعض الأحيان... لكن بروناتينو سينطق ويتكلم هذا الصيف فى روكاسيرا، وسيكون كلامه باللهجة الحلية قبل أن يكون بهذه الإيطالية ! فاللهجة لغة الرجال.

يحترم الأستاذ والطالب صمت الشيخ المؤثر الذى يتأمل هذه العلبة من البلاستيك التى يقرأ على غطائها : "رونكونى سالفاتورى

(روكاسيرا)... يعود فيحفظها فى الظروف ويقرأ فوق هــذا : "إلـــى بروناتينو من أصدقاء جده فى معهد أبحاث الأســتاذ بوونكونتــونى. "أناس كرماء ! وبلا كلام يعانق الشيخ مقلم الأشجار السابق بالبلدية، وبحرارة يعانق المقاوم بفال داووستا. ثم يدعوهما من كــل قلبــه أن يذهبا فى الصيف إلى روكاسيرا. يلــى ذلــك شــىء مــن المــزاح والعبارات الودية وهم فى الطريق إلى المخرج. يقدم له بوونكونتونى بطاقة زيارته عارضًا نفسه لأية خدمة، ويرافقه إلى الكبيرة والــسلم الخارجى المؤدى إلى الشارع، يقوم بالتحيات – ويفهم الشيخ الفخور – الرفيق المحترم توريدو، شادى كالابريا الكبير.

يفتح له فاليريو باب السيارة الصغيرة، فيستقر الــشيخ علـــى المقعد وهو يلامس فى جيبه الصندوق المعدنى الذى سيجعل الكلمات المهداة أبدياً إلى بروناتينو ترن فى المستقبل البعيد.

إلى الطفل : تلك الحقيقة.

(٥٥)

خطوات لطيفة وجئير خروف صغير يوقظ الشيخ ظانًا نفـــسه فى الحظيرة. لكن تنفتح عيناه فى الغبش على ملاك صـــغير أبـــيض يرفع ذراعيه عند الباب المقابل للسرير. ينهض الشيخ ويقفز ويجرى إليه. يرفعه ويجعل له من ذراعيه مهدًا؛ فيغمــر صــدره حنــين لا يوصف عندما يلقى الطفل برأسه على كتفه. يأخذ الملاك فى إغماض

عينيه تمشيًا مع هزات الشيخ لحمله العذب واقفًا أولاً ثم جالسًا على فراشه.

"صحيح أيها الرفيق، لقد فاجأتنى نائمًا. لكن لا تظن أنى أهملت الحراسة... فالأمر هو أن العدو ينسحب. نحن فى طريق النصر فى هذه الحرب. نعم، نحن رابحان وبعضهم يستسلم الآن. ألا تصدقنى ؟ ألا ترى ذلك بنفسك؟ لننتظر كيف وصلت إلى هنا ؟ هل كان عليك الصياح وضرب الباب، كما فى المرات الأخرى ؟ لا؛ لأن الباب كان مفتوحًا. أأنت سائر فى فهمك إياى ؟ هو ذاك أيها الرفيق. فالآن لا يسجنونك، ولن يسجنوك بعد الآن ! لقد انتصر جدك، فرقة برونو، نحن منتصران ! "يضع الطفل برهة، ثم يأخذه من جديد بعد أن ألقى الدثار على كتفيه؛ كى يلتحفا به معًا.

– تسأل ماذا جرى ؟ إن أندريا استسلمت. هو كذلك، استسلمت أمس بالذات. لقد جاءت لتفاوض رافعة منديلاً أبيض كما هى العادة... تكلمت وتكلمت وتكلمت فأنت تعرفها. لقد أظهرت حتى بعض الود. الخلاصة هر، هر، هر : فالباب لنا. لقد غزونا إلى الأبد هذا الممر بالجبل. الكارومانغو الذى يسيمه صديقى الأستاذ بطريقة أخرى... هكذا قالت لى : "لا لزوم لذهابك ليلاً يا سيدى. نم هانئًا فلن نسجنه. ليفعل الطفل ما بدا له. "هكذا تكلمت وطبعًا جئت إلى. إلى مَنْ أحسن منى. إلى فرقتك المتمركزة فى هذا الموقع. لاحظ كيف نتقدم، فلم نعد نقاوم فقط. جئت عند جدك... آى يا طفلى الصغير

وملاكى. متى ستناديني "نونو" فهى أحسن كلمة سر ؟ إنها سهلة جدًا. يكفى أن تقول مرتين بلسان الوردة الصغير هذا، ذلـك "نـو" الـذى تصيح به دائمًا. أتسمع ؟ هكذا : نـو – نـو.إنـه كثيـر الـسهولة وستسعدنى به كثيرًا.

"من المؤكد أننا متقدمان. نعم، أعرف ذلك، لا تقله لى. فهـذا الاستسلام يمكن أن يكون خديعة. لقد خطر على ذلك، لكن فى هـذه الأثناء نحن نتقدم. لهذا نحن هنا، إلى الأسفل من الجبل. انظـر إلـى النافذة، فإنك لا ترى السماء إلا إذا أخرجت رأسك... ما تراه مقـابلاً ليست صخورًا، بل منازل. نعم، بأناس نـائمين فـى هـدوء لأنهـم يعرفون أن الحرب على وشك الانتهاء. فبعد وقت قصير نحـررهم، وكما قلت لك سنكون هناك فى الصيف. فالطقس الجميل يتقدم معنـا أيضًا... ثم إنى وقد حررت بابك، سأسمح بأن تجـرى لـى عمليـة بالمستشفى. سيصطادون الروسكا. يحزننى ذلك، ولكـن لا منـاص. سأصبح قويًا للهجوم الأخير وهو احتلال روكاسيرا. بقى القليل فهـم ينسحبون على كل الجبهات، وهذا وعد مقاوم. هنـاك سـتلعب مـع الخرفان، وتركب الحصان معى. سيصبح لك الشمس والقمر والجبل وخاصة الجبل بمروجه وغابات قسطله... سنعبر الميدان كما يجـب، من دربنا الخاص. وسيقول الناس : "من هذا الطفل البالغ الجمـال ؟" كل الناس : النساء فى الدكان، والبغالون والمنتظرون دورهـم عنـد ألدو الحلاق، وأهل متجر التبغ، والـشاربون ببـاب بييـو وحتـى

المقابلون، أهل الكازينو؛ لأن آل كانتانوتى أصبحوا لا شىء. سيقولون جميعًا" هو ذا تزيو رونكونى مع حفيده البروناتينو... إن هذا الطفل يعرف كيف يطأ وكيف يرفع رأسه، إنه صغير لكن انظر إليه : إنه يشبه جده..." سيحتفلون بك جميعًا. بعضهم لمحبتهم إياى، وآخرون لخوفهم منى. نعم، ستتعرف على أمبروزيو؛ فهو أكثر من أخ لى. سيأخذك إلى كل مكان؛ لما أعجز عن ذلك... عليك أن تحييهم معطيًا كلاً منهم معاملته المستحقة. ليس هذا صعبًا، سأعلمك. إن المسألة مسألة حدس، أتعرف ذلك ؟ وأنت لك الكثير منه يا طفلى. حدس لمعاملة الرجال، وسوف تتعلم بجانبى.

"والنساء ؟ معاملة النساء. ذلك يأتى من بعد وهو أصعب. كنت أظن نفسى عريفًا، وأن إعطاءهن اللذة كافٍ فى حد ذاته. فهو لا صعوبة فيه، بل بالعكس، ولكن الواقع غير ذلك... كن أعطيننى أكثر بكثير لو عرفت. فدونكا نفسها لا تستطيع معرفتها. يا للعينيْن العسليتيْن بشرارات خضراء تظهر مرة، ومرة لا تظهر تمشيًا مع ما هى عليه!... طيب، أنا أيضًا لم أعرفها. أرى ذلك الآن. لكن تعلمت – فى النهاية – مع هورتنسيا. فهى التى تعرف وهى ذات القمة من أية امرأة أخرى. عيناها الفاتحتان بين الأزرق والبنفسجى لا يتغيران أبدًا. فما أعظم أمنها. إنه شبيه بهذا الذى تحصل عليه بين ذراعى. ما أعظمها من حماية. عينان لا تؤثران فى البداية، لكن تواصلان النظر؛ فتنغمسان شيئًا فشيئًا حتى تأخذا منك كل ما عندك. تتكلم،

تعترف، تستسلم. ولمن أحسن ؟ موضوع النساء، حرب أخـرى يـا بنى، ولكنها حرب معكوسة : ففيها يعذب الأسر... أنـت لا تـزال صغيرًا ولكن ستعرف عن عيون كهذه : طعنة تخز رويدًا رويدًا؛ كى تتمكن من النفاذ أكثر إلى أن تصل القلب... الآن أفهم الحيـاة. الآن ومن أجلك برز لى صدرى. أنت أيضًا ستفهم، لكن قبل الأوان. فمـا لا أعرفه أنا الآن، ستعلمك هى إياه. فهى كثيرة الثبات واللين. قويـة حتى أنها حملتنى على ذراعيها... فكلمات فكرت فى ذلك تمنيت لـو كنت بمشاعرى فى ذلك اليوم. لكن لو كان كذلك لانتصبت لأحملهـا أنا... ما تم هو الأحسن : وهو أن أعرف ما حدث، وأن أكون فيهـا كما لم أكنه قط. فهذه المرأة ليست أجمة تلتهب، بل هى ينبوع دائـم. فلا ظمأ هى غير قادرة على إطفائه. وستكون معلمتك؛ لأنها سـتأتى معنا. سأحملها إلى روكاسيرا، ستصير جدتك ! نعم يا بنى، ترافقنـا إلى روكاسيرا التى هى قمنا بغزوها لك. هناك ستضحك من العـالم بأكمله...

"نم هانئًا لأننا منتصران. حتى الروسكا استسلمت؛ فهى لا تكاد تعض. فمن هذا الموقع بقى القليل. نم إلى صدر جـدك؛ فهـو مـن صخر كالجبل. نم وتهيأ للدفعة الأخيرة. سنهجم بعد عـودتى مـن المستشفى، وقد تحررت من روسكا. وهذا الصيف فـى روكاسـيرا، الطواف فى الصباح، والجلوس فى المضحاة عند المساء. ففى هـذه الساعة، تظهر النجوم الواحدة تلو الأخرى، وعن بعـد يغنـى أحـد

العائدين من الحقول. الهواء يعبق برائحة المحاصيل الحديثة الجنى، وإنه لمن العذوبة، العذوبة، العذوبة التنفس. إنها الحياة..."

(٥٦)

"ما هذا الميدان ؟... ينظر الشيخ حوله حائرًا. "أين أنا ؟ كيف وصلت إلى هنا ؟ نزلت من الحافلة، نعم، لكن أيها ؟ لم أتثبت من الرقم، لقد سهوت... ما الذى أزعجنى خلال الرحلة حتى أنزل فجأة؟ هناك سبب ولا شك؛ فحدسى لا يخطئ. هم لاحقون بى ولا شك... الآن، لا، وإلا لشعرت بذلك."

"الهدوء قبل كل شيء... أولاً، ما هذه المدينة؟... إنهم يرسلون المرء إلى أماكن مختلفة جدًا... الاسترشاد مستحيل : فهو يوقظ الريبة... من المؤكد أنى جئت فى مهمة ما... أو أنا مارٌ هاربًا كما فى مرّات أخرى ؟ الهدوء، الهدوء، سوف أوضحه كله فقد عشت ظروفًا أحرج. يا للعنة، هذه ألعوبة أخرى نتيجة الصدمة فى رأسى لما ألقيت بنفسى من وهدة أولديرا لأنجو من الحصار. كان ذلك منذ... كم ؟ ثلاثة أشهر أو ما شابهها لكننى لا أزال أعانى أثر ذلك."

"طيب ولقد نجوت من غيرها... هناك فى أولديرا بالذات حيث لم ينجُ غيرى... سأرى إن وجدت فى هذا الكشك ما يدلنى... غريب ولا جريدة واحدة تتكلم عن الحرب. الرقابة طبعًا، أو لأنهم سيخسرون. قبل الآن كانوا يتبجحون بتقدمهم ورميهم القنابل

وبالأسرى، معلنين ذلك على الصفحات الأولى. والآن هم صـــامتون، لكن هذا لا ينجيهم... آ، ماذا قال عندما مر صحبة فتاته ؟... "أنا لن أتحرك من روما – هذا ما قاله – فأنا راضٍ هنا"... إذن هى رومـــا، وما الذى جئت أفعله فى روما ؟ ســأرى هــل يــدلنى اســم هــذا الميدان...؟"

يتقدم شرطى من هذا الشيخ الذى يبدو عليه الضياع:

– هل تبحث عن شىء يا سيدى ؟ هل أستطيع مساعدتك ؟

"الحذر ! لكن السؤال هو أحسن للمحافظة على الشكل العام".

– نعم، شكرًا أيها الشرطى، ما هذا الميدان ؟

– ميدان لودوفيكات.

وأمام هاتين العينين الحائرتين يضيف الشرطى :

– إلى أين تريد ؟

"أتظننى غبيًا ؟ فأول شرط هو عدم الإدلاء بأية معلومة."

– هل أستطيع مساعدتك ؟ يلح الشرطى الذى تشجعه عدم ثقة الشيخ.

– لا تتعب نفسك، شكرًا، إنى أعرف روما جيدًا.

"روما ؟ يندهش الشرطى ويتأمل الشيخ بأكثر دقة... لا يبـــدو عليه الإجرام ولو ظهر منه بعض العنف. لكن إن ظن نفسه فى روما

فشيء ينقصه فى رأسه... وإن كان هاربًا من مستـشفى. فالمعاهـد الطبية قريبة، هى وراء كورسو بورتا رومانا.

– هل تشكو شيئًا أيها الرجل الطيب ؟ أين تسكن يا سيدى ؟

– ولماذا علىَّ أن أقول لك ؟ يجيب مخفيًا ضجره.

سوء الحظ شاء أن يلفت نظر بعض المارة العاطلين، فيـشعر الشرطى بأنه فى خطر. إنه شاب ولا يسمح بالتبجح، ثم إنه يدعو إلى إقرار القانون. يجيب بقوة:

– لأنى سلطة.

"سيتجبر على الآن هذا الصبى الذى كان عليه أن يكـون فـى الجبهة. يفكر الشيخ ويجيب متهكمًا :

– سلطة ؟ وسلطة أية حكومة ؟

يحار الشرطى ويغضب ويتشدد فى الاستجواب. يكبر تجمـع المتطفلين فيأخذ الشرطى الشيخ إلى هاتف يستشير بواسطته رؤساء، من دون أن يجرؤ الشيخ على الجرى هاربًا؛ لأن الهرب يفشى سره، ثم إن الدم الذى أضاعه بسبب الجرح الأخير قد أضعف قواه.

"سأظهر الغباء. يقرر وقد تركه الشرطى منتظرًا داخل سيارة الدورية، شيء سهل فهؤلاء الرومانيون يظنوننا أغبياء نحـن أهـل الريف... رومانيون، نعم، ولو أن هذا الشرطى يكرر أنها ميلانـو؛

كى يربكنى فأعترف... لن يأخذوا منى شيئًا، والآن أقل من أى وقت آخر "يواصل راضيًا عن نفسه ؛ إذ إنه قد حطم الأدلة مغتنمًا فرصة مهاتفة الشرطى للإلقاء ببطاقة هويته خفية فى إحدى البالوعات. لهذا لم يجدوا الوثيقة وهو بعد فى مركز الشرطة رافضًا الإدلاء باسمه، وعبثًا بحثوا عن البطاقة فى محفظته. ومن سوء الحظ، لم يكن للشيخ الصبر الكافى لمتابعة مسلسل غبائه هذا؛ لأن الرقيب المدعى الذى يستنطقه قد أثار حنقه.

– لا تخدعنى أيها الفاشستى الخائن... –لفظها أخيرًا – نعم، خائن ولو ارتديت زيًّا إيطاليًّا... اذهب وأخبر مولاك الألمانى المختبئ هناك فى الداخل. ليخرج، ولن أعترف بشىء ولو أمام الجستابو.

ما من شك، يفكر الرقيب، أنه مختبل، أو هو يتظاهر بذلك كى يخفى شيئًا أخطر. يأمر بسجن الشيخ فى غرفة انتظار ويتحاور مع كاتبه؛ لأن رئيس المركز قد خرج فى مسعى. ما العمل؟ غير أنه شرع فى المهاتفات الروتينية مع المارستانات والمصحات والمستشفيات.

– اسمع يارقيب، ألا يمكن أن نستطيع شيئًا عن طريق هذا الأستاذ بوونكونتونى ؟ – يقترح الكاتب الذى وجد بطاقة الأستاذ فى المحفظة، وهى تقول : "عالم أصول الأجناس البشرية."

– فلعله الإخصائى الذى يباشره.

من حسن الحظ، أن الأستاذ كان بمنزله، وبالأوصاف الخاصة يتعرف إلى الشيخ بسرعة. لا، ليس مجرمًا ولا مصطنعًا، لا شك أنه يشكو خللاً فى الذاكرة. لا أستطيع مدكم بعنوانه، ولكن يعرفه فاليريو فرلينى ابن المحامى ويعطيهم رقم هاتفه. إن لم يجدوا عائلته فالأستاذ نفسه مستعد لأخذ الشيخ من مركز الشرطة ويتحمل مسؤوليته.

بفضل فاليريو يستطيع الرقيب فى النهاية من المتحدث إلى ريناتو فى المصنع، ويطلب منه القدوم بأسرع ما يكون. يقدمون للشيخ فى هذه الأثناء قهوة وبعض البقسماط. إن اسم دومينيكو فرلينى بطل المحاكم له وزنه فى مراكز الشرطة، وابن المحامى كان حاسمًا لفائدة الموقوف.

"هذا من أجل أن ألين. يتروى متأملاً الصينية فوق المنضدة، ويتساءل إن كانت بالقهوة بعض المخدرات. يقرر – فى النهاية – تناولها. هؤلاء ليسوا علماء، فهذه الحيلة المعتادة : التلطف أولاً، ثم تأتى الصفعات... إن كل ما آسف له هو قضائى الليلة سجينًا. لى فكرة وهى أن مهمتى تتم ليلاً... نعم، أنا واثق، فى ليلة، لكن أيها ؟ لو احتفظوا بى لا أستطيع العمل. لو استطعت التذكر !... الثابت هو أنى ضحية خيانة؛ لأنى لم أقم بشىء يثير الشكوك. لعله الطبيب؛ لأنى لم أسمح بإفراغى... لا، عرفت الآن، لقد خانتنى الجاسوسة، الجاسوسة الألمانية صاحبة النهدين الكبيرين. تلك التى جاءت بعذر... ما هو ؟ نعم، عذر العناية بـ... ببروناتينو !"

يزيل هذا الاسم السحرى كل اضطرابات الذاكرة ويعيد النظام. هذه هى مهمته الليلية :

حمايته ! إذن عليه الخروج وحالا؛ فمن النافذة يـرى بدايـة غروب المساء الربيعى.

يقف الشيخ. يضع قبعته ويطرق الباب، وبما أنهم لم يفتحوا له يصيح :

– افتحوا من فضلكم، لقد عرفت، تذكرت، سأقول كل شـىء. افتحوا، اسمى رونكونى سالفاتورى، وأسكن عند ابنى بشارع بيافى، ويعرفنى الأستاذ بوونكونتونى!... نعم، وعـضو مجلـس الـشيوخ زمبرينى. افتحوا من فضلكم، أنا...

يفتح الباب ويظهر ريناتو الذى يعانق أبـاه، بينمـا الـشرطى بالعتبة.

– أنت بخير يا أبى ؟

– طبعًا !... لعلك انزعجت، ليس بى شىء – يهمهـم بثبـات حنون – ليس من السهل أن يصيبنى شىء. غير أن هـؤلاء النـاس يرون المرتاب فيهم فى كل مكان، ويعجبهم التسلط، لكـن لا بـد أن ينتهى بهم الأمر بسراحى.

ينسحب الشرطى برصانة، وريناتو لا يجيب، ويخرج صحبة أبيه، ويعطيه محفظته التى سلموها له. عند مروره يعيد الاعتذار للرقيب الذى عنفه قبل تسليمه الشيخ عن هذا الإهمال، تجاه مريض عقلى يتركونه يخرج بلا بطاقة هوية. فمن حسن الحظ أن لقب فرلينى، ولو أنه مزج عرضًا فى القضية، قد سهل الحل.

يخرجان إلى الشارع. يقول الحارس الذى فتح له الباب إلى الرقيب :

-هل سمعته يا سيدى ؟ فهو أيضًا صديق لعضو مجلس الشيوخ زمبرينى... الواقع هو أن مظهره لا يدل على قيمته.

- لا تخدعك المظاهر - يقضى الرقيب - إنه مختبل، وكان فى استطاعته القول بأنه ابن الأب المقدس... لا تصدق أبدًا كل من يمر من هنا.

لا يتحدث ريناتو خلال الرحلة إلى البيت إلا عن أشياء غير ذات أهمية ؛ خوفًا من أن يضاعف من مضايقة أبيه. وهو فى هذا مخطئ تمامًا : فالشيخ ليس نادمًا، بل بالعكس. إنه يعيش انتصاره فى عظمة ؛ لأنه عاد فخرج من مركز الشرطة، وكالعادة من دون خضوع. لم يحصلوا منه ولا على كلمة وما هو أهم. فالطفل يستمر فى أمان ؛ لأنه عائد إلى جنبه هذه الليلة، وسيحميه من كل خطر فى الموقع المتقدم الجديد.

(٥٧)

إن الحجارة المنحوته لغز وضجة صامتة. صورتان بـشريتان فى حالة ولادة، حالة موت. لم يتمم الإزميل خلقها. الجسد الرجـولى العارى خائرة قواه، والمرأة تسنده وسط ردائها، بذراعين عاشـقتين ووجه يائس... ما أعمق فهم هورتنسيا لهذا النحت وقد واجههـا بـه رجلها !

– هما هناك. انظرى محاربى – يصرخ الشيخ – همـا ليـسا "بياتا" (شفقة) أليس كذلك ؟ لكن يا له من تمثال ! ما أعظمه أنجيلو !

من المؤكد أن "البياتا" كانت دائمًا بالنسبة إلى هورتنسيا صورة مختلفة : حب مجروح، حنان متألم، وعلى الرغم من هذا، ففى هـذا النحت ترى وضعيتها الخاصة تجاه الشيخ لا يستطيع أى تمثال آخـر أن يحدث لها حزنًا كبيرًا؛ لأنها هكذا رأت نفسها ذلك اليـوم وهـى تحمله امام مرآة خزانتها. إن هذه الحالة المؤثرة النابعة من التمثـال الذى يترجمه الشيخ إلى بطولة حربية تمزق لها قلبها وتعزيها فى آن واحد. وهكذا يريد إفهامه هورتنسيا لأنها له. لقد أقنعها و سيتزوجان بعد إتمام الإجراءات وأوراقها.

– تبقين شاغرة الفم، أليس كذلك ؟

– لم أكن أنتظر هذا، ثم إنى ظننت أنك أتيت بى لترينى ذيْنك الأتروريين اللذيْن يعجبانك.

- كيف، وفى ميلانو لا يوجدان ؟... لكن هذا يستحق الزيارة. هذا... يا له من ميجل أنجلو وما له من أشياء.

لا يستطيع قول أكثر من هذا، ولكنه يرخى قبضتيْه ويقطب الجبين ويركز النظر.

- هل الأتروريان مثل هذا ؟

- بالعكس ! هذان يصارعان، والأتروريان يعيشان، ولكن بشجاعة هذيْن نفسهما، يخالجه الألم ؛ وذلك إثر خروجه من المتحف. فالعيون تملؤها سماء صافية زرقاء ويقبل الوجوه نسيم دافئ، والشمس تطرح ظلالاً راقصة تحت الأشجار وكثيفة عند أقدام العمارات. وفى الحافلة يحكى الشيخ آخر حيلة له وهو يشم رائحة هورتنسيا، ويشعر بيدها اللينة فوق قبضته النائتة العظام.

لقد نجا برونانتينو إلى الأبد ! لقد أخبرتك أليس كذلك، بأن أندريا استسلمت ووعدت بأنها لن تعود إلى سجنه؟... ومن باب الاحتياط أنجزت العمل. لا أثق بالمنقذين أبدًا مثل موسولينى وحكاياته. لا فالمرء ينقذ نفسه بنفسه؛ ولهذا علمت برونانتينو كيف يفتح الباب مقربًا كرسيًّا من الجدار ؛ لأنه لا يصل إلى القفل فيركب على الكرسى، وهكذا يصل. ملاكى العزيز، لقد أصاب من أول مرة، إنه أكثر ذكاء !... فالآن لا يهمنى الذهاب إلى المستشفى، فالطفل أخذ يدافع عن نفسه، ثم إنك موجودة.

بعد ذلك، وهما فى مصلى سان كرستوفورو، وبينما تستعد هورتنسيا للصلاة، يتأمل اللوحة فيرى فيها صورته رافعًا برونـاتينو إلى الأعلى فوق يده. فهذه الصورة وضعتها على العرش فى أقدس مكان من خزانتها ؛ لأنها لم تشأ تأطيرها فتبقى على مرأى الجميع. ويفكر الشيخ فى هذه الأثناء أن بين اثنيْن يسهل العبور إلى الضفة الأخرى: "أنا وهورتنسيا نعبر النهر معًا، جنبًا إلى جنب، وبروناتينو جالس فوق أذرعنا المتشابكة وهو يطوق عنقيْنا بذراعيه الصغيرتين يتعطف مكررًا : هكذا، هكذا، جنبًا إلى جنب".

تلتفت هورتنسيا إلى الرجل :

– أتذكر أول ما أتيْنا إلى هنا ؟

– نعم، بعد أن رأينا سان فرنشسكو. كيف لا أذكر؟ لهذا سنتزوج هنا، ولكن لم يكن الخورى معاديًا للفاشستية أبدًا مثل دون دجوزبى الذى أخفانى فى القبة، المسكين، ثم ألقى ذلك الوعظ.

(لأنه يدعى دون دجوزبى، فالآن فقط مر الاسم المنسى بذاكرته).

إنه مصمم ولو أن هورتنسيا بدأت بمقاومة الفكرة. ثم إن أوراق الشيخ ستصل سريعًا ؛ فقد كلف بها أمبروزيو. إن الرجل يتحمس متخيلاً ضجر ختنه وقد نزلت عليه مولاة غير منتظرة، ويتمتع مسبقًا بوصوله إلى البلدة صحبة المرأة العجيبة... لكن الأمر

الجوهرى هى هورتنسيا التى تبعث فيه الحياة وستبعثها فى بروناتينو الذى وإن كان يدافع عن نفسه بنفسه ؛ فهو يحتاج إلى امرأة. سيعتنى به أبواه طبعًا، لكن كيف ستعلمه أندرييا ما لا تقدر حتى على تخيله ؟ يجب أن لا يمر الطفل بما مر به هو. يجب أن لا يضيع شيئًا، وأن يعرف مُذ البداية كيف يتكهن النساء !

- فهكذا ستصبحين جدته، وستواصلين تعليمه من بعد. ويضيف : الطفل يحتاجك.

- وأنت ألا تحتاجنى ؟ تجيب هى متظاهرة بالغضب.

- ألا تعرفين ذلك ؟ يجيب مغتاظًا.

- واضح أنى أعرفه يا غبى، لكن أريدك أن تقوله!

- إذن ها قد قلته.

تعود هورتنسيا إلى صلاتها بعد إثراء إعجابها بكلمات الشيخ. "سنتزوج هنا، نعم، لقد حسم الأمر. إنها لا تحتاج إلى الزواج وهما على ما هما عليه. فما الذى سيضيفه الاحتفال ؟ لكن ذلك يسره كثيرًا! ولما يعودان إلى الشقة - يا لفرحة الخروج فى هذا اليوم المضىء - يدخلان المطبخ ليحضرا عجينًا حسنًا (مكرونة) على طريقة الجنوب. بالطريقة الأمالفية أم الكالابرية ؟ يتناقشان مازحين إن كان هذا النبيذ أكثر مناسبة، أو ينزل هو لشراء صنف محلى،

أو إن كانت ستأخذ معها "الكونتشرتو" للزواج، وهو مجموعة حلـى العروس فى روكاسيرا بما فيها الخاتم "بالبريللوكو" (الحجر الثمـين) والأقراط والقلادة والسوار... فوق السطح المقابـل، تنقـر بعـض العصافير فى حيوية ما تلقيه هى من لباب الخبز.

فى غرفة الأكل، وبعد أن فرغت الأطباق، ينظر الرجل حوله. منظر من أمالفى وآلة المندولين والنباتات النضرة فـى أصائـصها النظيفة. يا له من سكون، مثل اليوم الأول.

"لكن أين صورة توماسو ؟... زالت كما زالـت دونكـا... إن هذه المرأة تفكر فى كل شىء. نعم مثل دونكا، دخل التاريخ" يكـرر الشيخ لنفسه. يجرى فى عروقه توتر فاتر، فينهـضه مـن كرسـيه، ويقربه من المرأة وهى تنظف المائدة.

– لكن، ما أنت فاعل يا برونو ؟ تقول وقد شعرت بخـصرها يطوق.

– تقبلها الشفاه الأخرى، والآن هى التى تشعر بعودة مـشاعر قديمة. تضحك سعيدة مستسلمة.

– يالك من مجنون !... هيا، هيا، إلى قيلولتك؛ فأنت مشاغب كبير ومن الأفضل لك الراحة.

نعم، مشاغب، فقد مضى زمن طويل والقبلـة ليـست قبلـة. "انظر، لو استسلم أيضًا العدو الآخر، الروسـكا !... مجـرد آمـال، فعضاتها الأخيرة لا دواء لها."

– طيب، لكن تنامين أنت أيضًا.

– تتزعج هورتنسيا وتحزن أمام هذه النظرة الرجولية. "إنه لم يعد يصلح لشيء !"

تأسف مفكرة فى جسدها. الشيخ لا يقبل كتمان الحقائق.

– لا ترفضى. ليست هذه هى المرة الأولى.

– كنت مريضة ذلك اليوم.

– ألا تثقين بى ؟

لقد شعر برهة بسرور فيواصل :

– لم نعد فى سن الشباب يا امرأة. لا تمنِ نفسك فقد قلت لك ذلك... ثم إن الفراش هو أحسن مكان يجمع بين رجل وامرأة.

كلام وصمت فى غبش الربيع فى المضجع، غبش تتخلله الستائر المطبوعة. يضطجعان جنبًا إلى جنب تحت الجوخ والدثار ونصف عاريين والكلمات نجوم فى مغرب كل يوم، جمرات حمراء فى نار هادئة وألغاز مشتركة. والصمت يحكى كل شىء؛ فهو حياة كل واحد منهما كاملة تبعث فتتركب من جديد باحثة عن الأخرى كى تكتمل. إنه وجود الاثنيْن المتعانقيْن فى ضفير أشواق وآمال. لهذا تتدفق الاعترافات بعد كل صمت :

- لقد غرت من دونكا إلى ذلك المساء - تعترف هورتنسيا - ولا أزال.

يصاب الرجل بنوبة تبجح :

- ولمَ تغيريين من الأخريات؟

- أنا أعرف أنك حصلت على الكثيرات، لكن دونكا حصلت عليك... فى الأقل، إلى المدى الذى سمحت به.

أنت ملكتنى كليًّا، مستسلمًا كليًّا من دون شروط... فانظرى هنا، لم أعد أخجل من الحصول على امرأة فى الفراش من دون أن أذوقها. فانظرى إلى أى مدى غيرتنى...! كان الأمر معها بالعكس، تلذذتها ولم أفكر أن هناك ما هو أكثر.

تنهض هورتنسيا مندفعة فتسند مرفقها إلى الوسادة واضعة فى عينيها كل اعتقادها :

- لا تتألم، لقد أعطيتها ما كانت تريده ! "الحيوان البديع !" أعطيتها ما لم تكن لتعرفه قط.

تترك كلماتها تنغمس فى الرجل ثم تواصل :

- انسَ، لقد كان كما يجب أن يكون. فللحنان كان دافيد وهى رفضته... نعم، أعطيت كل ما هو أنت، ولم تعرف إلا الآن أنك أكثر من ذلك.

"إلا الآن – يجتر الرجل – وما الذى جرى الآن ؟ هى ميلانو أى الطفل وهى : فلا شىء غير هذا فى ميلانو."

– نعم، الآن أعرف ذلك وبفضلك أنت.

– بفضل بروناتينو.

– عشيقاى.

–عشق واخد وأنت المحبتان، فأنت تعطيهما.

صمت آخر فسيح.

"أنا المسلم نفسى"، يفكر الرجل : شىء جديد جدًّا فــــى عقلـــه، شىء ولد حديثًا خلال هذه الأسابيع. يتسلى بأن ينظر إليه من علٍ كما هو الآن، ولم يكن ذلك يعجبه قط. إنه يحب هذا الوجه فوق وجهـــه، وهذا البدن المسيطر عليه، والذى يطل من طوقه المفتـــوح، تقـــوّس صدر ممتلئ مائل نحوه.

يتأمله مسرورًا وهذا ما فكره دائمًا "ما سلطة لحـــم المـــرأة ؟ مكور وأبيض كالقمر الذى يقولون إنه يهيج البحر."

– ما سلطة لحم المرأة ؟ لقد رنت هذه الكلمات. لقد فـــاه بهـــا بصوت عالٍ من دون أن يشعر.

سلطة لحم الرجل نفسها تهمس هى وقد التهبت وهـــى تـــشعر باليد تصور فى لطف صدرها، وتسمع التنهد العميق.

صمت من جديد. نعم، ولكن ما أبلغ اللمس !

يتذمر. التذمر نفسه، الوحيد :

- ألا يؤسفك أن تأخذى فى فراشك لحمًا ميتًا لا غير ؟

- ميت ؟ يحتج هذا الحنان الكامل - بل حى. ألا يشعر هذا اللحم بملاطفاتى ؟.. يا له من شعرٍ هذا الذى فى صدرك ! يا له من تجعيد خشن، فكأنه يلتف فتبطئ أصابعى. وإلى الأسفل قلبك، قلبك الذى يتكلم، الذى يصيح بى : أنا حى !

صمت أكبر، أعلى، يشمل صدى الأصوات والضغوطات اللطيفة والاستكشافات العاشقة، وفى القمة شكوى رجولية متألمة :

- كم كنت أتمنى لو أنك عرفتنى كما كنت فى هذه المبارزة ! لو استطعت...

تترك اليد الأنثوية هذا الصدر الجعد، ويختم بإصبع ثابت شفتيْن نهمتين دومًا.

- اسكت، لا تطلب من الحياة أكثر مما أنت فيه.

وتعيد مخفية ضيقها المفاجئ.

- لا تطلب أكثر... حتى لا ينهار !

صحيح، يجب تركه كما هو، والتمتع به كما هو. تواصل هى الاستناد إلى مرفقها. "السيدة الأترورية"، يفكر الرجل. لكن لا فوق ناؤوس. الفراش محيط هادئ؛ حيث يعيش مد المحبين. حرية قصوى للاستسلام، فالرجل لم يعد يقيده شبح دونكا، ولا حتى ألم ما ضاع فى عضات روسكا الأخيرة – وهذا بفضل هورتنسيا – إنه هادئ أمام الباب الذى سيلجه قريبًا؛ لأنه يعرف كيف يغلب القدر وذلك بالاحتماء فى خندق ما لا يهدم، هو الزمن الحاضر. عيش الحاضر بكل عمقه.

هورتنسيا فى هذه الأثناء، وهى عارفة بما تعرفه، تشعر بدمعات، لها وله، تسيل فى داخلها خانقة صدرها، وتمنت لو أخذته مرة أخرى على ذراعيْها مثل تلك "البييتا" (الشفقة) فى المرأة – بروناتينها خفيف الوزن ! – لكنه سيشك.

تكبح أنفاسها، وتلجأ هى أيضًا إلى الزمن الحاضر وتدعو : "لا تجعله يتحطم."

(٥٨)

بحركة ماهرة؛ تتجنب السيارة الصغيرة صدمة شاحنة كانت لها الأسبقية.

– كيف تسوقين يا أندريا ؟!

توجه المعينة بالسؤال نظرتها وابتسامتها برهة إلى هورتنسيا.

– وأنت كيف تشترين !

– لقد كنت بائعة... لكن فتيات هذه الأيام في مغازة "لاريناشنسا" لا يعرفن المهنة. لا يقمن إلا بمرافقتك إلى الصندوق للدفع. وخلافًا لذلك، فمن المتعة التوقف للاختيار بين يدى عارفة بالمهنة، أو بالعكس تقديم البضاعة إلى مشترية بارعة. كنت أتمتع كثيرًا بهذا فى أيامي.

من دون شك. فمساء المشتريات هذا قد تمتعت فيه أندرييا بذوق هورتنسيا الرفيع، وبمهارتها فى الحصول على أحسن الأنواع بأحسن الأسعار. فى قسم "الفرص" كانت يدها تغوص فى عرمة الثياب كالنورس فى البحر، فتخرج بالصفقة الحقيقية.

تتساءل أندرييا وهى منتبهة لحركة المرور كيف يمكن لحميها أن يجعل هذه المرأة تحبه وهى العاقلة والرقيقة، حسب مفهوم ما، والكل فى بساطة. إنها لا تنكر خصال الشيخ، ولكنه مزعج بدرجة ! كيف استطاع أن يوحى بكل هذا الحب ؟ ليس من أجل المال، فأندرييا تعترف أنها لما تحدثتا للمرة الأولى عن الزواج، أكدت هورتنسيا قاطعة بأنها لا تقبل ميراثًا.

– ولا ليرة واحدة. أكدت: لا أريد إلا الأشياء الخاصة التى رأيته يستعملها : الدثار والموسى...

لم تستطع هورتنسيا المواصلة ؛ لأن نشيجًا قطع لها صوتها.

لا، ليس من أجل المال، تكرر أندرييا لنفسها. ومع هـذا فـإن ابنتها منزعجة ؛ لأنها وضعت بعدُ في حسابها في الميراث. يا لهـا من فتاة مبتذلة، لم تشبه أمها.

– سأكون العرابة[١] فهما مصممان. هكذا قالت الابنة لأندرييا باحتقار على حدة. لكن أمي لا شك وأنها جنت ؛ كـي تـذهب الآن لتدفن نفسها مع شيخ في قرية حقيرة من دون أدنى مقابل.

تفهم أندرييا خيبة أمل هذه الفتاة، فكلتاهما ستخسر لو احتفظت هورتنسيا بالميراث. وعلى أية حال، إن فكرة "القرية الحقيرة "تنسجم وأندرييا، إنها لا تكف عن التساؤل حول جاذبيات الشيخ. لا بد أنـه كان فتى رائعًا، من دون أي شك، لكن لقد مر كل ذلك، ثم إنه غيـر مثقف ولا رقيق ولا... لعلها حيويته. فهذه، نعم، فهو يتـركهم هـذه الأيام مندهشين جميعًا، وهو من شارع إلى آخر من دون هوادة؛ من أجل الإجراءات والأوراق. فأمبروزيو وصل مؤخرًا من الجنـوب، ليكون العرّاب الذي يعترف بالتعب، ويمدح طاقة الشيخ، وهو يناقش الموظفين، وخاصة في مكاتب المطرانية. فالخوري الـذي بالـشباك يهابه.

---

(١) العراب والعرابة : هما لدى النصارى الكفيل والكفيلة يختاران من بين الأقارب عند تعميد الأبناء، أو عند الزواج، فيصبحان كالأبوين.

أعرب دالانوتى أيضًا عن دهشته؛ لما ذهبت أندريبا وحــدها لتستشيره حول مشروع الزيجة.

- لو كان آخر فى الحالة التى عليها مرضه، لكان ساجدًا فـــى فراشه. ولكن نشاطه، أو مزاجه إن فضلت ذلك، أو أى شىء آخــر هو أقوى من المرض، وهو الذى يسنده... دعيه، دعيــه يتــزوج : فالأمل يدفعه... بعد ذلك... لا شك وأن كل شىء سيتم بسرعة وهــو خير له. نعم، أحسن بكثير. لا تزال أندريبا تتذكر كم فاجأها صــوت الطبيب، وهو يتم تلك الجملة بنغمة حزينة فجأة، متألمة لا أثر للمهنة فيها. كما لو أن الأمر يمسه. لماذا ؟

فى طريقها فى شارع بياقى، تدخل الــسيارة الــصغيرة مــن شارع ديلا سبيغا، وأمام الركن مــع شــارع بورغوبيــسو تتوقــف هورتنسيا عن تأملاتها، حول التغييرات الكبيرة فــى أســاليب البيــع بالمقارنة مع تلك الأزمنة الماضية.

"وأنا تغيرت أكثر. تقول لنفسها وهى تمر تحــت شــرفتها - كنت أرى نفسى وحيدة نهائيًا فى هذه الشقة الصغيرة، وها أنــا الآن سأغلقها وسأذهب إلى الجنوب وبــصحبتى رجــل وحفيــد، عائلــة أخرى... يالمفاجآت الحياة ! قبل أسابيع لم أكن أعرف هــذه المــرأة التى تحملنى فى سيارتها، ولم أرَ قط ريناتو... ريناتو، لو وهبنى الله ولدًا مثله. كم يفهم أحدنا الآخر؟ وكم يثق بى؟ يبدو لى وكأنى عرفت

أمه من كثرة سماعى له كابن، فصرت وكأنى أخت لهـا... آى يـا برونو، كم عندك من السلطة؟ كيف تربط بيننا جميعًا؟ هذا ولا أحـد يناقشك يا عنيدى. لا حيلة إلا اتباعك. لقد فتنتنا. أنت وبرونوتينـك، بروناتيننا. إن له مزاجك نفسه، وهو له مزاجه الخاص، فلم يكبر...؟

تخرجان من شارع ديـلا سـبيغا مـن بـاب البندقيـة، ثـم تختصرأندرييا الطريق نحو منزلها، مرورًا بشارع سالفينى. تتـذكر هورتنسيا عند المرور أمام متجر البقول فى اليوم الأول الذى رافقت فيه رجلها إليه. يا للنظرة الثاقبة التى استلمتها مـن تلـك المتباهيـة بسنيها الأربعين، السيدة مادالينا. نظرة عرفت كل شىء. لـم تتـأثر هورتنسيا وبدت باسمة، وهى تعرف ما تعرف مـن قـصة بائعـة الخضر؛ لأنها لمحت فى العينيْن الأخرييْن الحـسد والأسـف لعـدم الحصول على برونو.

لم تعد تفكر فى هذا لما وصلتا إلى المنزل. تدخلـه بابتـسامة أثارتها رؤى أخرى : شاب فى المستقبل مثل ريناتو، ولكـن بقـوة حيوية ورشاقة رجولية كتلك التى كانت للجد وهو شاب.

لما فتحت أندرييا الباب، شاب المستقبل هذا، يجـرى نحوهـا مالئًا الممر بصراخه، ويمد ذراعيه الصغيرتين لهورتنسيا.

– إنه يحبك أكثر منى. تعلق أندرييا المبتهجة على الرغم مـن ذلك بهذا الحب ؛ لأنها تأمل فى مساعدة كبيرة من هورتنسيا لتربيته.

- لا تقولى هكذا، ليس صحيحًا ما تقولين. تجيب هورتنسيا رافعة بروناتينو من الأرض، وواضعة إياه جالسًا فوق ذراعها: لست إلا الجديد. لوخير فأنت دائمًا الأم، كما تعلمين جيدًا.

- لا، لا أعلم، تجيب أندرييا برصانة: فأمى ماتت قبل أن أتم عامى الثالث.

تنظر هورتنسيا إليها، وتفهم أشياء كثيرة.

تطوق بذراعها الحرة خصر أندرييا، وهى تشعر بذراعى الطفل تلتفان حول عنقها. "رجلى هو بروناتينو - تفكر هورتنسيا متأثرة - بينما أنت يا بنى، يا ملاكى، أنت صرت برونوى مقبلاً إياى... أحبك من أجله، كما أحبه من أجلك. عسانى أراك كما كان هو وبعدها تغمض عيناى."

(٥٩)

زمبرينى متواجد بميلانو لبضعة أيام من أجل أمور حزبية، وبفضل دالانوتى استطاع تنظيم غداء مع الشيخ فى تراتوريا (مطعم مبسط) من تلك التى تعجب عضو مجلس الشيوخ، وهو دائمًا عدو الفنادق الكبيرة التى لا مناص الآن من إنزاله فيها. يرافقهما أمبروزيو الذى جاء وفى فمه كالعادة غصين أخضر، فاستعاد قدماء المقاومين الثلاثة، الأوقات الجميلة وهم يتذوقون قهوة بعد الغداء.

يذكرون اللحظات الصعبة، وكذلك ضربات الحظ وأوقات الانتصار.

يناقشون بتعجب شيوعية زمبريني، ولكن يتفقون في شعورهم بانحطاط البلاد والشباب بالمقارنة مع الحماسة الشعبية في منتصف الأربعينيات. وفي النهاية، عرّجوا بطبيعة الحال على الزواج القريب؛ فأسف زمبريني على عدم استطاعته الحضور.

شيء عجيب – يقول أمبروزيو – هذا ما لم يكن أحد ينتظره هناك، وهو تتمة للنصر. فأهل القرية فاغرة أفواههم. فبين هذا وصراعك الخاص من أجل الأراضي بقي آل كانتانوتي بلا أصدقاء. إنك تمسك بالناس في جيبك يا برونو. شيء لا تتصوره. حتى المتعبدات بدأن يفكرن بأنك في النهاية، ستعتنق حياة مسيحية. لقد بلغ بهن الأمر الدعاء لك. هذا مؤكد ! وخاصة بعضهن التي أخذتها إلى البستان وهي فتاة.

يضحكون.

– أتعرف الشيء الذي يغضبهن ؟ – يضيف – هو أنك لا تتزوج في روكاسيرا. يا له من احتفال يخسرنه. – للتزوج في أسقفية أخرى سيطالبونني بمزيد من الأوراق – يعتذر الشيخ ثم يرد الهجوم وبعد كل شيء، فلا رغبة لي في أن يباركني راهب روكاسيرا. أو لعله يعجبك ذلك المسرف في التعبد ؟ إنه طبعًا لا يعجب أمبروزيو أيضًا.

– تزوج كيف شئت يا رجل – يتدخل زمبرينـــى – فـــالعرس عرسك... لكن استعد "للثننثيرادا"... (جلبة للاســـتهزاء فـــى عـــرس الأرامل). يبتسم الشيخ كما لو قدمت إليه هدية.

– سوف أشحن اللوبارا (البندقية) بالخردق وبـــالملح كـــذلك ؛ تحسبًا لخروج بعضهم عن الحدود. إنى أقبل الثننثيرادا فهى ما يلـــزم إذا تزوج أرمل، وخاصة خارج البلدة، لكن ثننثيـــرادا كمـــا يجـــب ؛ فالمزاح الثقيل مع زوجتى لا يقبل.

– لا فائدة فى إطلاق النار يا برونو – يؤكد أمبروزيو – فـــلا أحد فى القرية يريد الآن بك سوءًا. أو لا أحد يجرؤ على التـــصريح به كما يتبجح الشيخ.

– نعم، هو ذاك، أو لا يجرؤ.

يرفع الشيخ كتفيه مزدريًا، ثم يتوجه إلـــى زمبرينـــى بعـــارة وقورة :

– لعلك تظن أنى مجنون يا ماورو ؛ لأنى سأبقى قليلاً. لعـــل دالانوتى قاله لك. وبالمناسبة إنه رجل طيب.

نعم، شرحه لى وقال لى كذلك إنه يحسدك ؛ لأنه خلافًا لك لم تبق له طموحات... أنت لست مجنونًا يا برونو، أنت عاقل جدًّا. أنـــا أفهمك.

– وفعلاً يحسن صنعًا – يقفز أمبروزيو – أنا هذا، وقد عرفت هورتنسيا. لو رأيتها يا ماورو... إنهـا المـرأة التـى يحتاجهـا أى رجل... إن لم تتزوج أنت فسأعرض نفـسى – يـضيق أمبروزيـو الأعزب، وهو يُبدى للشيخ تصعُّرًا مضحكًا كما فى الأيام الغابرة.

– لا تعشق، فهى تحبنى أنا. يتبجح الشيخ وهو يواصل التوجه لزمبرينى: هكذا، أتعرف ؟ هذا الصيف فى منزلى مـع هورتنـسيا وبروناتينو وسأعيش كل ساعة بأكثر مما يعيش الميلانيون فى عـام كامل... يوم ينادينى بروناتينو "تونو" أقيم حفلاً عظيمًا؛ فأنا مـشتاق لسماعه. وهو يوشك، يوشك. سيمهلنى وقتًا قبل الضربة الكبرى.

يسكت قليلاً ثم يسترسل فى وقار :

– نعم، سيكون لى متسع من الوقـت ! سـوف ينطـق فـى القرية... ثم إنه بعد.. بعد، أنت تفهمنى يا ماورو...

يخفض من صوته، ويقرب رأسه من رفيقه، ويبتسم فى ذكـاء ؛ فخورًا باستراتيجيته الحياتية :

– بعد ذلك ستكون لبروناتينو، ملاكى، كنزى، أحسن جدة فى الدنيا، المرأة التى تجعل منه رجلاً.

ينغمس الشيخ فى صمت ؛ كى يحسن تخيل هورتنسيا وهـى تنوبه بجانب الطفل. نعم، جالسة فى غرفته فـوق أريكـة الـسرير؛

فتستقبل هناك زيارة الملاك الصغير الأبيض الليلية، فتأخذه بين ذراعيْها لتحدثه عن جده برونو؛ كى تحكى له كيف كان، وكم وكم وكم كان يحبهما.

(٦٠)

يظهر الملاك الأبيض فى الباب المظلم، ويرفع ذراعيْه إلى السماء.ومندهشًا لعدم الشعور بأنه يطير نحو صدر الشيخ، ككل ليلة، ينطلق ببعض المقاطع من لغته المبهمة، ويخطو خطوات حتى يلمس السرير.

يفتح الشيخ عينيْه، فيرى ذلك الحضور الساطع، فيجلس : لماذا كل هذا التعب اليوم ؟ ويرفع الملاك إلى الفراش ويجلسه بجانبه.

– أنا يقظ يا بنى، كنت فى انتظارك... تعال اركب السيارة وسنخرج. إنها محطمة، ولكنها لا تزال تسير. من نوع "لانشيا" المحجوزة للماركيز. من كان يقول ذلك، وهو يتبجح بسيارته !... جئت بالأوامر، أليس كذلك ؟ لا حاجة لك بتسليمى إياها. أنا على علم؛ فالأخبار تصعد بسرعة إلى الجبل وخاصة منها الحسنة ! إنهم ينهارون : انتصرنا يا ملاكى. لقد ركلوا موسولينى وهم يشعرون بالضياع. يهربون كالفئران. فمقاومو كوزنتسا يلقون بالألمان العاجزين عن المقاومة إلى البحر. دافيد نسف لهم القطار وتركهم بلا ذخيرة... سعيد دافيد وهو يتعافى من جرحه فى ريمينى، مع دونكا،

لقد استحقا ذلك... يا لعظمة الدنيا الآن. فكما ترى، نحن نتقدم حتى بالسيارة مثل الفرقاء. لقد انتهى السير فى المسالك الوعرة من عشب إلى عشب. انتهى البقاء داخل الحصار، كما كنا أنا وأنت فى موقعنا، أتذكر ذلك ؟ لن يعود ذلك أبدًا... إلى الأمام فوق العجلات، إلى أسفل الجبل، مع اليقظة طبعًا؛ فقد يكون هناك رماة، فاشستيون يائسون.. لكن استوى الآن الأمر، لقد خسروا.

يقرب الطفل جسمه من بدن الشيخ؛ باحثًا عن الذراعين المرحبتين ككل ليلة.

– يا ملاكى، تلتصق مثل "لامبرينو" ! ويا لك من شجاع ! أنت صغير هكذا، وتأتى بالأوامر... لكن لعلك تشعر بالبرد. يجب الاحتماء من رطوبة الليل... لا تخف! سأغطيك جيدًا. يتناول الشيخ الدثار المطروح عند قدميه، ويلف به الطفل الذى يدمدم ويحرك بقوة يديْه الصغيرتيْن رافضًا الدثار.

– نا – نا – يحتج.

يضحك الشيخ، ويضمه بين ذراعيْه.

– لقد أصبت. هكذا أحسن، بقربى وأنا أهدهدك فلهذا لك جد... كيف لا أعانقك ؟! أنا قوى ولا أتعب خاصة فى السيارة. إذا كانت هذه هى الحرب؛ فلتأتِ الرصاصات. لكن لا تصرف انتباهك ؛ فالصباح على وشك وهى ساعة الهجومات المفاجئة، وهذا المكان

مناسب. نحن نعبر غابة القسطل. انظر، أنت تتعرف عليها، أليس كذلك ؟ لقد حدثتك عنها مرات كثيرة. يا للجمال ! إنها مخاطرة فقد يختفى فيها أحد، أو فيها حبالة : سلك من شجرة إلى أخرى، يمسك بقنبلة يدوية، فإن لمسته فلا تشعر ولا حتى بنفسك... ها قد ظهر النور، نحن خارجان من الغابة. سنرى القرية بعد المنعطف عند المرتفع... الآن، ألا تراها ؟ ألا تراها ؟ برج الكنيسة على يسار منزلى. أترى المضحاة ؟... روكاسيرا، روكاس يرتى... لتحيى !... الإشارة.

لقد أضيئت نافذة فى الفناء. يقف الشيخ بتعب، ولكن مأخوذًا بحماسته، يقف فوق السرير والطفل على ذراعيْه.

– الإشارة ! تقدم !... والنفير، أتسمعه ؟ انشد، لننشد جميعًا، نشيد المقاومين !

يبعث الصوت الهرم ضد السكون بنشيد حربى.

يملأ الجو سهم من نور آتٍ من نافذة أخرى غير مرئية. يتوقف الشيخ عن النشيد وينفجر فرحًا :

– شمروخ ! إنه أمبروزيو ؛ فالشماريخ تأخذ عقله...! إنه أمبروزيو، روكاسيرا لنا !

ذهول فى صمت.

يثقل حمله فجأة ثقلاً كبيرًا ؛ فلم يعد الشيخ يقدر على حمله. "مثل ما كان عند سان كريستوفورو" يفكر، بينما يجرحه ألم في صدره، ويقتلع من ذراعه تشنجًا قويًا. يسقط على ركبتيْه فوق الفراش مطلقًا الطفل.

لقد رمونى يا بنى. فاشستى كامن، لكن لا تخف فأنت مع برونو... مع برونو ! وأنا محظوظ دائمًا مع الرصاصات... سنصل قريبًا وهورتنسيا فى انتظارنا. ستعتنى بك ريثما أبرأ... فأنت تحبها، ثم هى الآن جدتك. أتعرف ذلك ؟ أحسن جدة فى الدنيا !... لا تجزع يا كنزى؛ سأحملك إلى ذراعيها.

بحثًا عن إزالة الألم، يضرب بقوة على صدره ؛ حتى إن الصرة التى تضم التمائم سقطت فوق الفراش، وقد تمزق رباطها.

– تيس هذا الرامى. يزأر، ولكن الزئير ينتهى إلى شكوى مكتومة.

يجلس ويسند ظهره إلى رأس الفراش، يهمس :

– لا أرى جيدًا !... فالشمس تعمينى وقد خرجت من الظل...

يسكت كى يدخر قواه، ولكن عقله يواصل، بينما الألم يزيد فى كبس كلابة على صدره لا ترحم.

"لا شيء، هذا لا شيء... يا للسرور بالشماريخ... كم من شرارات فى السماء. والأبواق، والموسيقى. أتسمع؟ أعود كما أردت: منتصرًا وبصحبتك يا ملاكى الصغير !"

أما الطفل الحائر أمام هذه الليلة المختلفة كثيرًا؛ فهو يحبو فوق الفراش نحو الشيخ. يتشبث خائفًا بالذراع التى صارت مشلولة، وينهض واقفًا ووجهه الصغير بجانب وجه الجد منتظرًا، ومنتظرًا!..

وفجأة يكشف له حدسه عن انهيار العالم، وعن الظلام الفارغ. وإذا بخفقة الوحدة تقتلع منه الكلمة التى سمعها كثيرًا :

– نونو – ينطق بها واضحة أمام هذا الوجه الذى تبحث عيناه عن الطفل من دون أن تراه، ولكن سمعه لا يزال ينصت وقد غمرته الفرحة.

ويعيد التوسل نداءه كالكليب الضائع: نونو، نونو، نونو، (جدى)

وها هو أخيرًا هذا النشيد السماوى !

ألوان من وراء الدنيا، ونور آلاف النجوم تغمر القلب المسن وتنتزع من هذا الجلال، من هذه العظمة، هذه الكلمة البعيدة الغور :

! نونو !

يستسلم لها الشيخ إلى الأبد، وهو يذكر اسم الطفل الذى لم تعد شفتاه تستطيعان النطق به.

يبدأ الطفل الفاقد الحماية فى الأنين. لكنه يهدأ وهو يشم فى الدثار أثر الذراعيْن اللتيْن كانتا تهدهدانه. يلتف واثقًا فى طياته، فى هذه الرائحة التى تعيد بناء العالم وهى تعيد له جده، فيهتف مفتخرًا بمأثرته مرة أخرى :

– نونو، نونو، نونو، نونو !...

وفى هذه الأثناء، تلعب يداه الصغيرتان بالتمائم. أزهرت فى طين لحم وجه الشيخ ابتسامة تتحجر شيئًا فشيئًا فوق خلفية دموية لتمثال خزف قديم.

ريناتو الذى جلبه النشيد الحربى وصراخ الطفل، تعرف حالا على تلك الابتسامة :

الابتسامة الأترورية.

المؤلف فى سطور:

خوسى لويس سامبيدرو

- ولد فى برشلونة عام ١٩١٧م.
- درس العلوم الاقتصادية فى جامعة مدريد.
- عين أستاذًا فى الجامعة نفسها.
- عمل أستاذًا زائرًا بجامعتى سالفورد وليفربول.
- عين عام ١٩٧٧ بمرسوم ملكى عضوًابمجلس الشيوخ الإسبانى.

عين عام ١٩٧٧ بمرسوم ملكى عضوًا بمجلس الشيوخ الإسبانى.
عين عام ١٩٩٠ عضوًا بالمجمع الملكى للغة الإسبانية.
من أهم مؤلفاته فى مجال تخصصه العلمى:

- الواقع الاقتصادى والتحليل الهيكلى ١٩٥٩.
- قوى هذا الزمان ١٩٦٧.
- الوعى بالتخلف ١٩٧٣.
- التضخم: رؤية شاملة ١٩٧٦.

إلى جانب مؤلفاته فى مجال الاقتصاد كتب العديد من الأعمال الروائية منها:

"تمثال أدولفو إسبيخو عام ١٩٣٩، ظل الأيام ١٩٤٧، الجواد العارى ١٩٧٠، أكتوبر، أكتوبر ١٩٨١ ، الابتسامة الأترورية ١٩٨٥، عروس البحر العجوز ١٩٩٠، طالما تدور الأرض مجموعة قصصية ١٩٩٣، العاشق الشاذ ٢٠٠٠.

وتعد هذه الرواية "الابتسامة الأترورية" من أهم أعماله، التى حققت نجاحًا كبيرًا ووضعته فى مصاف كبار الروائيين الإسبان.

المترجم فى سطور:

محمد عبد الكافى

إذاعى قديم، عاش متأرجحًا فى عمله بين الصحافة والتدريس. تعلم خمس أو ست لغات فكتب ونشر ببعضها وبالعربية طبعًا، وشارك بها فى الملتقيات والندوات وإلقاء المحاضرات والبرامج الإذاعية والتلفزيونية عبر عدد من البلدان ، التى أخذته إليها هجرته المستمرة حتى الساعة.

بدأ حياته التأليفية بالقصة القصيرة ثم استجاب إلى الدوافع الوطنية؛ فتنوعت كتاباته تماشيا مع الأوضاع التى مرت بها وتمر بلداننا العربية والإسلامية . نشر له العديد من القصائد الشعرية وكلمات الأغانى والمقالات فى كثير من الصحف والمجلات العربية.

ونشرت له دار لبنان بيروت قصة طويلة عنوانها "بين قلبين" ثم أصدر بالفرنسية "الزواج بطرابلس" (دار النش الليبية، طرابلس ١٩٦٤) وترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية ونشر مرتين (دالر الفرجانى، طرابلس ليبيا ١٩٧٧) كما أصدرت كتيبًا بالإنجليزية عنوانه "مائة مثل عربى من ليبيا" (دار فرنون وياتس المحدودة – لندن ١٩٦٨) جاء بعد ذلك وبالعربية، "إسبانيا من الدكتاتورية إلى الديموقراطية" (دار الكتاب – إسبانيا – ١٩٩١) و"ثلاثة أقلام إسبانية"

والمرأة الإسلامية عبر الزواج" (فولكانو – مدريد ١٩٩٨) وصدر له أيضًا نرجمة قصة "الابتسامة الأترورية" للكاتب الإســبانى الــشهير خوسى لويس سامبيدرو (يست الحكمة – تونس)

وترجمة قصة لأحد مشاهير القصاصين الإسبان حاليًا "أرتورو بيرث ريباتى". أما القصة فهى "معلم المبارزة" (دار سحر بتــونس). وبعد أيام ستصدر بمدريد وبالإسبانية عن (دار كانتارابيــا) ترجمـــة قصة الكاتب التونسى عبد الواحد براهم" تغريبة أحمد الحجرى".

المراجع فى سطور:

أ. د محمود السيد على

- أستاذ الأدب الإسبانى ، كلية الآداب – جامعة القاهرة.
- جائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة ١٩٩١.
- عضو الجمعية الدولية للمترجمين الفوريين.
- أستاذ زائر بجامعة قرطبة – إسبانيا، ماجستير الحلول السلمية للنزاعات.
- أستاذ زائر بجامعة روفيرا إى فيرجيلى – إسبانيا، دكتوراه دراسات ثقافات البحر الأبيض المتوسط.
- أستاذزائر بكلية القانون ، الدراسات العليا، جامعة ميسينا ، إيطاليا.
- أستاذ زائر بالجامعة الوطنية، سانتياجو – شيلى.
- أستاذ زائر جامعة الثالث من فبراير وبوينوس أيريس، الأرجنتين.

المحرر فى سطور:

أسامة عرابـى

- حصل على ليسانس الآداب مــن قــسم الفلــسفة – جامعــة القاهرة.
- عمل إحدى عشرة سنة مشرفًا لجمعية النداء الجديدة، التــى أسسها الراحل الكبير والمفكر الاقتصادى د. سعيد النجار .
- رئيس اللجنة الأدبية لأتلييــه القــاهرة – جماعــة الكتــاب والفنانيين المصريين(٢٠٠٤ – ٢٠٠٧)
- مدير المنتدى الأدبى والثقافى بحزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى.
- كاتب وناقد .. له دراساته الأدبية والفكرية المنــشورة فــى مجلات: فصول وإبداع والهلال وسطور ونزوى والمجلــة وصامد .. وصحف: الحياة والقدس العربى اللندنيتين وأخبار الأدب القاهرية واليوم السابع الفلسطينية ... إلخ.
- قام التحرير الأدبى فــى المركــز القــومى للترجمــة ودار الشروق، وسواهما مــن دور النــشر والمراكــز العلميــة المتخصصة.

الإشراف اللغوى: **حسام عبد العزيز**

الإشـــراف الفنى: **حســـن كـــامــل**



ونظرًا إلى أنه لا يفهم؛ فهو لا يجرؤ على الانسحاب عسى أن يحدث شىء فجأة. فهذا الصباح قد بدأ كغيره، وها هو يصير مختلفًا كثيرًا. لكن الحارس لا يجرؤ كذلك على الدخول، يمنعه احترام غامض. ويواصل البقاء بالباب، ناظرًا إلى الشيخ الذى يركز نظره، بلا اكتراث لحضور الحارس، إلى الضريح الذى مال فوق غطائه الزوجان.

فالمرأة متكئة على مرفقها الأيسر، وشعرها يتدلى فى ضفيرتين على نهديها. تقوست يدها فى جمال مقربة إياها من شفتيها الغليظتين. وخلفها الرجل متكئ هو الآخر بلحيته المدببة تحت فمه الفونى (الشبيه بفم فانون نصف الإله) وهو يحتوى القوام الأنثوى بذراعه اليمنى. إن لون الطفل المحمر فى هذين الجسدين يدل على خلفية دموية لا تبلى على مر القرون. وتحت الأعين المستطيلة الزائغة شرقيًا، تزهو فى الوجهين الابتسامة نفسها التى لا توصف: ملهمة.. مبهمة وهادئة.. متنعمة. كانت بؤر نور خفية تنير بذكاء متقن ذينك الشكلين معطية إياها جلاء وحدة وتملأهما بالحياة.

تصميم الغلاف: شيماء عزيز